١٩

وول سوينكا





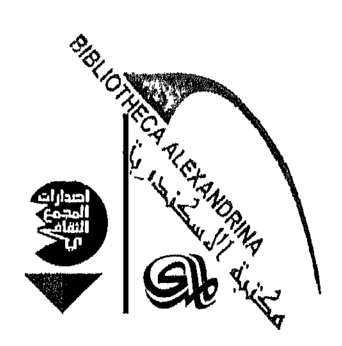
المفسرون

١٩٨٦
مكتبة نوبل

وول سوينكا

المفسرون

ترجمة: سعدي يوسف



مكتبة نوبل



اسم المـــؤلف : وول سوينكا	Author : Wole Soyinka
عنوان الكتـاب : المفسرون	Title : The Interpreters
تـوجـــمـــــة : سعدي يوسف	Translator: Saadi Yousef
الـنـاشـــــــــر : دار المدى للثقافة والنشر	Al- Mada : P. C.
المجمع الثقافي/ أبو ظبي	Cultural Foundation
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨	First Edition 1998
الحقوق محفوظة	Copyright ©

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١

فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة – أبو ظبي

ص.ب : ٢٣٨٠

تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,

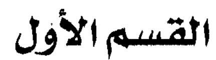
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation

U.A.E. Abu Dhabi

P.O.Box: 2380

Tel. 215300


القسم الأول

«المعدن على الاسمنت يصكّ فصوص سكري» ، كان هذا هو ساجو ، مدمدماً ، متبرماً ، وهو يحشر اصابعه في أذنيه إزاء الصرير الجنوني للطاولات الحديد . ثم كادت رقبته تنقصف حين وثبت دهينوا ، وتدلى رأسه في الفراغ حيث كان حضنُها . ذراعا بانديلي لاتكفّان عن الاندهاش . إنهما في خطفةٍ سريعة تطوّقان الطاولة والكراسي ، وتدفعانها عميقاً في الحائط الرئيس .

وبينما الراقصون يراوغون ، شرعت تتقافز عليهم ألسنة حرباوية طويلة من وابلٍ مباغتٍ وريح ، ألسنة حاقدة . بعد لحظة ، كانت الفرقة الموسيقية وحدها .

استمرَّ القَطرُ حيناً قبل أن يتبين أجبو معناه . صعّد نظره ، مشمئزاً ، الى السقف الذي ينزّ ، ثم قذف بيرتَهُ إلى المطر متمتماً «أنا لاأرجو رحمته . ليقُلْ أحدهم للة ألا يبكي في بيرتي» . ظلَّ ساجو يفرك رقبته «أنت جلاّدةٌ بالولادة . إن وثبةً كتلك الوثبة يمكن ان تقصف رقبة غوريللا» .

«يجب أن أفكر بشعري» .

«شَعرُها! رقبتي مقابل شعرها . لمَ لاتستعملين شعراً مستعاراً مثل النسوة الأنيقات ؟» .

«لا أود الشعر المستعار»

«لو استمررت هكذا ، تدورين بشعرك الحقيقي ، فسوف يظنونك صلعاء» .

سياجُ قصب ، بارتفاع الفخذ ، يقدم مايدعى (خصوصية حفلٍ) جرَّبْ مقصورات نادي كامبانا الخ الخ ـ وخلفه كان اجبو يراقب البركة المتعاظمة التي تنحل فيها بيرته الملوثة ، رغوةً . اضغاثُ بياضٍ تتشبث بالقصب متصاعدة مع الماء ، بينما البقية تنحلّ سريعاً ، تحت القطر المباشر من السقف .

« لقد اخترت . وليس لي أن أشكو » .

نظر إليه بانديلي .

« كنت فقط أحكي مع نفسي ، ومع هذه البُريكة الثرثارة » .

مجذافان يشقان ماء الخليج الساكن ، والقارب يسحب وراءه مسرباً صامتاً ، بين مزقٍ متشابكة من شجر المنغروف . الهواء راكد . وبلغا موضعاً بان فيه مدفع صدىء قديم ، فوق الماء . صورة ناصلة للماضي مع هياكل قوارب متفسخة على امتداد الشاطىء ، لكن الصلة كانت زائفة . أبطأ المجذُفان ، وثَّبتا القارب الى المدفع .

غمس أجبو يده في الماء ، وحدقّ مليّاً في السكون الفاسد ، في الأعماق المعتمة ، حتى القاع الطيني . وبدا مستكنًا ، منطوياً على نفسه .

« ربما حزرت . والداي غرقا في هذا الموضع » .

شرع الزورق يبتعد .

« حكماؤك الصينيون سيقولون أن هذه كذبة ، بالطبع . كيف لي القول أن والديَ غرقا هنا ، في هذا الموضع ، بينما الماء اليوم ، هو غير الماء الذي كان هنا قبل سنة ، أو حتى أمس ، أو قبل لحظة حين تكلمتُ . جدي ، على أي حال ، ليس فيلسوفاً . لقد أبقى القارب عائماً ثابتاً هنا ، ليعيّن الموضع ، وهكذا ، مات والداي في ذلك الموضع » . مالا برأسيهما عنه ، لايعرفان ماذا

يقولان . من المدفع المتقهقر برز سرطان فضولي ، وبدا أنه يمد مخالبه في الشمس ، ثم انزلق على الطرف ، محدثاً ثقباً ناعماً في الماء .

سمندلات بلون الماء تصطف على هياكل القوارب ، نزيلة ماكانت يوماً قوارب حربية فخورة . اقواس المنغروف كأنها تمتد بلا نهاية . قطع كولا الصمت قائلاً : «المنغروف يشعرني بالكآبة» . قال أجبو : «أنا أيضاً . أظن أني لن أنجو ، أبداً ، من الماء ، لكني لاأحب اشياء الموت . أتذكر حين كنت في اوشوجبو انني أحببت غيضة أوشون ، وانني كنت سأستلقي ثمت ساعات ، أنصت ، عند حافة الماء . إنها تشبه هذا الخليج ، مطمئنة مريحة . كنت استلقي هناك ، مقتنعاً بأن والديّ سيقومان من الماء ويكلمانني . كنت مقتنعاً بأنهما قد تحولا إنسان ماءٍ وزوجته . لم اشكّ في ذلك ، لهذا توقعت أن يظهرا حين تلائم الظروف . في أوشون ، الدكنة ذاتها ، لذا كنت أمضي الى هناك ، ليلة إثر ليلة ، أضع اذني على الماء ، على خط الماء عند الضفة» . وضحك . «لكن جزاء آلامي لم يكن سوى الضرب . ظنّ أوصيائي أنني غدوت من اتباع اوشون . أسألكم ، ماذا تراني نافعاً أوشون ؟» . ظلت يده تنسرح مع الماء الجاري ، تقتلع الخس ، وتجدل خيوط الجذور .

«كانت تلك فترة ، بالطبع ، لكني أحن ، حقاً ، إلى العتمة . أحب الحياة ساكنة غامضة . كنت في العطل ، آخذ كتبي الى هناك لأقرأ . لكني ، فيما بعد ، أخذت أمضي أبعد ، لأبلغ الجسر المعلق القديم ، حيث الماء يجري حراً فوق الصخور والرمل الأبيض . ثمت نور شمس .كان عمق أيضاً في ذلك المضطرب... في الأقل ، هويت في العتمة من سماء طليقة . إنه مختلف عن الغيضة حيث أتوحّل في العمق . عند الجسر كان العمق مراوغاً ، عليك أن تخترقه ، مخترماً بسهم ، وكأنه طير» .

دهمه احساسٌ مفاجىء بالاحباط والضيق ، وانه ليود الآن ، أكثر من أي وقت ، أن يطلع ، واضحاً ، غيرملتبس .

«أحاول أن أشرح لماذا لم تغلّني الذكريات . لم أحدج الى ذلك المكان

منذ موت والديّ . بين حين وآخر كانت عمتي تأتي الى هنا ، فقط لتخبر الشيخ انني مازلت حيّاً . آخر مرة كانت وأنا في الرابعة عشرة ، وأتمنى ان تظل المرة الأخيرة » . كان بانديلي متجهماً ، وقد لاحظ أجبو ذلك . « لم عبوسُك ؟ » .هزّ بانديلي رأسه .

« ألاتتفق معي ، ياسيكوني ؟ ماذا ترى ؟ لو لم يكن الموتى أقوياء بما يكفي ليكونوا دائمي الحضور في وجودنا ، افلا ينبغي ألا يكونوا ، كما هم ، موتى ؟ » .

« تـ... تـ... تمييزات كهذه تفسد قبـ... بـ... بة الد... د... د... وام ، التي هـ... هـ... هي الحياة » .

أضاف أجبو : « أعلينا أن نظل ننادي الموتى ؟ لم يخاف الموتى ، من جانبهم ، مناداة النور ؟ » « لـ... لـ... لـ... ذا يجب أن نـ... نـ... نتقبل القبـ... بـ... بة الكونية . لأنـ... نـ... نه لايوجد اتجاه . الجسر هـ... هـ... هو قبـ... بـ.....بة الدين ، والجـ... سـ... سـ... ور لاتتجه فقط من هـ... هـ... هـ... نا إلى هـ... هـ... هناك . الجسر يواجه الوراء أيضاً »

قال أجبو : « ينبغي أن يكون المزيد من الحجاج أمثالك ، أيها الشيخ .إنك منتهك صامت ، لكن اصرارك ذو قصد » .

زحف عليه النعاس ،وانتشر هوناً .وتردد من كل صوت صدى بعيد ، مثل ولولة المؤذن في الغسق . وفجاءة بلدة الخليج التي ما تزال بعيدة في وهج ظهيرة ثقيلة تقتحم عليهم السلام المحيط بدون إنذار... هذه الفجاءة حرمتهم ، مدة أطول ، من أية رغبة في الكلام . وكما لو أن أي فعل مباغت سوف يفسد التوازن الدقيق ، سحب كولا ، ببطء ، أقلامه الملونة ، ووضع يده على أقرب المجذفين . ابطأ القارب وتوقف .

غمغم أجبو :« إنها ، كما أتذكرها . فاصل عن الواقع »

طيور طُوّل داكنة كالطين ، وفوقها بيض ورمادية على جدران ناعمة . وفوق هذه مئات الأعشاش المسقوفة بالقش . قوارب يابسة في تقابل زاه

تحت مهاد الالواح ، ذكرى أيام كانت فيها الأسماك تغتذي أجساد المتخاصمين على حقوق اصطيادها . إنها الآن تنتظر السباق السنوي ، وحرب القوارب الطوال . كان أوسا ينعس في ظلال كثيفة وأبخرة شمس ، في تنويع بياض بهي ، يعكس عمى عابراً وهموداً ، حتى انطلق زورق ضحل من مسرب مائي خفي ، وبلغ صف القوارب العاطلة . قفز منه شخص برميلي ، نصف عار ، وعلى كرشه قماشة ناعمة ، كما لو أن زيت وجبته الاخيرة يتسرب ، لطيفا ، من خلالها . حتى من تلك المسافة لم يروا بدانة مترهلة . سحب المراكبي زورقه إلى اليابسة ، بسهولة ، ورفع غرارة إلى كتفه ، واختفى في الظلال .

بدأ المجذّفان يتحركان ، لكن أجبو اوقفهما ثانية .

«انتظرا» .

لقد كسر الرجل المجهول قشرة الزمن . رأى أجبو اقزاما يجلسون عند قدمي سيد حرب . ضحكة سيد الحرب القاتلة تثير الرعب في جمع متقاعس جاء يقابله . في وسط هذا المشهد أدخلته عمته ، غافلة عن كرامة أبيها ، صارخة وكأن صرختها في أذنه : «لقد اتيت بابنك» . واستطاع أجبو أن يتذكر التحول المفاجىء للرجل القويّ الشيخ . ضحكة تهديده غدت بهجة خالصة ، وقوة مباغتة غير مدركة رفعته ، طاهراً من بين الأقزام ، ووضعته على ركبتيه . وأحس أجبو ، ثانية ، بالنضارة المذهلة ليدين تتحسسانه على امتداد وجهه ورأسه ، الرأس بخاصة . أحس بأصابع تضغط تحت شعره ، وعلى الجمجمة ، كأنها تريد أن تتقرى تلافيف دماغه . تلمست الأصابع عضلاته وصدره ، وسمع صوت الاعصار ،وهو ، ثانية ، ضحكة جده الرائقة . ذلك كان لقاءهما الأخير . والآن ، شيء ما ، شيء ما ، رؤيا من سيد الحرب وهو يغادر مجلسه . ومع أن سيد الحرب كان يمشي واثقاً ، بل متخطياً القزمين اللذين يرافقانه أبداً ، إلا أن أجبو شعر بأن هذين القزمين كانا دليليه ، وبأنه كان يريح يديه على رأسيهما ليعرف الوجهة الأولية .

شرع أجبو ينخل ذكرياته ، معتنياً ، ويعيد قراءتها...

قال كولا وهو لايكاد يحول انتباهه عن دفتر تخطيطاته : «في مشهد كهذا وحين نمسك بالمكان وكل حركة فيه ، إمساك سيطرة ، فإني لأرى شيخك إلهاً بين بشر ، وشعراً ناصع البياض»

تساءل أجبو ، مستديراً نحو المجذّفين : «أظنك الآن أعمى كذلك ؟» .

تلعثم المجذّفان وهمهما ، متضايقين . وأحسن أجبو إحساساً غامضاً بقواعد محرمات ، ومعه ، وعاوده احساسٌ بالنأي . اعترض قائلاً : «لكنني ابنه . وأنت لا تتحدث مع غريب» . إلا أن المجذفين ظلا صامتين . واصرّ أجبو : «كنت طفلاً حين رأيته آخر مرة . وكان بصره يضعف . أتراه قادراً الآن على أن يبصر قليلاً ؟» . لاذ أكبر المجذّفين بمثل : «حين سئل المستشارون : لماذا ترتدون دروع جلدٍ على أفكاركم ؟ أجابوا : لأن الملك يقول إنه أعمى» .

تراءى له الآن طيف الأجيال ، ووجد أجبو أنه سيظل ينكمش ، مع أنه مسحوب باستمرار نحو الموتى . هذا الانتظارقرب نهاية الرحلة ، هذا التردد عند الهاوية ، هذا الاجفال كما اعترف... . اليس هذا كله نبشاً لماضٍ أفضل منسيّ ؟

إنني أفكر متأخراً ، من أكون لأتدخل ؟ من سوى - وهو أمر له شأن - أنه عرف واحتقر العصر الذي أراد أن يبتز بداياته .

وهناك التهديد الشخصي لجده ، لكنه لايشك في أن الشيخ يفهم المخاطر السياسية وسوف يتقبل التراجعات . ودّ أجبو لو أن الأمر وقف عند هذا الحد! لو أن الكفاح كان سياسياً ، حسب ، لا أكثر . إلا أن أجبو كان أحسن بجوهر ناضر يعيد البهاء إلى الشيخ وإلى ذلك الوجود .

عرف أن هذا كان يُدَمّرُ على أيدي محتالين ، انصاف رجال . جاؤوا منتفخين على رياح فارغة . وقال اجبو ثم أن هناك كبرياء قومي ، فأنا ، بعد هذا كله ، من الإجبو .

حسناً ، بإمكانه البقاء . «اتحاد ابناء الأوسا» أرسلوا المتحدث باسمهم

ليزعجه يومياً ، كلهم ملدوغ ببقة «الحاكم المتنور» . وتدريجاً بدأ اجبو يدهش ، ويضع سيد حرب الخلجان امام صف رمادي كئيب من وجوه وزارة الخارجية . وتنامى في داخله غضب بطيء ، وفزع ، وتراجع إزاء الهوة الماثلة . ماذا طلبوا منه ؟ كيف تجرؤوا على اقتراح التزامات ؟ وهذا الغريب الذي يستطيع ان يسمع نفسه المتقطع في التماسهم إياه ـ غريباً كان ، مفصولا بجيل ليس أقل ضعفاً ـ أباً يتحرك خندقه بين المستوطنات ناشراً كلمة لم تغير الا قليلاً ، بالرغم من تقبلها الطقسي ، أباً خلّف موته غير المبالي شكاً اكبر من هداياته طيلة حياة من التبشير . أمه كانت الاميرة اجبو التي حمل همّها الآن ، هي كانت حبل الميراث ، وقد غرقت في الموضع ذاته ، ولم يتبق منها الا المدفع الصدىء... ذهنياً استسلم لجهده في فك شلّة القرابة ، وترك وحيدا مع قواهم الطاغية .

كان المجذاف ينغمس من لحظة لأخرى ليعدل وضع القارب ضد التيار ، للحفاظ على مبعدة من الشاطىء مناسبة . انحدر رأس سيكوني على صدره ، مستسلماً لنعاس عام . لكن بقيتهم استداروا ، غير واثقين ، مشككين في تطفلهم اللاحق ودوافعهم .

«أترانا سنلقى سلفك أم لا ؟» .

أجاب اجبو : «الحق... أنا لاأدري» .

لقد صار الأمر مختلفاً الآن ، انتظار النزول الى الشاطىء ، ومصارعة إخفاقه في أن ينعزل ، الأمر مختلف عن خيبة الأمل البعيدة ، مخاوفه على كرامة جذوره . ومصير آكل نارٍ منطفىء . لقد اعترف بالمسألة أخيراً ، لقد كان هذا موضعاً للموت . واقرّ أيضاً أنه كان منجذباً إليه ، منجذباً إليه باعتباره حلماً في الانعزال ، مستافاً تهديده العتيق ، وتياره الخفي المعاكس العنيف ، عاجزاً عن إنكار حيويته السوداء .

«ماذا تعني... . أنت لاتدري ؟ لاتقل لي انك جئت بنا هذا الطريق كله لتقول إنك لاتدري» .

« هناك... شيخ عجوز وقوم ، ينتظرون علماً اسطورياً شاملاً من جيلي . لكن ، ماذا يقدم وجود كهذا ، لي ؟ » .

قال بانديلي : « قدر ماتطيق من زوجات ، مقابل واحدة »

« أجل . أعترف بأن هذه نقطة هامة » .

قال كولا « وسلطة أيضاً ؟ » .

« ذلك النوع من السلطة لن يكون سوى هواية . وثمت الكثير منها كما يذكر لي هؤلاء الذين يغرونني . أجل . ثمت سلطة . وعليك أن تختار بين أمرين : التحالف مع الآلهة الجديدة ، أو القبض عليهم من أجل فدية . إن الأوسا تتحكم بالعديد من دروب التهريب الحيوية ، ولتهذب كل هيلكوبتراتكم وزوارقكم السريعة . الحكومة لاتأخذ الا ما يقبل الشيخ التضحية به . إنه مكان صغير ، لكنه الاغنى في بلدات الخليج هذه . والمناطق المجاورة تعرف أين يدهن خبزها السري بالزبدة . لقد انضموا الى الأوسا منذ أيام الاتاوات » .

« لكنهم يتصدعون جميعاً ، اليس كذلك ؟ انهم سيتصدعون عاجلاً ام آجلاً » .

« لاأريد ان أراه يحدث » .

« من سيوقفه ؟ جدك المتعب ؟ » .

« لا ... لكننا قادرون »

« ولكن... انريد ذلك ؟ ام ترانا نحاول ؟ »

« لا . أنا مشغولٌ جداً ، بالرغم من انني لم أكتشف ماذا أفعل . وهذا ما إتساءل عنه دوماً : ماذا أفعل ؟ ألم تشعر يوما بأن حياتك كلها قد لاتكون سوى سطح خليج يحمل اعباء الحمقى... مَعْبراً فقط ، أداة انعكاس ، حسب ، او مجرد كتلة عابرة تتحكم بها خمائر ليست في متناولك .

هزّ بانديلي كتفيه : « أنا لاأعمل في الخدمة المدنية » .

« لكنك مذعن للنظام . أنت موجود فيه . انت تقدم اللباب للقصب الخاوي » .

سأله بانديلي : « ألهذا تجتذبك السطلة ؟ »
« أريد فقط أن أتحرر من سطح الخليج » .
وسأل كولا : « من الردة ؟ »
« ماتلك ؟ »
« ماذا ؟ أتقصد المرتد ؟ المرتد وجه لاأستطيع رسمه حتى رسماً رديئاً . حياد مطلق ، كماتعلم » .
احد المجذّفين تحسس حركة الماء . قال بقلق : « المد... انه يغير اتجاهه عصراً ؟ » .
« كيف يغير اتجاهه ؟ بعيدا عن الشاطىء ؟ » .
أومأ الرجل برأسه .
تساءل كولا ببراءة : « كم زوجةً لدى الشيخ ؟ »
خُدِع اجبو للوهلة الأولى ، ثم ضحك : « سبق أن اعترفت بأنه اعتبارٌ قوي . لقد فكرت بذلك ، طويلا وجديا . تخيل... ليس فقط ان تملأ بيتك نساءً ، وإنما الأمر يعتبر أيضاً لائقاً ورجولياً . لاأعرف كم زوجة عنده ، لكني أقول لك أنني لن أكون مقترا » .
« لست بحاجة إلى ذلك » .
« لقد حلمت بنفسي وببيت كهذا عشرات المرات . وبآفاق المستقبل لتقاليد البلد . ان تهدي العالم ، مثلاً » .
« أنت أول سلفيّ أصيل في هذا الجيل » .
« الامرعلى النقيض من ذلك . ان تعدد الزوجات مفهوم حديث تماماً . لا أنكرأن الممارسة قديمة ، لكن من فكرَّ آنذاك بأنه تعدد زوجات ؟ » .
« حسناً ، حسناً... انتزل الى الشاطىء ام لا ؟ » .
وكأنه لم يسمع شيئاً : « أحيانا يتملكني الشك ، فأصفّي الموضوعية الى نهاياتها السلبية . وأسأل نفسي ، اي خيار بين السمندل القبيح في الخليج ، والعلجوم الخشن في موائننا عديمة المجاري ؟

« لا فرق » .

« وهذا هو الجواب الذي اخشى أن أجده لو استسلمت الى الاغراء وطالبت بمكاني هنا . لافرق . أحيانا امضي حتى أبعد فأقول : من يكون جدي غير قاطع طريق مبجل ؟ لكن هذا لن يحل المشكل أيضاً . قاطع طريق مبجل ، ولا عبدٌ ذو صوت عال » .

أشار المراكبي الى الماء . أمست التيارات قابلة للتمييز . عروقٌ بليدة تحت بيثون ينام ملتفاً . يقول اهل الخليج أنها تلاطفك ، تلاطفك بأذرع عروس ماء شهوانية حتى تبلغ بك أعمق الكهوف... عطوفاً رؤوماً الى الابد .

قال اجبو : « ليس الآن ، لا أجبو آخر بهذه السرعة ، أيتها الاعماق المجنونة بالعرائس » . لكن ظل سؤال الاختيار قائما ، وهو لم يقم بأي اختيار ، في الاقل الاختيار المعني به مباشرة .

« حسنا ، لنمض » .

« في أية وجهة ، يارجل ؟ أنت لم تقل » .

ربما كان يأمل في أن يتحركوا هم ببساطة ، فيحملوا عنه عبء الاختيار .

لكنه ، مثل بانديلي ، عليه أن يصرَّ ولو كان ذلك بلا دافع . قال اجبو ببساطة :

« مع المد » .

ابتسم كولا ابتسامة عريضة : « مثل المرتدّين ؟ » .

ظلٌّ من الغضب على وجهه . امتعاض من إخفاقه في دفن سؤاله المجهض في النهاية ، وبخاصة الوعد الذي مايزال يتشبث به مثل خلاص . نظر حواليه ، في النادي ، باحثاً عن شيء يحرقه ليتدفأ بالطاقات التي استنهضها . لم يكن في النادي سوى لاسونوون السياسي ـ المحامي . كان يكره صحبتهم على الدوام . صفيحة قمامة أبدية لتباهيات متفرقة ، وغير شاكيةٍ بصمتٍ ، راقبه يختنق بطيئاً بربطة عنقه الجامعية التي اكتسبت إرادة ذاتية ، فضغطت على

تفاحة آدم الناتئة ، عدّلت البيرة الاتجاه ، وصار منخرا لاسونوون فوهتين توأمين لأنف رجل مطافىء .حين فتح اجبو عينيه ، دهش لرؤيته لاسونوون يمرق عابرا الأرضية نحو أحد المعارف .

الجمع الذي كان بينهم وبين المطر تدافع وهرب ، حين كنسته هبّة ارتفاع مباغت ، راشّةً طاولة ساجو بأبخرة صلبة . أمسك بانديلي بقائمة طويلة رفيعة . وطرح الطاولة على حدّها بحيث صارت درعاً . ارتجف ساجو فجأة ، وبان القلق في نبرة دهينوا .

« انت ترتعد » قالت وهي تجسُّ رأس ساجو مخافة الحمّى .

قال : « إنها الرطوبة فقط . انا لا أرتعد ، لكنني لا استطيع اعتياد الرطوبة » .

قالت « كذاب . لقد أصبت البارحة بالبرد » . ثم استدارت نحو الآخرين : « خرج ثانية ، على طريق أبابا . وهل تعرفون لم فعل ذلك ؟ لكي يصبح في ساحة السيارات » .

« ليس صحيحاً . كنت أنقب عن النفط في حُفر الطريق » .

« أمرٌ مضحك للغاية » .

« أنت تبحث عن النزيز وسط الطريق . هذا كل ما في الأمر » .

« تمتطي دراجة هوائية في مثل هذا الجو . انهم يسمّونك شيوعياً لهذا السبب . أنت تدري أنك في رأس قائمة الحبس الاحترازي » .

« انتظر حتى يقدم الحساب ، في الأقل » .

استدارت دهينوا ، وهي ماتزال في حماية غاضبة : « عاد الى البيت ، مغلق الرأس ، سيّال الانف ، في خدمتكم » . كشّر ساجو ، وغطى أذنيه بالشال ، وسكت بضع لحظات .

اخترق البوق ، الليل في نغمة متحدية اخيرة ، والساكسوفون انسلّ من الضوء ، أفعى جريحة متلاشية في هسيسٍ داعر . كولا استنفد مناديل الورق

المنتزعة من النادلين ، والآن انضمَّ اليه سيكوني باحثا عن اي فراغ منسي بين الرسوم المختلطة . أشار الى زاوية متواضعة . لكن كولا هز رأسه . «لا استطيع أن أرسم حبَّة فاصولياء هناك» شرع يلّوح بالمناديل ، آملاً في جلب انتباه احد النادلين ، اخذ سيكوني منه القلم ورسم الفراغ المرفوض ، شيئاً كالبصل .

ترك كولا الأمر . كان النادلون مزدحمين عند البار . في عيونهم جميعاً نظرة الضجر الفارغة . اثنان كانا منوّمين مسمرّين من شلالات السقف . رمق بصلة سيكوني ، واستدار الى اجبو .

«ماذا بدأت تقول ؟» .

من مكان ما ، في الهواء الأعمى ، انطلق صوت عال ، أنين عوارض منقوعة تتمزق على الحبوب ، وانتظروا ، كلهم ، سقوط الصفيح ، كان جد قريب ، وانشدّوا ناحية سقوف الفناء الخفيضة باتجاه الصوت . لكن سيكوني كان عيني القطة ، «انه هناك... هناك... ومباشرة جاء السقوط . صوت رطب مكتوم للطابوق ، ثم الانهيار ذو الصوت العالي للصفائح الصدئة .

أعلن أجبو «ضرس واحد . لقد فقد الافق ضرساً من لثته الطويلة العفنة» .

وتاتا سيكوني اسوأ مما كان : الــ... لــ... لــ... يلة ، ربــ... بــ... بما ، عــ... عــ... عــ... لينا ، أن نبــ... بــ... بــ... قى ، هنا ، لنســ... ... ... ساعد ، ســ... ســ... ســ... من... يظلون ، بــ... بــ... بــ... لا ، مأوى .

شرع ساجو يشخر بهدوء . أما اجبو فقد استثير الى حد عاصف ، طبعاً ، كانت ملامح وجهه مستنفرة بصورة غريبة . هذه الليلة لم يزد على تمتمات ضد السماء . «لم أدعُك للمشاركة في الاحتفال بكآبتي» . كولا عاد الى تخطيطاته مستخدماً راحته اليسرى سطحاً . واندسَّ بانديلي ، في زاوية . مثل سلاح سري ، ذلك الشيء المسمى رأساً شديداً . انه يعني بالنسبة له ، دائماً ، الطفل العنيد ، وشعر اجبو بالامتعاض لعجزه . هم قالوها ايضا حين

انقذوه ـ هم ، عالم البالغين ، الغرباء ، البشر الحكماء ـ لقد نطقوا بها حين انقذوه من الماء ، في كامل وعيه . قالوا ان هذا الولد ذو رأس شديد .

أما الاثنان فلا... أبوه الواعظ وابنة الملك ، اللذان عثر على جسميهما بعد ساعات فقط . مُذّاك بدأ ينتقل ، من والد الى والد . عمته التي تولت رعايته كانت روحاً هائمة ، وظل وجهها حتى الآن غير محدد لديه . معلم المدرسة ، راعيه الاول ، أبلى عصياً عديدة عليه . وعادت عمته فجأة من الداهومي ، نظرت نظرة واحدة الى آثار الضرب ، فكسرت دواة حبر على رأس المعلم .

من هناك الى اوشو جبو ، عند تاجر شريك . لكن زوجة التاجر أخذت الندوب فقط لتصالبها مع ندوب جديدة ، وذلك لسبب واحد ، هو أنه كان يرفض العناية بالدكاكين . كان اجبو يقول لها : « عمتي شريكتك في التجارة ، اذن كيف أكون مستخدم دكانك ؟ »

لكن ، كانت ثمت ماهو اسوأ . قال التاجر « حين تحيّي من يكبرونك فعليك ان تسجد » . « تعني ان أنبطح على بطني ؟ » . « على بطنك ، ياولد الشيطان » .

وكان اجبويصحح بلطف « كان أبي قسيسا محترماً ، ولم يعلمني السجود قط » .

تناول التاجر سوط الجلد وأنهال على جلد اجبو تمزيقاً وهو يصيح : « أنت طفل صغير ، ستتعلم بالطريقة الصعبة أو ممر السياط! » . بعد عدة سنوات ذهب الى مدرسة داخلية ، ولم يكن يعود الى منزل التاجرالا في العطل . لكن راعيه كان بانتظاره ، كرشه الرخو مندلق الى اسفل ، مثل طيات ضخمة من « الأمالا »الناعمة على حافة جلدية ، وضع اجبو صندوقه ، وعدّل من هيئته ، وحياه واقفاً . من تحت الكرسي اندفع السوط . لكن كان نقاش ، هذه المرة : « إن كنت أسجد لله وحده ، فلماذا اركع لك ؟ » توقف التاجر مرتعداً من الضربة . لنفترض ان الله سمع النقاش ووقف الى جانب أجبو! كان ثمت

خداع في الزمن لعقاب الله . بقي أياماً وهو يتحرك خانعاً هادئاً ، فإن تحدث كان حديثه همساً ، انه ينتظر أن ينسى الله تلك الفكرة الفجة وحتى وجوده . مر اسبوع ولم يحدث أمر ، ثم ثلاثة اسابيع... واخذ يستعيد جرأته تدريجاً . بقيت نقطة اجبو فقط . وهل باستطاعته نبذها باعتبارها كلام ولد ؟ ولم يكن البحث عن معاذير بالمهمة الصعبة . لقد اكتشفوا ، في منتصف احدى الليالي ، اجبو ، متمدداً عند حافة الماء ، في غيضة اوشون . سألوه : ماذا كنت تفعل هناك ؟ اجاب بأنه كان يصلي . وهكذا ضربوه بسبب ميوله الوثنية .

وصرخت امرأة : «الاولاد المهذبون يصلّون في الكنيسة ، وليس في غيضة شريرة لوثنيين» .

انتظروا انقطاع المطر ليطلقهم ، وهم ينعسون ويفيقون في نوبات .

تحرك ساجو ، جذب رأس دهينوا اليه وهمس : «الآن ، قولي بصراحة ، ألنا تافه كالآخرين ؟» ، لكن همسه كان عاليا بحيث سمعه بانديلي . طمأنه «تافه» واضاف اجبو «مثل سياسي في مؤتمر صحافي» .قالت دهينوا : «هذان الاثنان مايزالان في العنفوان» ، تعني كولا الذي كانت راحته الآن فوضى من خطوط الحبر ، وسيكوني الذي كان يصارع الحصا لأمر غير معروف . في الواقع كان الحصا اسطورته الشخصية ، زيغه الفكه الوحيد في حياة من الاخلاص المؤلم... اثـ... ثـ... ثـ... ناء ط... ط... ط... فولتي كـ... كـ... كـ... نت مولعا بابتلاع الحصا . الآن حين يـ... يـ... يـ... تتابني الفواق يندفع الحصا في حلقي ، فلا اسـ... سـ... تطيع الكلام . كان فواق سيكوني يشتد حين يستثار ، وكان هياجه وهو يكرر هذه القضية التاريخية لا يوازيه الا هياج مستمعيه . ذلك لان سيكوني حين يرويها يغدو بالغ التفكه . كانت القصة مذهلة ، والجهد الذي يبذله في روايتها يجعل منه طفلا مرغما على الاطعام ، متمرد الرأس على الادخال . وفي مايخصه : ادخال الافكار . الغريبة . غير

المفهومة . العادية . الملهمة ، حتى الاشياء التي قالها هو بنفسه أو فعلها أو اعتبرها مسلّماً بها يومياً ـ حين تبلغه الجدة تقف يكمان تعرض الى هجوم .

ضيّق ساجو عينيه ، دقائق ، ثم فتحهما واسعتين ثانيةً ، وشرع يميل الى امام ووراء ، في حركة أفعى عند الانقضاض المفاجىء ، غير مبالٍ بقول دهينوا الكئيب : « بحق السماء ، لاتتحرك! » شيء ما قوّى رقبته ، فاندفع اخيراً مواجهاً اجبو ، وثبت على مبعدة قدم فقط عنه . راقبه اجبو متسامحاً ، ثم شجعه بضحكته السكرى البلهاء .

« أوجدت ماتريد ؟ »

هز ساجو رأسه وتأوه ، « أية مضيعة! »

دهينوا وحدها تصر على البحث عن معنى في ساجو السكران . سألت : « ماذا ؟ ما المضيعة ؟ » . فهموا ، بصعوبة ، شكاة ساجو : « أترون وجه اجبو بالأزرق الغامض ؟ ان في هذا النادي جوّاً » .

ضوء من المصباح الأزرق لحوض الاسماك اندلق على وجه اجبو .

كانت بقع مرتعشة على وجه لاسونوون ، ايضا ، وكانت تبدو مثل اشعة تطرية اللحم . كانت عضلاته رخوة عند الفم والخدين وقاومت كل جهود كولا في تعديلها . ظلت دهينوا تصر : « ولكن... أية مضيعة ؟ » .

« الجو ، يابنت ، الجو . كان ينبغي ان نكون عاشقين ، اثنين اثنين . حتى الفُساق المحتالون ومخدوعاتهم أفضل . ماعندنا هنا ؟ خمسة سكيرين ؟ » .

ضاع رد هينوا في منتصف الطريق ، حين لفّها ساجو بشالها كالمومياء . من ظل عمود ، برز بانديلي ، بعد اغفاءة هر ، كشف عن عينيه ، وتفحص المشهد .

« لم يتوقف إذن ؟ » .

« المطر ، لا »

قوقاً سيكوني فجأةً ، حصاته المعتادة المختصرة المنكمشة . توقف كولا

ونظر الى اعلى ، لكنه لم يلح في طلب تفسير . لايبدو ان شيئا مضحكاً يحدث ، فعاد الى عمله . لاشك انه حادث منسيّ ما . ان سيكوني لايضحك في لحظة الحادث الفعلية . وغالباً مايكون رد فعله مصحوبا بذعر ، او قلق ، وعندما يكون الآخرون غرباء عليه ، فإنهم يتساءلون ان كانوا اذنبوا ازاءه في تصرف ناب . ومهما يكن الأمر فإن سيكوني ، لسبب او لآخر ، سيتذكر المشهد ، ويضحك ، ضحكته المكتومة القصيرة .

شرعت السمكة في لعبة برمائية صغيرة ، متقلبةً بعنف ، ومندفعةً فجأة خلف صخرة لتنظر الى مطارد غير مرئي . راقبها لاسونوون ، فجاشت عاطفته حد البكاء . هزَّ اصبعه ، محذّرا ، ازاء حوض الأسماك ، وقال : « نحن البشر هكذا ، نحيا في فخ دائم ، وقد اطبقت علينا مسالك كتبت فيها كلمة الهروب بوضوح » . السمكة الهائجة ، توقفت في منتصف حركة ، وهاجمت بالفم . صارع سيكوني الحصا ، بشجاعة ، الا انه خسر ، وهزَّ رأسه في استهجان مثير للشفقة ، اجبو ، جذب لاسونوون ، ببساطة ، من ربطة عنقه ، وتقدم برأسه قائلاً « عاقبك الله » .

نهض ساجو اخيراً وبحث عن النادل : « أريد براندي لأدفع البرداء عني » . « لامزيد لامزيد أنت من الآن سكران » .

« باعتبارك المرأة الوحيدة في المجموعة ، يجب ان تطمسي حالك ، فلا يسمع بك احد ، ابداً ، ابداً ، في صحبة الرجال » .

« أنت ترى انك سكران » .

« لست سكران . انني مكتئب . مكتئب . وهذه الفرقة الموسيقية البائسة هي السبب . لقد اشعروني بالاكتئاب لحظة بدأوا يعزفون . ثم ان هذا الانتقال من « الهاي لايف » الى صنوج المطر مضى أبعد من اللازم . ان ايقاع المطر معقد جداً ، وانا اشد بطئاً من ادراكه . انت ايضاً ، يامليحة » .

« أنت تثرثر » .

« قلت لك يجب ألا تتكلمي أبداً . أنا أرفض أن أهبط مثل هؤلاء .

انظري اليهم فقط . ولو لم يكن الشيخ جد مشغول بحصاه لتكلم أيضاً » .

«انت الآن مستيقظ ، هات كتفك هنا » . مالت عليه دهينوا ، وسرعان ماغلبها النعاس . نظر ساجوحوله مذعوراً ، متسائلاً إن كان تُرك وحيداً ليدبر سيكوني .

وحيداً مع حدّة الشيخ!

حاول أن يركل اجبو تحت الطاولة ، لكن ساقية قصّرتا . وحاول أن يبص بحذر من تحت جفني بانديلي ،فأبصر عيني بانديلي ترقبانه برقتهما المعهودة « لاتقلق .أنا لست نائماً »

مال ساجو على الطاولة ، وخفض صوته « لقد أشعرني بالكآبة . يكفي ما لدّي من حزن » .

« ماذا بك »

ابتسم ساجو « لن تصدق . لكنه رئيسنا الميت .سيردرينولا . لم أفكر اني سأذرف عليه دمعة » .

« القاضي السابق ؟ » .

« نعم . المحامون لقّبوه« المشرحة » . كان جيداً إلى أن سمح للسياسيين بشرائه . امر مضحك ، لكني كنت أحتقره أيام حياته! » .

« كنت أظنك تريد الهروب من أفكار مزعجة » .

« هذا صحيح . لقد ازعجني الشيخ » . وخفض صوته :« إخلاصه ذاك... . بحيث لايعرف المرء ماذا يفعل... . مثل مُقعد يخرج من سيارة وأنت لاتعرف كيف تساعده... . تضع يديك تحت مرفقيه أو تتركه وحده وتكتفي بفتح الباب ؟أو تأتي بعكازتيه وتقدمهما له . أنت تعرف ماذا أعني . لماذا يجب أن يكون ذا رأس خنزير هكذا ؟ لا أستطيع اعتياد ذلك... » .

« ليس هذا لازماً . كن فقط غير مبال » .

« أمرٌ يسهل قوله . قد يكون حسناً بالنسبة لك ، لكن ليس لي . أحياناً حين أقاطعه ، واحسّ أنه يناضل في سابقه ، أشعر انني خنقته إلى حد ما ،

أنت تعرف ما أعني ، خنقته ، لكني لم أجهز عليه تماماً . كيف يدبر كولا ... »

« كولا يحفظه من نيل الكدمات » .

باستطاعة كولا أن يسمعه ، طبعاً . للمرة الأولى فكّر بنفسه وهو في ذلك الدور ، وقرر أن الأمر ليس صحيحاً تماماً . أضاف ساجو : « لكن ، قل لي ، ما الذي بينه وبين القبّة ؟ » .

اختلس بانديلي النظر حوله . لم يكن سيكوني لينصت . لكنه لم يزد على القول : « فيما بعد ، كولا سيشرح المسألة أفضل » .

قليلون اولئك الذين حققوا اللامبالاة الصحيحة إزاء سيكوني . ان التخلص من عبء أوهامه يحتاج إلى وقت طويل .

اعتلت فرقة جديدة ، المنصة ، لكنها لم تأت لتبارز المطر .

ان فرقة « الأبالا » الصغيرة أخذت ، بالتدريج ، صفة ثلاثي وتري ، رباعي ، أو كمنجاتي منفرد بمطاعم اوروبا ، موسيقيي حافظة النقود الموعودة .

كانت هذه مجموعة جوالة ، سيئة التغذية ، تعتمد في معيشتها على الصدقات . مظانُّهم ، بطبيعة الحال ، كانت الشوارع ، والأسواق ، وحتى المكاتب الخاصة حيث باستطاعتهم ان يمارسوا نوعاً لطيفاً من الابتزاز . انهم يتشممون المناسبات ، ويعرفون يوم تسمية الطفل قبل ان يولد . صاروا أشجع ، وعرفوا الحاجات المدينية ، وعلّموا محدثي النعمة الأناقة ، وامسوا لازمين لحفلات الكوكتيل مثل الزيتونة للعود . ألحانهم أولاً ، ثم آلاتهم ـ الطبل الناطق بخاصة ـ غزت النوادي الليلية . اعادوا تشكيلهم فيما بعد ، محتفظين بقوتهم ثانية ، مستغلين التوقفات التي أملتها الظروف . كما فعلت هذه المجموعة الآن . القيثار الآلي فقط ، وثلاثة طبول تبدو كأنها نموطبيعي للآباط ، وأصوات مدوزنة على التداخل النغمي المكتوم لأوتار ضبط الطبول .

انهم يقدرون المزاج ، شأنهم شأن المحترفين ، متحدثين مع بعضهم ، وليس مع الحضور ، الذين لن يعرفوا هذه اللغة ، لو أرادوا . لكن النمط تغيّر . وغدا الكتمان طرازاً عتيقاً . وبعد البهرجة الاستعراضية المحتالة لفرقة «الهاي لايف» جاءت قضية الشعور ، والتلميح الى معان كانوا يخجلون منها قبل فترة .

ليس كل من شاء باستطاعته الرقص . اقتحم المدير المكان فجأة . ملوّحاً بيديه صائحاً «من سمح لهؤلاء بالدخول ؟» لكن المقصود من تصرفه هذا ، كان معرفة رد الفعل لدى زبائنه الأغنى . أشاروا عليه بأن يخرس ، فعاد إلى مكانه خلف البار وهو يضحك ضحكة خافتة . القناعة ان تكسب شيئاً مقابل لا شيء .

قال اجبو : «سعاة الغسيل» . كان في أتم استيقاظه ، وقد شرع يهتاج .

نظر كولا اليه : «ماذا قلت ؟» . لكأن الحياة دبت في النادلين من جديد ، فأمّنَ كولا مزيداً من مناديل الورق .

سياجو كان يئن : «يجب أن أنبطح على بطني . أعرف أنكم لن تصدقوا... لكن جرس هذا الطبل يصيبني بالاسهال» .

قالت دهينوا مرهقة : «آه يا ساجو...» .

«لكنه صحيح . شيء متعلق بالذبذبة . أقول لك إنني لاأكذب . الموسيقى جيدة ، فقط معدتي غيرقادرة على قبولها» .

«لقد زدتها . لست أدري كيف كُتبت لك الحياة أيام الطفولة» .

«أخرسا ، انتما كلاكما ،» رد اجبو بحدّة .

كان الرجال يهيمون في ماض بعيد ، ملتقطين أوهن الذكريات ،وهم يغنون مع اغتسال المطر ، انهم الآن ليسوا في هواءمحاصر ، وإنما في كلالٍ رمادي ، وواحداً واحداً شرع مستمعوهم يتحركون ، قلقين ومستسلمين . وفجأة اضاع اجبو والآخرون هذا الجو ، إذ بدأ سيكوني يصارع حصاه . كان أساه واضحا بالرغم من اخفاقه في ان ينبس بكلمة . كان اجبو يحملق فيه

منتظراً انفجاره . «نهلستي!» انطلقت الكلمة اخيرا بعد طول احتباس ، مثل هواء من صمام اطار . «الخوف من الطيبة . الــ... خــ... خــ... خــ... خوف من الــ... جــ... جــ... جــ... جمال يعد جــ... جــ... جــ... جبناً عند الرجل الذ... ذ... ذ... ذكي» .

«ألانستطيع الانصات الى هؤلاء الجوّالين قبل ان تنقّ ؟» .

تناول اجبو التخطيط الجارح من كولا وتفحصه . لم يزد كولا على القول «كنت ضجراً منها» ، كأن قوله كافٍ لتفسير السبب في وضعه انتفاخاً درقياً على رقبة المرأة ، وحشره قدميها في جزمة ولنجتون شبيهة بالقارب أو منقارالبطة .

آنذاك فقط رأى اجبو الأصل نفسه في ساحة الرقص . كانت وحيدة . لم يرها أحد ، ربما باستثناء كولا وسيكوني ، وهي تمتلك الساحة الفارغة . لم يكن أحد يرافقها في الرقص ، فهي مكتفية بنفسها تماما . كانت هائلة . كانت مسيطرة . ملأت الساحة بجسدها ، متخلصة مما يحيط بها في جو طبيعي من الرشاقة الخارقة . كانت تتحرك ببطء وحدّة ، ملتفّة بأغنية المطر وإيقاعه . لقد غيّرت من حال الفرقة ثانية ، فبدأت تعزف لها لتلفعها بالأغنية والمزاج .

راقبوها تضيع نفسها ببطء . رأسها مرميّ إلى وراء لتتحد اتحادها الخاص مع سعف النخيل وعوارض الموز أو أية أوراق تأتي بالطراوة الاستوائية إلى وسط ساحة الرقص المصطنعة .

قارع الطبل الاول اتجه نحوها ، ساحباً بشرتها على منحنى الطبل . شآبيب مطر ، خضراء ، وبرتقالية ، تسوّرها ، متساقطة من أطراف «المظلة» المفتوحة ، وانعكاساتها مشوهة على الجوانب الأربعة لأرومة المرآة .

الريح تهب خفيفة ، بين حين وآخر ، وهي تسوق بعضاً من المطر عليها . إنها مستمرة في الرقص ، لكن قارع الطبل تراجع ، وهو يمسد جلد

الطبل بسرعة ، كي يعيده الى حاله ، بالرغم من أن صوته لم يفارقها .

ذراع طويلة امتدت من زاوية مظلمة ، ذراع طويلة نحيلة ، توهم بأنها رقيقة ، كانت ذراع بانديلي . اختطفت التخطيط من لاسونوون وهويوشك على رميه على الأرضية الرطبة . قال اجبو« أود لو تركته يفعل ذلك» .

قال لاسونوون :« مكانه الوحل» .

« مكانك أنت أكثرمن التخطيط . وهناك كان يجب أن تكون» .

قال ساجو : « أوه ، دع المحامي يعبرعن رأي» .

رد اجبو : « لامانع لديّ اطلاقاً ، لكنه كان يمضي أبعد من اللازم . كان يريد ان يعبر عن شعور» .

ضحك بانديلي : « دع لاسونوون وشأنه» .

اضاف ساجو : « دعه وشأنه ، فالرجل لايملك من أمره شيئاً » . ناول بانديلي التخطيط لساجو الذي قال : « لافرق . الشيخ على حق . إنك عيّاب لعين والآن دعنا ننصت الى هذه المجموعة» .

« ولكن... ماالغلط ؟ » .

« لننس الغدة الدرقية وبيوت القوارب على الأقدام ، هذه الأشياء التي ليست لها علاقة» .

« لماذا ليست لها علاقة ؟ انظر إلى ساحة الرقص . كيف تراها ترقص في تلك البركة ؟ » .

رمى اجبو التخطيط باحتقار « يجب أن يفعلوا شيئاً لرأسك» .الأغنية ، الصيحة ، اسطورة الماضي ، ذكّرته بالتزاماته ، فتوتر .

ثم استدار إلى الراقصة ، مائلاً على الجدار ، ناسياً نفسه فوراً ، في استغراقها الذاتي . لكن تخطيط كولا الأول يتدخل ، التصقت شفافية بحدقته ، وانه ليلعنه صامتا ،وينحي الاحتدام . «انشغال أكثر مما ينبغي . المرأة ترقص قطعة واحدة ، لامجرد ردف بعد ردف» .

ماتزال مستغرقة مع نفسها ، قدماها في الماء ، ولفاعُها المخمل ذو

التلاوين القديمة يتدلى على هواه ، منقوعاً من زاوية . هكذا ناداها اجبو : «أووليبي» ، مغمغماً بالاسم المرة تلو المرة ، أووليبي ، أووليبي ، حتى سمعته دهينوا وصاحت : «إنه هو . كنت أحاول أن أتذكر اسم التصميم» . لكن اجبو لم يعد يسمع . كانت تريد ان تنظر خلال جفني الراقصة اللذين اطبقا ببطء حتى لم تعد ترى شيئاً من الآباط الهطآلة لوسط المظلة ، وجرى الماء خلالها ، حراً ، مقدساً ، مثل تلال خفية . وجزم اجبو ، يجب ان تحلي كاحليها بقلائد مرجان ، ونهديها بأقراط إثمد وعلامات اسنان خفيفة . دائرة كاملة من الوديان المنبسطة غرقت في الاثمد . وفي ليالٍ مثل هذه ، وعلى رنين اجراس الحديد ، ونداءات الطبول الحليقة ، تفتح حتى العجائز أفخاذهن المغضنة للسماوات .

أدارت الراقصة رأسها ، وتقوّس حاجباها قوس قزح ، وتعرّت واضحةً أمام عينه تلالها وجداولها .

«مثل نهر مترع على روابي اليام الطريّ» .

واغلق اجبو عينيه ، مغلقاً الانقسام في الجدول ، ضفافاً ندية تهفو كتفاه للارتياح عليها .

أستمر كولا يدافع عن نفسه : «ليس ماء المطر وحده عليها ، كما تعلم ، انه العرق . العرق اكثر . أنها مرهقة في العضلات ، ام تظن الأمر كله اتمتةً بهذا الحجم ؟» .

حدّق بانديلي ، ثانيةً ، في الأصل .

واستمر كولا : «ذلك الضوء خداع ، واعترف بأن الوجه ساكن...ولكن...» جأر اجبو «ساكن! ساكن! سكون عصيّ على كل فهم . سكون خارق لرأس إله بعيد! عذراء سانجو ساكنة بعد الامتلاك . الفراش ساكن بعد حب ملتظّ . من مركز الحب الواسع العميق ـ ساكن ؟» .

قال سيكوني : «اف... ف... ف... عل ماتشاء . إنها امرأة جـ... جـ... جـ... ميلة» . بدأ اجبو : «أهذا كل ماتستطيع قوله ؟ أمام عينيك تهللُ الجوهر

الأسود ، وكل ماتقوله هو...» . دفع كولا تحت انفه صورة معدّلة للمرأة .
أنعم أجبو النظر في الصورة ، متمليّاً ، وقال بوقار شديد : «أحياناً ، أيها الدهان الكافر ، أود بكل سرور أن أقتلك» .
قذف كولا بقلمه الى أعلى : «الآن ، مااعتراضك على الصورة ؟» .
«ما الغلط ؟ أين التلال السود المطبقة ، وصدوع الغيم ؟ حسناً ، أين هي ؟ ؟ بدلاً منها ، لم تفعل اكثر من مجرد رسم رقاقتين برتقاليتين» . كان الامر صحيحاً . حتى على تلك الورقة كانتا تجيشان مستقلتين عن الجسد .
«يارجل ، خذ قلماً وارسم كما ترى» .
قال اجبو وهو شديد الاكتئاب : «لاأستطيع الرسم . لا . لاأستطيع الرسم ، ولهذا تستحق أنت أن تُغرق» .
قال لاسونوون : «لاعرف فائدة البرتقالتين هنا ، لكن الصورة تحسنت في الأقل» .
قال ساجو : «مستشار الملكة يوافق» .
«لست بحاجة الى ان تكون مستعداً للاستهزاء» . كان لاسونوون في بداية استثارته : «ماالذي تعرف عن الأمر ، على أي حال ؟» .
«أعرف مايكفي لأرى ان اجبو يتحرق لمضاجعة الاصل» .
«أي كلام ؟» والتفتت عدة رؤوس ناحيتهم بسبب صيحة لاسونوون «يضاجع تلك ؟» .
سأله اجبو : «لم لا ؟» .
«كل مافي الامر أنها بدينة جداً . بل انني اكاد اسمع ردفيها يطرطقان ، مثل تلكما البرتقالتين في رسم كولا» .
«إنك جلف» . وثبت اجبو عينيه على الاستقلال الرخي للردفين . ساجو ايضا كان ينظر : «إنهما يجعلانني افكر بتابعين يتواثبان ، لطيفين ، في الفضاء ، حتى ليكاد يلمس احدهما الآخر» . حملق فيه اجبو ، ولهذا حاول ان يسترضيه .

«امـرأة بيضـاء بهذا الحجم مـرغوب فيهـا . فاتنة تمامـاً . أما المـرأة السـوداء... ايه...» .

قال لاسونوون : «هذا الكلام ليس أكثر من احد تعميماتك الفارغة» .

«ليس فـارغـاً تمـامـاً . لقـد رأيت اللونين في موطنيـهمـا ، وأنا أعـرف ماأتكلم فيه . تلك المـرأة مثـلاً . أنها ممتلئة ، لكنها ليست فائضة . أنها تستخدم كل أونصه من لحمها ، كما أنها ذات انوثة» .

«لكن ، أتستطيع ان تتصور نفسك تضاجعها ؟»

«جربني» . وجهت اليه دهينوا ضربة عنيفة .

أما اجبو فقد كانت عيناه مسمرتين طوال الوقت على الراقصة : «لأضعن رأسي بين نهديها ، واخمدن اذنيّ فيهما . آنذاك ليصرخ به حتى اللّه الجبار : اجبو ، فسأقول له : كلمني فيما بعد ، انا غير قادر على سماع كلمة واحدة تقولها» .

أحس سيكوني ، على الفور ، بالـرعب ، وأخذ يناضل : «حـقـاً... لا تـــ... تـــ... تفـعلـهـا ،المـرأة... أنهـا جـسـد الدين . ان تـــ... تـــ... تـــ... تجـعلـهـا في صراع...» .

تدخل سـاجو عـصبيـاً : «لاتكن جـديـاً ، ياشـيخ... أليس من حق المـرء التنكيت ؟» .

أخـذ سيكوني يهز رأسـه من جـانب الى جـانب ، بعنف مـتزايد ، وقـال بانديلي بهدوء : «لقد ذهبتم وجعلتم الأمر أسوأ» . انتظروا بضع ثوان اخرى ، وانفجر سيكوني أخيراً : نجاســـ... ســـ... ستة!» .

قـال اجبـو بدون ان يرفع عـينيـه عن المـرأة : «لسـت أدري لم تظنونني اتفكه» . نظر ثانية الى نهديها ، فتراءيا له مثل لحظات هائلة ، متشوقاً الى ان يختم نفسه في الوقت المناسب . غمغم : «مثلما يعزل المطرُ ، مبعداً العالم ، ومُسْلمك الى عاشق . ماذا» ، واستدار ناحية سيكوني : «اتجد غلطاً في طرد العالم بثمار قرن الله ؟» .

كان سيكوني يجاهد بجوابه ، لكن عينه وقعت على الورقة ، ورأى للمرة الأولى ، التغييرات التي اجراها كولا . جذبه اليه وقال باستماتة واستثارة كادتا تخنقانه : «لكن هــ... هــ... هذه ، لم اعرف انك غيرتها ، اكثر صدقاً...» .

حدّق فيه كولا ، فاغر الفم : «ليس ثمت من يحزرك... حقاً ، ياشيخ!» .

وقال لاسونوون في دهشة مماثلة : «أنت توافق ، إذن ، على شغلة البرتقال ؟» «بر... ر... ر... تقال ، يقطين... الشيء نفسه . كلها قباب ندى... انوثة» .

ضحك ساجو : «ليس شيئا انثوياً مافعله . أنها بذاءة كولا الصرف . سله» . «لا... لا... كـ... كـ... كولا محقّ . الحياة ، الـ... لـ... حب ، دروب للقبة الكونية ، وقباب النـ... نـ... ندى مدخل متـ... تـ... تـ... فائل ، نظرة انسانية . مافعله كولا برموز صديقنا المبدعة . تـ... تـ... تذكروا ، المرأة هي قـ... بـ... بـ... بة الحب ، هي قبة الدين...» .

سيكوني ، المهندس الماهر ، ظل ينظر عبر حاجز المركب ، يومياً ، في رحلته البحرية عائداً الى الوطن . رذاذ البحر يشيد له جسوراً ومستشفيات ، والاخدودالواسع المتجرجر غدا . شلالاً هادرا يتحدى ارادة الانسان ، حتى استطاع ان يجمعه بين اصابعه ، ويجعل الماء يجري في القنوات السفلى لراحته ، موجهاً اياه ضد العمالقة البدائيين على ضفاف الغابة .

ضم راحتيه ثانية ، محتضناً عنفوان القوة . مرة جلس على ميزاب ماء عالٍ . متسامق على اعلى الاشجار ، ووراء السحب الخفيفة ، عبر ناظريه تموجات ماموثية بلا انتهاء ، اعمدة صخر ، متحجرات قَطْر الهي من الأبدية .

إن لم يأت الجبل ، إن لم يأت الجبل ، فلنمض الى الجبال الآن ، باسم محمد! هكذا بسط راحته لقعقعة القوة من السجين الهاجم ، رماح اشعة تلكز

صخور المنليث على امتداد الصدوع ، شهقات صغيرة من نشوة عضوية ، وانفتحت الممرات . الامهات الحاكمات المهيآت تخلين عن كل قوتهن ، وتمددن في ترتيب هندسي عند قدميه . سيكوني خلطهن مثل ورق اللعب فتبدلت هيآتهن الى صيغة سحرية لاكتناس المرافىء . ومُذرِّيات ، رصفن الأرض من أولها الى آخرها . داخل الارض حفرن قناة واحدة ، كاسرات الارض على مبعدة الف ميل بصفائح حديد من بيانات الطاقات تحت السطحية... نظر سيكوني الى هذه البيانات نظرة مدققة ، وعلم عليها بعناية .

منطق نمو الطبيعة تحسَّنَ بالمعادلات الصوفية للبرج المعدني المنبثق ، وفوضى الأفاعي وخيوط الغابة الأخرى امتدت بموازاتها السكك الحديد ورفاهات الطرق والقلب الكهربائي العصبي . اندفع سيكوني في المجاز هابطاً ، وبحث عن يد الأرواح الشقيقة من اجل وقدة الكهرباء الثابتة ، لكن اليد زلقت بالشحم واشارت الى منضدته...

«أنت هنا . دعني اعرف ان كنت بحاجة الى شيء آخر . ذلك هو جرس المراسل» .

الحجرة مكيفة ايضاً . لم يكن هناك سبب كي يتشكى سيكوني .

«رسائل للتوقيع سيدي...»

«لو راجعت فقط طلبات الاجازة هذه ، ووضعت جدول خدمة...» .

«سلفة دراجة... سلفة دراجة... دعني أر الآن ، ذلك ينبغي أن يكون في ملف سي/أس ٤٢٩ . سأتأكد من ذلك في وحدة الدراجات بدائرة اس . ام . اي . كي . في الوقت نفسه عليك أن تتولى مسؤوليةالـ...» .

«أيمكنني ان اتسلّم مساهمتك ياسيدي ؟ لشاي الصباح . ام تفضل ان تتناول قهوتك بنفسك ، سيدي... ؟» .

«رجاء ، الانضمام الى لجنة الخمسة التمهيدية ، بغية النظر في الطلبات المقدمة لملء وظيفة (كاتب درجة ثالثة)...» .

«لاتنس اجتماع الهيئة... أنت احد اعضائنا السابقين...» .

بطيئاً ، اخذ الطوفان يعلو في ذلك الاجتماع ، منفجرا خارج دقائق الهيئة وجدولها ، فحملقوا جميعاً ، غير مصدّقين .

« تعرف ، ياسيد سيكوني ، أنك لست على مايرام » .

« أعـرف ياسـ... سـ... سـ... يدي الر... ر... ر... ئيس انني لا اسـ... سـ... سـ... تطيع ان استمر في التـ... تـ... تـ... وقيع على ايصالات ورسائل ومخصصات دراجات... » .

هرج . الا الرئيس المجرب ، فقد ظل هادئاً ، متوافراً على حسابات فورية .

« فقط انتظر دقيقة في الخارج ، رجاءً ، ياسيد سيكوني » .

« أهو مجنون ؟ » .

« ابن من يظن ؟ » .

« لم نوظف هؤلاء الذين يعرفون كثيراً ؟ » .

هدّأهم الرئيس :

« لا ، لا ، لا ، واضح انه بحاجة الى ان ينقل . انه احد العنيفين » .

وهكذا ذهب سيكوني الى ايجيوها « حيث بمقدورك ان تشتغل بيديك حتى يتقرح ظهرك » . وبنى سيكوني محطة تجريبية صغيرة لتوليد الطاقة . ضحك الرئيس ضحكة قصيرة وقال :

« عرفت انه كان رجلنا ، هاتوا الخبير الأجنبي » .

وجاء الخبير الأجنبي ، ساخناً من مغنمة في « التقويم... الأخير انه اجنبي يعني غير متحيز »

« كوّن من نفسك لجنة تحقيقية ذات شخص واحد ، ، ودقق في بناء محطتنا الكهربائية بإيجيوها التي تم تشييدها بدون أن تتم الموافقة على تخمينات ميزانية لذلك الغرض » .

« أكان هناك خطر في تشغيلها ، اشياء تتعلق بالسلامة ؟ » وغمز بعينيه .

كانت غمزة خبير أجنبي حقيقي .
« هذه هي أسلم فكرة . ضعها أنت في لغة تقنية » .
الخبير الاجنبي ، جاء الى ايجبوها . رأى ، واعلن أن المحطة غير صالحة للخدمة .
وقرأ الرئيس ، التقرير ، وقال : « ذاك الخبير لم يخذلني البتة » .
بينما كان لعابه يسيل على ما ألصق بالمحطة التجريبية من نعوت ، نفقات ضائعة ، ظروف شديدة الخطر ، مواد غير ملائمة ، تشغيلها غير مأمون .
الرئيس نادى متهللاً : « هات ملفّ المشطوبات » .
وهكذا شُطب المشروع ، وفي الوقت ذاته ، كان البرلمان في المدة المخصصة للأسئلة ، يضج بقضية « هرب المهندس المجنون » .
« أنوقفه عن العمل ؟ هات الاستمارة س ٧/٢ ايقاف كبار الموظفين ، والملف السري لرئيس المهندسين سيكوني المكلف بإيجيوها » .
والرئيس ـ لأن شركته الفرعية المسجلة باسم ابنة اخيه البالغة من العمر شهرين كانت المتعهد الوحيد لمشروع ايجيوها ـ افرغ عدة آلاف كتعويض فوري ، ونظّم طلبات بآلاف أخرى . « أنا أقول دائماً ان التعهدات المشطوبة تحقق فوائد أكثر من التعهدات المنفّذة » . وقال لسيكوني : « الخبير يقول إنها خردة ، أيها المهندس ، خردة » .
كررسيكوني مرتبكاً : « خـ... هـ... خـ... خردة ؟خـ... خـ... خـ... خردة ؟ خـ... خـ... خـ... خردة ؟ » .
والصحف ضجت بقضية « هرب المهندس المجنون » .
سيكوني يضيع نفسه في شوارع ايبادان ، ويتهادى بين محامل الألواح في صفوف « كولا » الفنية ، متنقلاً هنا وهناك بدون أي إحساس بالتطفل ، بدون أي تعليق ، منتظراً القرار الذي سيتخذه بحقه مجلس الادارة في اجتماعه المقبل .

إنه ليسمع في الغالب ، هدير المحركات التي بناها ، وتجميع ملايين الأجزاء التي نقب عنها ، وعثر عليها أيام كان يطوف بمختلف المحطات التي بعهدته ، مثل عربة خردة ، لامثل رئيس مهندسين مسؤول ، باحثاً بين انقاض السيارات والشاحنات والجرارات وأفنية السكك الحديد ، معتصراً ـ أجل ـ وكيل المتعهد ذاك ، المستعد لأن يأتي بالسماء إذا طلبتها الحكومة ، بتخمين نفقات أو بدون تخمين . لقد تذكره سيكوني بولهٍ .

« خـ... خـ... خـ... خردة! لقد سماها الرئس خردة ، بينما لم يجر حتى تشغيل تجريبي لها!إن بلداتٍ أكبرما تزال تشغّل ثلاجاتها على الكاز ، لكن محطة سيكوني كانت ستجعل عذارى ايجيوها يستحممن بوهج النيون .

ضحك عمدة القرية للأمر ، فتابع سيكوني إثارته ، ووضع خططاً لبناء محطة مياه . بمجرد اتمام المحطة الكهربائية . عمدة القرية الذي كان معتلياً مجثم مراقبته . ، انصت الى سيكوني ، متشككاً ، واعداً إياه بثلاث زوجات ، بينهن ابنته ، لو حقق سيكوني خططه .

كل هذا اطلق عليه الرئيس « خـ... خـ... خـ... خردة! » بينما الفرن ، حتى الفرن لم يوقد البتة!

في ايجيوها كانت الأعشاب متطاولة بين الأكواخ الطابوقية للمحطة الكهربائية . وامتد ساق من حشيش الفيل وانحنى داخل منفذ مراقبة الفرن ، ومثل أذن تدغدغ ، وللحظة واحدة فكر سيكوني بأنه سمع صريف ضحكة من الجدران . رأس وسخُ أطل من المخبأ ، ثم آخر . عرف الأطفال انهم اكتُشفوا فهربوا . هبط السكون عليه . سكون افعى عشب ملتفة الى جانب حجر نهري أملس . سكون دلاء تصدأ على امراس النقل . اتّبع الامراس حتى بلغ الجهاز القلاب الذي يرمي الفحم في انبوب ينحدر بالفحم مباشرة الى الفرن . كان

فخوراً بالجهاز . سار الى غرفة السيطرة ، كانت هناك اغلاق جديدة على الباب بجانب القفل . وعلى الحائط رش احدهم بالأبيض كلمة « خطر . ابتعد » بلغتين . تلفّت حوله باحثاً عن شيء ثقيل ، ووجد حجراً كبيراً ، فانحنى ليرفعه .

«آه... هذا أنت ، أيها المهندس!» .

استدار سيكوني ، ليكون بمواجهة عمدة القرية .

«هل افزعتك ؟ جاء عدد من الأطفال وأخبروني أن شخصاً غريباً يدور حول المكان لذا فكّرت أن آتي لأرى» .

شخص غريب! ولم يمض سوى شهرين ؟ سيكوني عرف اولئك الأطفال ، ويبدو أنهم تذكروه .

وكأن عمدة القرية احس بما كان يفكر به . فقال :«ربما كانت لحيتك السبب . لم تكن عندك لحية حين جئت هنا » .

تحركت يده ، حركة لاإرادية ، نحو حنكه ، وهو يحك اللحية بظاهر يده .

لقد نسي الامر . لا . عليه ان يكون اكثر دقة فيقول انه لم يكن قط منتبهاً اليها . وشرع يفكر فيها باعتبارها مشكلة جديدة ، وقضية تنتظر قراراً ، ودُهش لأنه لم يلحظ ، البتة ، أنها قد نبتت .

نظر اليه العمدة ببعض التفّهم ، وبدا انه يتحسس سبيله حول المهندس .

ثمت شيء لايستطيع ان يقرر بشأنه ، شيء يحثه على ان يكون حذراً .

« وحتى انك لم تعد ، لتقول لنا : وداعاً » .

«لقد عـ... عـ... عـ... دتُ» .

«نعم ، نعم . اناسٌ كُثُر مازالوا يتحدثون عنك» .

« جـ... جـ... جـ... ئت لاجرّب تشغيل المحطة» .

للوهلة الاولى لم يصدق العمدة ماسمع . نظر اليه مرتاباً ، وأشار الى المحطة . هز سيكوني رأسه ايجاباً . وثقةً .

صبّ العمدة رأيه في كلمات : «انت تريد ان تشغّلَ هذا الشي ؟» .

هز سيكوني رأسه وهو أشد تلهفاً : «هـ... هـ... هم يقولون انه لن يشتغل ، لكـ...كـ... كـ... ن ذلك كله هراء» .

كان عداء العمدة واضحاً جداً ، الآن «لم يقولوا إن المحطة لن تشتغل فقط ، بل أنها ستنفجر . أنها ستنفجر ، وتفجرّ معها القرية» .

صار سيكوني مرتبكاً ، وشرع عرق في جبهته وعضلٌ في رقبته ينبضان بشدة ، وبقوة ، مدمرة . «لا تـ... تـ... تـ... صدقهم . لا تـ... تـ... تـ... صدقهم . لو تركوني أجرّبها فقط...»

«إن أردت تجريبها ، ياصديقي ، فما عليك الا اقتلاع شيئك المضحك وأخذه معك . اذهب وجربه في الغابة ، أو في بيتك . الكهرباء شغل الحكومة . كلنا يعرف ذلك . البيض يعرفون الكهرباء ، وقد جاء احدهم هنا واخبرنا . انهم يعرفون عم يتكلمون» .

«أكاذيب . أكاذيب . سمّوها خـ... خـ... خـ... خردة . خـ... خـ... خردة! وذلك الرجل حضر هنا حتى بدون تصاميمي» .

«اسمع نصيحتي . عد من حيث أتيت قبل أن يراك أناسٌ أكثر» .

لم يكن بمقدور سيكوني التصديق «نحن بحاجة الى حطب فقط . لو قلت للصغار أن يجمعوا حطباً فسوف نستعمله بدلاً من الفـ... فـ... فـ... حم» .

«ياصديقي ، عد الى بيتك ، حسب» .

«حمل حطب واحد من كل طـ... طـ... طفل ، وسوف تراها تشتغل .

سوى ترى الضوء يتوهج من ذ... ذ... ذ... لك العمود» .

«شكراً جزيلاً . لقد استعملنا القناديل الزيتية حتى الآن . وحينما تكون الحكومة مستعدة ، تبني لنا محطة صالحة» .

«فقط تـ... تـ... تـ... تجربة واحدة ، لترى بنفسك» .

«تعال الآن ، قبل أن يتجمع الناس» .

وما أن وضع يده على ذراع سيكوني حتى انطلق هذا فجأة وأمسك

بالحجر . صرخ العمدة مستغيثاً وهرب ، بدون أن ينظر حوله ليرى سيكوني وهو يكسر الباب . وأنهار الباب بالرغم من القفل والاغلاق ومسامير الستة انشات . عندما عاد العمدة مع اعوانه ، وجدوا سيكوني يزيّت المكائن ويفحص المقاييس . التفت سيكوني ، وحين رأى العمدة سأله « هل جئت بالحطَب ؟ » .

العجيب ، انه سمح للشرطة باقتياده ، دون مقاومة . كانت هنالك لجنة تحقيق أخرى . لكن سيكوني كان يرقد آنذاك في مستشفى للأمراض العقلية .

٢

غادروا النادي قبيل الصباح . اجبو هو الذي ايقظهم ، متابعاً الراقصة الوحيدة حتى غادر المغنون ، وتهشم السحر الذي كان يلفها .

قال ساجو : «لديك موعد في الفضاء ؟» .

«في الفضاء ، بالتأكيد ، ماذا ترى ياأمين سري الصغير ؟» .

«اجبو عاقل في الأقل . لقد حان وقت عودتنا جميعاً الى بيوتنا» .

نهض بانديلي . سأله ساجو «متى تنطلق إلى ايبادان ؟» .

«بمجرد استيقاظي ، سأنطلق قبل هذين الاثنين» .

«أشك في ذلك . الشيخ يريد العودة مبكراً . لكن إن كنت جاهزاً قبلي ، فبإمكانه الركوب معك والعودة» .

«على أي حال ، إن لم أرك قبل ذهابك ، فدع صبي المنزل يتعهد الأمر» .

«أنت لن تعود... ليلة سعيدة . دهينوا... لاتتركيه يقود السيارة» .

«لاتقلق . أنا لست معتزماً الانتحار» .

«ماذا تعني...» .

دهينوا التي كانت تنوء بنصف وطأة ساجو ، ساقته عبر برك الوحل ، وادخلته السيارة الصغيرة .

قال ساجو : «أرجوك . امضي بنا الى الشاطىء . انا محتاج الى هواء ملح ليصفو رأسي» .

«الأمر ممتاز بالنسبة لك . انت صحافي . لكن لاتنس أنّ عليّ أن أكون في المكتب الساعة الثامنة من هذا الصباح » .

«بنت ذات مهنة . بنت ذات مهنة ، إياك والبنت ذات المهنة » .

مضت السيارة بهما مسافة ما ، وهما صامتان . ثم استدارت إليه دهينوا ، وكانت لهجتها خطرة جداً... لقد أحس بها ساجو بالرغم من كونه مثقلاً بالبيرة« ماالذي كنت تقصده آنذاك ، ماذا اخبرت بانديلي ؟ » . انه يعرف تماماً ، لكنه سألها :

« ماذا ؟ » .

« قلت... في حالة أنك لم تره والآخرين قبل مغادرتهم » .

« حسناً ؟ » .

« حسناً ؟ ماذا ؟ انهم سيبيتون معك ، أليسوا كذلك ؟ » .

« اعطيتهم شقتي » .

« أنت تعرف عم أتكلم » .

« ياسيدتي الشابة .أنالاأعرف عمّ تتكلمين » .

« عزيزي . لنترك الموضوع . أنت لايمكنك المبيت في شقتي... »

« لماذا تشكين بي هكذا ؟ طلبت منك فقط ان تمضي بي الى الشاطىء »

في الزاوية التالية ، استدارت بسرعة فارتطم ساجو بالباب الذي انفتح .

قال : « هذا حق . اقتليني . اقتليني لمجرد الظن » .

غطّ ساجو في نومه ، قبل أن يبلغا الشاطىء . وحين فتحت دهينوا باب السيارة سقط عاجزاً لاحول له ، وكانت تأمل في أن يخرج هو بنفسه ويتمشى . ايقظته السقطة فأخذ يغمغم « رمل . أهي تمطر الآن رملاً ؟ » .

فجأة ، تجمدت دهينوا من هذا المنعزل ، وتلفتت حولها ، وهي تسمع السرقة واللصوص في كل نأمة ريح .

« اين نحن ، يادهين ؟ » .

« الشاطىء » .

« الشاطىء! » .

« في هذه الساعة ؟ » .

« انت اردت المجيء! » .

« انا ؟ تخيلي أن صديقي السير درين سيقوم من البحر ، فإلى أين أهرب ؟ » .

« الرجل ميت . أليس بمقدورك تركه وحده ؟ » .

« أنت تقصدين ،كما أرى ، احترام الموتى ؟ »

« لنذهب ، يا عزيزي »

« ها ، ها... المرأة تخاف الأشباح » .

« تعال ، ياعزيزي » .

بالاضافة إلى السلآبين . هل فكرت بأننا قدنهاجم ؟كل أولئك السلابين ؟ حتى في أحسن الأحوال أنا لست اجبوكما تعرفين ، ولا حتى بانديلي ذا أطراف الغوريلا » .

« كان عليك أن تفكر بذلك » .

نهضت دهينوا ، ونظرت حولها نظرة شاملة « لنذهب » .

« الآن ، افزعتها... أما لماذا فلا أدري . أنت محظوظة . ماذا سيأخذون منك في نهاية الأمر غير كنزك . أما أنا فقد أفقد حياتي . أوأذناً واحدة في الأقل ، مثل ذلك السياسي الذي جاء هنا ليعبث » .

« كانت على علاقة بهم » .

« فتاة عابثة... ها ؟ لا أحد بمقدوره التهكن بما تفعله العابثات . كيف لي أن أعرف انك لست ذات علاقة بهم ؟ بعد هذا كله... هل اعطيتني يوماً ذلك الذي أريده ، أنت تعلقينني بحبل الأمل ـ لماذا ؟ » .

أخذته من كتفيه ، وحاولت جره الى أعلى . « والأكثرمن ذلك ، انك اخترتِ المجيء بي إلى هنا ، وأنا في حالة عجز عن الدفاع عن نفسي أو إثبات رجولتي . أقصد ، الساعة الخامسة صباحاً ، وحيداً على الشاطىء ، وأنت مايزال باستطاعتك العودة الى فراشك بكامل قواك... » .

أنهضته أخيراً . وأمنت مغلاق الباب ، وانطلقت بسرعة مجنونة ، فزعة حتى شاهدا أضواء الجسر الأول تقترب منهما ، سقط ساجو على مقو السيارة ، واضطرت لتخليص أصابعه من المقود .

« أتعلمين أن فرقة الأبالا كانت تفسد المعنويات ؟ » .

« ما عيب الفرقة ؟ »

« تفسد المعنويات ، هذا كل ماالأمر . بعد الثالثة والنصف صباحاً ، وه ذلك المطر الكئيب... لم يكن الوقت مناسباً لهم لايذاء معدة إنسان... »

أبعدت دهينوا يده عن المقود .

« أكان ذلك حسناً ؟ أنت فتاة عاقلة... إذن أخبريني... أكان ذلك عدلاً ؟ »

« لا ساجو ، لم يكن » .

« لذلك شربت كثيراً » .ثم غرق مباشرة في النوم . استيقظ فيما بعد عل سلسلة مطبات متلاحقة بينماكانت دهينوا تنعطف داخل شارع فرعي ، وه تضرب حفرة بعد أخرى .

« انتبهي ، انتبهي ، ماذاتفعلين ؟ » .

« لم أرصف أنا الطريق »

« أنت تصكين مسامع سكري »

« أنت ترتجف ثانية ، أدر الزجاج إلى أعلى » .

« كان عليّ أن أظل مع البيرة . كؤوس الويسكي تلك أحرقت ك زنجيتي » .

مطب آخر قرع رأسه بالسقف .

« هل أنت متأكدة من طريقك ؟ » .

« كدنا نصل . اطمئن » .

هتف ، وهو يرمي ذراعيه فجأة إلى أعلى : « إلى خيمتك أيته الآنسة... » .

أوقفت دهينوا السيارة « لقد وصلنا البيت » .

غاص ساجو في المقعد «أي بيت» .

«بيتك» .

«لن أخرج» .

«كن عاقلاً ياعزيزي . لايمكنك المبيت في شقتي» .

«بيتي مملوء . ثلاثة رجال مكتملو النمو فيه . أين تتوقعين أن ننام ؟» .

«لماذا ؟ ألم يبق أحدهم مع لاسوونون ؟» .

«مع زوجته وطفليه ؟ وبالتالي ، من تراه يرضى بأن يسرج مع زوجته المتوحشة تلك ؟واجبو كان خارج البيت . أنت رأيت تلك المرأة بنفسك . أنها تحتاج إلى فراش مزدوج ونصف» .

«لاياعزيزي ، يجب ان تنزل» .

«إن كنت قلقةً من ذلك الأمر ، فأعدك انني سأكون مهذباً . مهما يكن الأمر ، فإنني لست على مايرام» .

أخذ ساجو يرتعد ثانية . نظرت دهينوا ، قلقة ، اليه ، وتحسست حاجبيه «عزيزي ، أنت مريض!» .

«لا .لا . إنها الرطوبة فقط . انت تعرفين...» .

قادت السيارة ، بغضب ، بينما ظل هو يغمغم : «يجب أن تلاحظي فصوص سكري . لقد ظللت تصكينها» .

لم يفق حتى على طريق الحصا الصعب .وكان على دهينوا أن تهزه لتوقظه .

«المرآب بعيد قليلاً . انزل هنا ، واذهب مباشرة الى شقتي . سأوقف السيارة ثم أصعد على الفور» .

خرج ساجو ، ترنح ، واستند الى السيارة . فتحت دهينوا الباب بسرعة وجرت نحوه . «الأفضل أن أساعدك في الصعود» .

«لا .لا . أنا أستطيع المشي» .

« أأنت متأكد ؟ » .

« طبعاً . بالرغم من أن شيئا جدياً حدث لفصوص سكري . اتعرفين أين تكون فصوص السكر ؟ ألا تعرفين ؟ » .

ردت ، مسرعة ، بالايجاب ، خائفة من الشرح المعروف لديها ، والذي لا يستطيع ساجو أن يقدمه الآن . « كل إنسان يولد وهي معه ، لكن عليك أن تجدها . أنت تبدأ تعرفها حين تمسي محترفاً . آنذاك تصدر هي ارتعاشة دقيقة فتعرف انك هناك . المرة الأولى تكون مثل تثبيت العماد... لحظة دينية حقاً... » .

دفعتة بلطف نحو السلم . « لا تظلي تسندينني مثل عاجز . أقول لك أنني أستطيع المشي » .

« حسناً . أنا عائدة فوراً » . ركضت نحو السيارة وابتعدت .

اعتلى ساجو السلالم بطيئاً ، وهو يأخذ استراحات قصيرة ليدفع عنه الدوار .

فتح الباب بعد عناء ، ليواجه آثار احتلال ، بمجرد أن سقط ضوء من منبسط السلم على شخص في كرسي . توقّف عن الحراك لحظة ، ثم صفق الباب وراءه ، مسرعاً ، مغمغماً : « معذرة . أخطأت الباب » .

هبط السّلم طائراً بطاقةٍ زائفة ، وكاد يصطدم بدهينوا : « ما الأمر ؟ » .

« فتحت الباب الخطأ » .

« أنت تحاول حقاً . أكيداًكان عليك أن تعرف بابي... والآن... » .

ثم توقفت ، مندهشة : « لكنك تقول إنك فتحته » .

قال وهو يسلمهاالمفتاح : « عايني بنفسك . شكلٌ أسود في كرسي ، كما أنني ظننت أني رأيت آخرين في الخلفية . وقفت بضع ثوان ، ثم دفعني شيء ما إلى الهرب . هربت » .

« أنت في حال رديئة » . الآن بلغا منبسط السلّم . « أأنت متأكد أنه كان الباب نفسه ؟ »

« افتحيه . انهم يبدون مثل خفافيش هائلة... بل حتى مثل ساحرات » .

« أوقف ارتعادك »

« لم أستطع أن أقرر ، بالضبط ، ما كانوا ، لكن الشخص الذي رأيته بوضوح كاف ، يبدو امرأة » .

وقفت دهينوا ، والمفتاح في يدها ، مفكرةً : « امرأة ؟ أأنت متأكد أنها كانت امرأة ؟ » « في لحظة بدت مثل امرأة ، وفي اللحظة التالية مثل قارض مجنح . وبخاصة ، اولئك الذين كانوا في العتمة . كان المكان مثل كهف » .

تمتمت : « قد تكون أمي . هي وعدد من أقاربها . انا متأكدة . وياالهي .كم انا متعبة » . ما أن فتحت الباب حتى نهض شخص من العتمة . شالٌ أسود ، انسدل ، وانتصبت عصابة رأس ضخمة . تراجع ساجو ضارباً رأسه بالدرابزين . اعتم كل شيء ، لكنه بعد بضع لحظات سمع أصواتاً من جيهينا...

« هكذا ، اذن ، يادهينوا... اهذا ماتفعلونه ، ياناس ، في لاغوس ،... اهو وقت يليق بفتاة ان تكون فيه خارج بيتها ؟ » .

« آه ، ياأمي ، وعمتي ايضاً... انا آسفة جدا ، هل انتظرتما طويلاً ؟ » .

« ماشأن ذلك الرجل ؟ » .

ذلك لان ساجو كان يصرخ « لاتتركيهم يقتربون . لاتتركيهم يقتربون مني! » وبمنتهى السعادة ، وحتى قبل ان يلمسوه ، سقط مترنحاً ، وفقد الوعي تماما .

« أظنه سكران » . كانت معتادة على ذلك الحد من الامتعاض لدى امها .

« سكران ، لكنك تدخلينه البيت . تظنين أنك ستكونين آمنةً مع رجل كهذا ؟ » .

في مرات سابقة ، كانت دهينوا تستيقظ ليلاً على طرقهم بابها . كيف دبروا الدخول ؟ صبي المنزل بالطبع . هم يعرفون اين يسكن الخدم . مرةً جاءت أمها لتراها ، ووصلت ليلاً متأخرة . ثم عاد ذهن دهينوا الى الاسباب .

الى اسباب معقولة ، دمارات . طوارىء . تلك المرة شرد ذهنها الى جد ظل نزيل المستشفى زمناً . كان الامر مختلفاً . لا تلك المرة ، ولا هذه ، ولاأي مرة أخرى .

«لماذا ياأمي... ماالأمر ؟ » .

رتبت الأم نفسها ، واستفسرت عما اذا كان ثمت شاي . لكنها ، أولاً ، اغلقت باب غرفة النوم ، حيث يتمدد ساجو ، غائباً عن الوعي ، أو نائماً .

لم تأت وحدها ، البتة . ربما أحست بتغيير ، بوقت للقرار يستدعي المساندة المعنوية من عمة . ولابد أن تكون عمة فقيرة أو ابنة عم يؤتى بها الى لاغوس حين الاشارة ، امرأة تجلس وتتأوه وتردد «لمصلحتك ، استمعي ، ياابنتي ، ماتقوله امك هو لمنفعتك . لم يكن لدينا من يقول لنا هذه الأشياء لذا اعتبري نفسك محظوظة» .

أعدّ الشاي ، وطلبت العمة خبزاً مع الساردين .

«ليس لدي وقت للأكل ، كما ترين . أأتوقف لآكل بينما الأمر متعلق بأولادي ؟ لن يكون هذا . ومايصيب امك يصيبني . أنا اعتبرك واحدة من أطفالي . أوه... ربما بعض اليخنة اذن ، ان لم يكن لديك ساردين...» .

بدأت العمة ، وهي تمتص الشاي ، كأنما تمتصه من قصبة «لقد رأى (الأدورا) امك رؤيا تخصك» .

التوتر ، اكثر من الحرارة ، أطلق قطرات عرق كبيرة في وجه الأم . والعمة غرفت فلفلاً أحمر مع الخبز وبدأت تعرق متعاطفةً مع الأم . « كانت أمك شديدة القلق . استأجرت سيارة وجاءتني لأرافقها . وكما ترين ، نحن هنا . هذا ماجاء بنا» .

«ماكانت تلك الرؤيا ؟ » دهينوا أرادت أن تعرف .

«رآك تُحملين الى الفراش . وقد منحتني حفيداً » .

لم تستطع دهينوا مغالبة الابتسام « وهل رأى (الأدورا) الأب ؟ » .

التوتر الآن ، وأنهاك الكلام .

التجأت العمة الى موارية رفيقتها ومراعاتها بل التذلل لها : «استمعي فقط الى ماستقوله امك لك . أنا أعرف ماعانته من أجلكم جميعاً ياأطفال . عليكم ان تستمعوا إليها الآن ، من أجل منفعتكم» .

«حسناً . الاتخبرينني ؟ من هو الأب المفترض ؟» استجمعت الأم قواها للمعركة . هذه هي المسألة بأسرها الآن ، كل المسألة التي استدعت زيارة منتصف الليل .

«هو لم يقل . لكن الناس كانوا يخبرونني انك تصاحبين شمالياً» .

ودست العمة أنفها «وقد شقينا جميعاً لهذا الخبر» .

«هل الرجال نادرون هكذا في البلدة... ايه... اخبريني يادهينوا ، أمن الصعب عليك العثور على رجال وسيمين رصينين بحيث يجب ان تصاحبي شمالياً ؟» .

«لكن ياماما ، يجب الا تسمعي كلاماً كهذا . في المرة التالية قولي لهم ان يدبروا رؤوسهم» .

تركت العمة فمها مفتوحا في منتصف لقمة : «ماذا قالت الطفلة ؟ نقول للناس ان يدبروا رؤوسهم بينما حبهم لأمك هو الذي دفعهم الى ان يقولوا ما قالوا ؟» .

«من أصاحبه امرٌ يخصني أنا» .

«أوه ، لا . انه ليس أمراً يخصك أنت . أنت لاتذهبين مع من تشائين ان كنت ابنتي . اعتقد ان لي رأيا في الموضوع . انا لم اعمل ، ولم أشْقَ ، لأرسلك الى انجلترا ، مقترة على نفسي ومستخدمةً الوساطات من اجل ان تكوني في وظيفة جيدة في الـ Senior service ، أنا لم أفعل ذلك كله ، حتى تجيئيني بحفيد من (الهوسا)» .

«ماما...» .

«حسناً ، ماذا فعل ابوكِ ؟ هو لم يرفع اصبعاً لمساعدتك . ارسل ابناءه جميعاً الى انجلترا ، لكن حين جاء دورك ، انت تتذكرين ماقال ، اتتذكرين ؟

لكن كيف لك ان تتذكري ؟ الأفضل أن تخبريها ياسيسي بماقاله ابوها . ليس في الأمر سر . لقد كرر قوله في طول البلدة وعرضها » .

هزت العمة رأسها موافقة : « قال انه لن يرسل اية بنت الى انجلترا ، حتى تذهب ، وتحبل في ثلاثة اشهر » .

« كلماته إياها . لم يكن لديّ سوى تجارتي البائسة ، لكني وفرت منها ما يكفي لإرسالك على حسابي » .

انتصبت دهينوا ، تدريجاً . وصلوا إلى أرض أليفة ، وهي الآن بالغة الضجر .

« حسناً ياأمي حسناً . انني اوفر بأسرع ماأستطيع . سأردّ كل ما انفقتِه عليّ ، قبل ان أتزوج... » .

الدموع تنهمر الآن ، دموع لهذا العقوق ، عقوق الكَدح ، والتضحية التي لم تنل التقدير . ندم ، التماس عذر ، انتعاشُ حب ، وتراجع قليل « ليس الأمر أنني أفكر بزواج او ما اشبه » . دائماً غلطة . « ألاترين أن هذا كله في مصلحتك ؟ لم يعد فينا نفعٌ للعالم . لقد أطال اللّه في أعمارنا فقط لنرعاك » .

خفتّ النبرة الآن . الكل يبكي ، منتشياً بشقائه ، مرة قبل شهور ، وفي لحظة كهذه ، قالت دهينوا متعابثة ، « حقاً ياأماه... عليك الا تقومي بمثل هذه الزيارات الليلية . افترضي ان رجلاً كان معي » .

وتجمدت الدموع فورا . وحل إنكار بطيء محل الاطمئنان الوجيز .

« ماذا قلت ؟ » . كانت خائفة ان تفسد الاشياء ، مستعدة للتضحية في سبيل السلام . « آه... ياماما... كنت أمزح فقط » .

« سمعتك . سمعت ماقلته . ولم تكوني تمزحين . افترضي أن رجلاً كان معك ؟ايه...أتلك هي الحياة التي تريدين أن تختطّيها لنفسك ؟ ليحفظني اللّه ، أية بنت وضعتُ ؟ لو وجدت رجلاً في بيتك ، في أية ساعة منكودة ، فلسوف أجعله يعرف أن أسرتي تحمل اسم كومولولا . رجل في هذا البيت ليلاً ؟ سأمرّغه ، صارخة ، بالعار ، وأهينه امام الناس... » .

لكن في هذه الليلة لباقةً . فبالتفاهم المتبادل لم يوجد ساجو . كان مغلقاً عليه ، مثل غسيل قذر ، بعيدا عن النظر اللائق . الأم ، فقط ، لم تستطع ان تنسى تماما ، والعمة كانت تزن ـ ببطء ـ موازين المخاطر ـ ألم تنتظرها الأم لتفتح ذلك الباب ؟ كانت الكلب المهاجم . لكن وظيفتها في أوقات كهذه عديمة السند تقريباً . نفضت كسر الخبز من الصحن ، متحاشية عيني الأم . أما دهينوا ، التي كانت تصلِّب نفسها للدور الأخير ، حين تعلن النهاية ، فقد أخذت تشعر بالإنهاك البطيء من زيارات منتصف الليل ، زيارات العمات والامهات ، التي تحمل الحب ، والنوايا الشفافة ، والمخاوف المصطنعة وببساطة تامة ، قسوة القربى .

٣

كانت مونيكا فاسيي دائماً عرضة للخزي . وهكذا توقف زوجها عند مدخل حفل استقبال السفارة ، وتفحصها مليًا . عبرّ عن رضاه بإيماءة رأس ، وتأكد من استقامة فراشته . آنذاك ابتسم وقبّلها شكلياً على الجبين .

«بإمكانك الآن أن ترتدي قفازاتك أيضاً» .

«أية قفازات ؟ لم آت بأي قفاز» .

ظن فاسيي أنها تناكده ، أما مونيكا فكانت متأكدة من أن زوجها كان يناكدها .

«هيا... ارتدي قفازاتك» .

«كف عن المناكدة ، من تراه يرتدي القفازات في نايجيريا ؟» .

لم يعد فاسيي يمزح . اختطف حقيبة يدها ولم يجد قفازات بداخلها

«أتعنين انك لم تأتي بها ؟» .

«آتي بمَ ؟» .

«القفازات طبعاً . اي شيء غيرها ؟» .

«لكن ليس لديّ قفازات . لقد وهبت القفازات التي كانت لديّ بمجرد وصولي» .

«لا اتحدث عن عامين فائتين . انا اقصد القفازات التي اشتريتها لهذه الليلة» .

«لم أشتر اي قفازات . ولكن ماهذا كله ، ياآيو ؟» .

«ماهذا كله ؟ يجب ان اسألك انا ماهذا كله ؟ ألم أعطك بطاقة دعوة قبل أكثر من اسبوع ؟ » .

«بلى ، ولكن...» .

«ياعزيزتي ، أعطيتك شيكا بخمسة عشر باوناً لتشتري كل ماتحتاجين» .

«ظننتك تريدينني ان أشتري فستاناً جديداً» .

«بحق السماء ، والقفازات ؟» .

«لكنك لم تقل شيئاً عن القفازات ، ياآيو» .

«أمن الضروري قول أي شيء ؟ لقد كانت مطبوعة على البطاقة . بالأسود والابيض» . أخذ البطاقة من جيبه ، وسحبها من المظروف ، ودفعها تحت عينيها : «اقرئيها . اقرئيها . اقرئيها» .

قرأت مونيكا السطر الأخير في البطاقة : «لكنها تقول ان ذلك للذين سيتم تقديمهم . نحن لن يتم تقديمنا... أم ترانا سنُقدم ؟ » .

ضبط آيو رأسه : «نحن سيتم تقديمنا» .

«أنت لم تخبرني . كيف لي أن أعرف ؟» .

«كيف لك أن تعرفي ؟ لقد صرفت أسبوعين كي أدبر التقديم ، والآن تسألينني كيف لك أن تعرفي . أي معنى لمجيئنا إن لم نكن سنقدم ؟» .

قالت مونيكا :«أنا آسفة . لم يخطر ببالي قطّ!» .

«لم يخطرببالك شيء قطّ!» .

ظل بانديلي وكولا يحتضنان الظلال حيث كانا ذهبا لاستنشاق الهواءالنقي ، ويسترقان السمع بالرغم من أرادتهما ، لكن الوقت كان متأخراً على تغيير مكانهما .

«أتعرفهما ؟» .

«آيو فاسيي . المستشفى التعليمي» .

خف التشديد قليلاً ، بقول فاسيي : «لكن كان بإمكانك أن تبادري في

الاقل . حتى لو لم تكن هناك مسألة تقديم ، فإن أصحاب السعادة ، كما تعلمين ، سيكونون تحت » .

« أنا آسفة » .

« عزيزتي . لو كانت الملكة تحضر حفل حديقة ، فهل ستذهبين إلى هناك بدون قفازات ؟ »

« قد قلت يا آيو إنني آسفة . آسفة حقاً . قد يكون الافضل أن أعود إلى البيت » .

« لكن أتذهبين ؟أجيبي عن سؤالي . أتحضرين الحفلة ذاتها مع الملكة بدون قفازات »

« الحق ، أنني لا أدري ياآيو . أنا لم أتحرك البتة في أوساط كهذه » .

عزيزتي ، أنا مندهش منك . هناك مستلزمات اجتماعية بسيطة يتعين على أي امرىء ذكي أن يعرفها » .

نظر إلى ساعته ، مفكراً بسرعة ، وهو يعض على شفته مغتاظاً . ثم توصل إلى حل .

« طبعا ، ماما سوف تساعد ، من المؤكد أن لديها قفازات » .

قالت الفتاة بصوت ناعم « لا ، ياآيو . أيسر لي أن أعود إلى البيت » .

« ما الفائدة من تقديمي بدون زوجتي ؟لنعدمن أجل القفازات » .

« سيكون حفل الاستقبال منتهياً حين عودتنا » هذه الفكرة أوقفت فاسيي تماماً » .

« حسناً ، تعالي . لكن عليك أن تظلي في الخلف حين ينادوننا » .

« طبعاً أنا آسفة حقاً لما حدث ، ياآيو » .

دخلا ، فتحرر بانديلي وكولا من محبسهما .

« مشهد عائلي » .

تأوه بانديلي .« سأخَبرُ بكل شيء عنه غداً » .

« من يخبرك ؟ » .

« فاسيبي . أنا أعرفه جيداً » .

« أوه... . أهو امرٌ منتظم ؟ » .

« مرةً ،كل مناسبة اجتماعية ، في الأقل ، حتى التي تقام عندهم في البيت » .

« سوف تمطر » ومسح كولا قطرةعلى ذراعه .

« وهل توقف المطر يوماً » .

« ماذا جرى ، بالمناسبة ؟ كان الفصل أكثر دقة . أربعة شهور على الاكثر . وربما خمسة » .

« قناب... ب... ب... ب... ل » .

قالها بانديلي بصوته الجهير العميق .

« الأسبوع الماضي ، شعرت بالجوع لوهج الالوان ، فاستيقظت مبكراً لأشهد الفجر . وهطل المطر . ياإلهي .هطل... . مثل حساءمندلق » .

« تعال ، لندخل اتقاء المطر » .

ساجو ، المعقود عقداً مع السفير ، المفعم فضيلة أثناء الواجب ، كان حشرنفسه في سترة عشاء استعارها ، ولم يكن في مظهره شيء من الصحافي . كان بينه وبين « التصريح الخاص » سنوات من دربة الحذر ، هذا الحذر الذي لا يمكن إخماده .

« آنذاك كنا جميعاً مشبعين بالدعاوة (أطباء ستالين يكتشفون سر الحياة) بلازما خاصة مستخلصة من الأطفال الأحياء ، كل حقنة منها تجعل ستالين أصغر عشر سنين . قالوا إن ستالين لن يموت » .

تكلم السفير ببطء « قد اتفق - بمعنى ما - مع ذلك . إن ستالين ، مثل الدكتاتوريين الآخرين اشترى طول العمر بحيوات بشرية . كذلك فعل هتلر لكن من طبيعة الدكتاتوريين أن يكونوا نهّابين للبشر »

« موافق ، ياسيدي ، لكن... . أما زلت تعتقد بأن نظاماً دكتاتورياً هو الحكومة الاكثر معقولية لأمة ما » .

« هذا يعتمد على الأمة ،كما قلت سأبقاً » .

« لو أني اتخذت امتك مثالاً ، فهل توافق ، سيدي ، على أن... » .

« آه ، اسمح لي لحظة ، ياسيد ساجو . يجب أن أرحب بالضيوف الجدد ... » .

اصطدم ساجو بكولا وبانديلي ، خارج الباب بالضبط ، اثناء اندفاعته .

« ما الذي يتآكله ؟ » .

« لم يستطع الحصول على موضوعه... هيه... ساجو... انتظر » .

رد عليهم صائحاً : « أراكما في البيت حين أعود » .

« واضح أنه محبطٌ تماماً .لم ينتظر حتى ليسكر » .

اقترب السفير من فاسيي وزوجته مصحوباً بنادل يحمل صينية ملأى بالشمبانيا . هزّت مونيكا رأسهامعتذرة ، وللتو بدا فاسيي متضايقاً . عبّر السفير بلباقة عن عدم تصديقه .

« لكن ، ألاتشربين إطلاقاً ، يا سيدة فاسيي ؟ » .« نعم . لكنني أشرب أحياناً خمر النخيل ، حين يتكرم خادمنا » . ضحك السفير وأشار آسفاً : « متأسف . وددت حقاً لوكان لدينا خمر نخيل » . أحد النادلين كان ماراً بالمزيد من الشمبانيا وسمع الحديث .

كان فاسيي ابتعد ، باحثاً عن مسؤول التقديمات ، وحين رجع وجد مونيكا وفي يدها كأساً من خمر النخيل ، وأحد زملاء فاسيي يسألها : « ماذا في يدك يا مونيكا ؟ ميست البا ؟ » .

وصاح بها فاسيي : « من أين جئت بهذا ؟ » .

« أحد النادلين جاء به . سمع حديثنا عن خمر النخيل وذهب لإحضاره من بيته . ألم يكن ذلك جميلاً منه ؟ » .

تدافع فاسيي نحو بانديلي : « ها أنتذا ترى ، لقد بدأت ثانيةً » .

ارتدى بانديلي قناع صبره الدائم : « ماذا فعلت الآن ؟ » .

« كفى سوءاً أنها رفضت الشمبانيا ، مع أني لا أرى أية ضرورة لها . وعلى أي حال كم واحدةً من هؤلاء النساء تلمس شرابها ؟ إنهن يمسكن بكؤوسهن في

أيديهن ، حسب ، كي يكنّ اجتماعيات ، ما الغلط في الأمر ؟ » .

غمغم كولا : « أبداً . أبداً . أنا متأكد »...

نظر إليه فاسيي بحب وامتنان « لكن ليس هذا كل مافي الأمر . لم ترض بذلك كان عليها أن تذهب وتطلب خمر النخيل في حفل الكوكتيل . هل سمعت يوماً بمثل هذا ؟ خمر النخيل ؟ » .

لم يعجبه منظر بانديلي الوقور .

« كنت أفهم المسألة لو كانت بنتاً متوحشة من أحد أحياء لندن الفقيرة . لكنها متعلمة . وقد عرفت الحياة الاجتماعية . لماذا كان عليها أن تأتي وتخزيني بشربها خمر النخيل » .

بدا كولا مهتماً : « أوه... تعني أنها حصلت عليه ؟ » .

دار فاسيي : « ان لم تصدقني فانظر اليها . أنها هناك ، تحتسي خمر النخيل . كما ان احدهم جاء اليها حين رأيتها ، وأراهن انه ينشر الآن الحكاية في طول المكان وعرضه » .

« آه... قد لايعرف أنه خمر النخيل »

« لقد عرف . بل انه كان يسخر . أهو ميست البا ؟ هذا ماقاله » .

أخبره كولا : « كان عليك ان تقول نعم . بعد هذا ، سيكون الامر مفهوماً أكثر لو قلت أن زوجتك مرضت فجأة فتناولت بعض الميست البا » .

« نعم ، أظن ذلك... أظن ذلك... كان علي أن أفكر به . لكن المشكلة هي مونيكا . كان يمكن أن يزلّ لسانها فتعترف . اسمع يابانديلي . كن صديقاً . ان سمعت تعليقات معادية فأخبرني . الافضل ان يعرف المرء في حينه مايقول الناس ، إذ باستطاعته آنذاك ان يفعل شيئاً . كما ان... » .

واقترب فاسيي اكثر : « ملابسها » .

قال بانديلي : « عمّ تتكلم ؟ » .

« ألا ترى أن ملابسها غير لائقة ؟ » .

« لم ألاحظ » .

التمع في عيني فاسيي بريق أمل مفاجىء : «تعني انك لم تلاحظ ؟ حقاً . انا مرتاح . ربما لم يلاحظ اكثر الناس» .

قال كولا : «أخشى انك مخطىء» .

«آه... إذن انت لاحظت» .

تابع كولا : «لست أنا . انا لاأعرف الكثير عن الملابس ، لكني سمعت جماعة هناك يعلقون عليها» .

قال فاسيي مستديراً نحو بانديلي : «أنت ترى!» .

استمر كولا : «لن اعير انتباهاً كثيراً . انت تصادف أمثال هذه النماذج الحاقدة في كل مكان ، وهؤلاء كانوا...» وهز رأسه هزة اسى «مهما يكن ، لست بحاجةٍ الى ان أخبرك . أنت تعرف كيف يمكن ان يكون الناس ماكرين كالهررة» .

«لا . الامر ليس مكراً . انهم محقّون . أخبرني ماذا قالوا بالضبط ؟» .

تدخل بانديلي وناور ليبعد فاسيي باتجاه زوجته ، وماكادا يبلغانها حتى انفجر فاسيي :

«ألا ترين كيف جعلتنا منافيين للذوق ؟ انظري حولك ، وشاهدي بنفسك . حتى اللواتي يرتدين الزي المحلي يلبسن قفازات» .

انسحب بانديلي في أول فرصة مناسبة ، عائداً ليهاجم كولا غير النادم : «لأي غرض كانت تلك الأكاذيب كلها ؟» .

«الرجل يجب أن يقلق . وأنا ساعدته فقط بالمادة» .

هز بانديلي رأسه : «لاتهدر تعاطفك مع مونيكا .أنا أعرف الاثنين كليهما» .

«ليست المسألة مسألة تعاطف» .

«تبدو لطيفة ، لكنها ليست هكذا . والحق انني مازلت أبحث عن فتاة أشد» .

«تبدو جد فتّية» .

موظف هو مسؤول التقديمات تحرك بين الضيوف حاملاً قائمة أسماء ، مصطحباً القلة المختارة الى تحققهم الوجيز ، وتتبعه فاسيي وهو ينظر نظرات جانبية ، ويحسب بالترتيب الأبجدي دوره في التقديم . ابتعد فاسيي وانضم الى بانديلي ثانية . كانت الحيلة واضحة لدى مونيكا ، فأحنت رأسها في خمر النخيل ، متظاهرة بأنها لم تر شيئاً .

«آ... ها انتذا ، ياسيد فاسيي . هل لك ان تحضر زوجتك وتأتي معي رجاءً» .

«أوه ان زوجتي... زوجتي خجولٌ . عليَّ الذهاب وحدي» .

«هراء . لايمكن أن يحدث شيء كهذا . دعني أتكلم معها» .

«لا . لا . لا . صدقني . لافائدة . طوال المساء لم أفعل شيئاً سوى اقناعها لنذهب ونكمل الامر» .

بعد لحظات ، شد بانديلي كولا من كمه : «انظر!» .

«أصحاب السعادة ، هل لي ان أقدم... اوه... هذا أفضل ، اخيراً استجمعت شجاعتك... عذراً . اصحاب السعادة ، هل لي ان اقدم السيد والسيدة فاسيي ، مستشفى الجامعة التعليمي» .

تغضّن وجه كولا كله مصعوقاً . «صديقك... مالَهُ ؟» .

«المفترض انه افضل محلل اشعة x في القارة» .

«أيفترض ان لهذا صلة بالموضوع ؟» .

هز بانديلي كتفيه .

خرج فاسيي عجلاً ، متبوعاً بمونيكا ، بمجرد انتهاء التقديم . بعد خمس دقائق عاد وحده ، وسرعان ماتبعته مونيكا . كانت متماسكة ظاهرياً ، كأنها تبحث عن فاسيي . أمسكها بانديلي من ذراعها «تعالي ، وانضمي الينا» .

«أين آيو ؟ أرأيته ؟» .

«انه في مكان قريب هنا... اوه... هاهوذا مع عضو مجلس الشيوخ اوكوت . هل آتي به ؟» .

«لا . لايهم» .

«بالمناسبة... هل التقيت كولا ؟» .

كان في صوتها عداء متميز : «أنا زوجة آيو» .

«كولا يحاضر في الفن ، في المعهد» .

«نعم ، بالطبع . كان زوجي للتو يخبرني . قال إنك استرقت السمع الى أناسٍ يعلقون على شبه عربي . أهذا صحيح ؟» .

شعر كولا بأنه يحب مباشرتها . لكنه في تلك اللحظة لم يكن قادراً على التفكير في شيء يقوله .

تغير صوتها الآن الى قلق أصيل : «هل سببتُ له مشكلةً ؟» .

ضحك بانديلي : «تبدين قلقة . أين تركت كأسك ؟ أنا نفسي أريد أن أشرب ثانية» .

اشارت مونيكا ، فخطا بانديلي مبتعداً .

«منذ متى تعرفين بانديلي ؟» .

«بانديلي صديقٌ طيب لنا . حين لايجد آيو أمه ، يشكو أمره الى بانديلي» .

«يشكو ؟ أنا لاأفهم» .

«بل تفهم . أكيد أنه الآن كان يتحدث عني ، والا كيف تسنّى لك أن تشير إلى ماسمعته عني ؟» .

ظَل كولا صامتاً .

«أم أنك ثرثار شائعات معتاد ؟ أوه... معظم أصدقاء زوجي هكذا . هم يعترفون بذلك . لكن زوجي وحده الذي يغضب حين أذكر هذا» .

«آمل ذلك . ان للزوج الحق في ان يطالب ببعض الاحترام لأصدقائه» .

«لكنهم جميعاً ثرثارو شائعات . وغالب الشائعات من خيالهم . أليس كذلك ؟ أنت لاتريد الاعتراف بذلك ؟ لكنك تعرف اكيداً» .

«كم لك هنا ؟» .

« عامان . أم أنك لاتعتبر المدة كافية لتكوين استنتاجات ؟ » .

« كافية . أحياناً يكفي أسبوع واحد » .

« حدث هذا معي . كنت مرتعبة جداً حين أتيت . لكنني سرعان ماإعتدت . بل انني لأشعر بالمتعة الآن لمجرد اصغائي الى زملاء زوجي . لم أعش سابقاً في محيط جامعي . كنت أعتقد أن كل شيء سيكون فوق مستواي . وبدلاً من ذلك وجدت الجو يشبه معهدي القديم لإعداد المعلمين » .

« تعتقدين اننا لسن سوى كومة مدرسية بريطانية ، إذن » .

« أوه... لا... لم اكن أريد أن أكون غليظة » .

جاء بانديلي بالشراب . تابعت مونيكا : « هل أخبرك بما سمعته عنك ؟ » .

« لا . أنا لست متلهفاً » .

« أوه... لكنك متلهف . كل امرىء يريد ان يعرف مايقوله الناس عنه . سَلْ آيو » .

« حسنا! ماذا سمعت عني ؟ » .

« حسنا . في البداية . لديك صديق يعتقدون جميعاً بأنه مجنون » .

« كنا بصدد الحديث عني » .

« وهذا ما أفعله تماما . أنت تشتغل الآن في لوحة ضخمة سوف تضم آلهتك ، وأنا أريد ان آتي لأشاهدها » .

« لاشيء لتشاهديه .أنا مازلت في البداية » .

« لكنك لم تبدأ للتو . الم تكد ام غاضبة أن تحطم مشغلك لان ابنتها جلست لترسمها ؟ آه... سمعت كل شيء عن الامر ؟ » .

« نعم . أخشى انك عارفة جيداً » .

« إذن... هل أستطيع المجيء ومشاهدة اللوحة ؟ » .

« بصراحة . لا . إنها لم تصل بعد المرحلة التي تعني بها شيئاً » .

« حسناً . فيما بعد » .

«اجل . فيما بعد » .
«علي أن أذهب وأجد زوجي . أتسمحون لي ؟ » .
انتظرباندیلي حتى ذهبت . «ماالأمر ؟ لايبدو الود عليكما ، أنتما الاثنين » .
«لا ، ليس بيننا شيء » .
«كنت تبدو ، في الواقع ، عكر المزاج » .
«لا . لماذا ؟ » .
«يجب أن تكون عارفاً . على اي حال ، نحن ذاهبون غداً ، الى بيتهم ، للغداء . فاسيي أخبرني منذ قليل » .
«وماشأني أنا ؟ » .
«هو ضمك إلى المدعوين . انت اكثر مني . أنت لاتعرف فاش . انه يريد ان يعرف المزيد مما سمعته ، وهو لايطيق الانتظار » .
«حسناً . انا لم اسمع شيئاً . فلينس الموضوع » .
«أمه قادمة . انت سرعان ماتعرف المنوال . انه سيرسل الى أمه ، بعد مشهد كهذا ، لكي تتحدث مع مونيكا . الاثنتان ـ اعني الأم والزوجة ـ تتفاهمان جيداً . وعلى أي حال ، انا أحب أن أتمتع بوجبة شهية مرة كل فترة ، كما ان السيدة فاسيي عفريت مطبخ » .
«حظاً سعيداً اذن . اذهب وكل حتى التخمة » .
«ثمت شيء يتآكلك ، ياكولا » .
«وماذا يمكن أن يكون ، اترك النقيق . لاشيءهناك » .

بعد ظهر اليوم التالي ، فتحت لهما مونيكا الباب . قالت : «اشعرا بالجوع رجاء . ان حماتي هي التي تطبخ » .
فاسيي بقي لحظة واحدة ليقول : « كولا لم يلتق أمي... ماما... »

واختفى في المطبخ . قالت مونيكا ملتفتة إلى كولا : « سآتي ببعض البيرة ، دائماً هي البيرة في نايجيريا ، أليس كذلك ؟ أنا لم أشرب البتة ، حتى جئت هنا ، وذقت خمر النخيل . أنا الآن لا أشرب سواه » .

عاد فاسيي من المطبخ : « آسف جداً ، أمي تقول إنها لاتستطيع ترك طبخها الآن . بانديلي ، انا أخبرتها أنك هنا » .

قالت مونيكا : « معنى هذا جهدٌ مضاعف . ان بانديلي هو المفضل لدى امي . أنها لاتتحمل أياً من أصدقاء آيو الأخرين » .

« عزيزتي ، كيف لك ان تنطقي بكذبة كهذه ؟ » .

« حسنا . سننتظر مجيء امي ، ثم نسألها » .

« لامزيد من ذلك الهراء . لا أريدك وأمي أن تناقشا أصدقائي ، بعد... لقد أخبرتك » .

من المطبخ تعالى صوت غني جهير : « موني! » .

« أظن أمي بحاجة إلى مساعدة » ، واختفت مونيكا في المطبخ .

بعد بضع لحظات ، أشار فاسيي الذي لم يكف قط عن التململ ، أشار إلى بانديلي و سحبه متذكراً في اللحظة الأخيرة أن يقول : « لن نتأخر دقيقة كن في بيتك يا كولا » .

خلال أبواب الشرفة ، وعلى الفور : « هل حدثك أكثر عما سمع ؟ أعرفت من كانوا ؟ » كولا أغلق ذهنه ، عامداً ، عن الصوت ، فلم يعد يسمع شيئاً .

بقي وحده قليلاً . جاءت مونيكا مرة وسألت : « أين ذهبا ؟ » أشار إلى الشرفة .

قالت :« أوه... » ، كما لو أنها فهمت . ودهش الاثنان وحزنا للأمر .

توقفت في المجاز ، برهة ، مترددة ، ثم ذهبت في النهاية ، ثانيةً .

طويلاً كانا يتحدثان . وسرعان ما أخذ كولا يحس بتأثير البيرة ، وشعر بنعاس بطيء يغالبه . ثم سمع الباب الخارجي يفتح خفيفاً ، وبحركة ناعمة كالفراء خلفه . يراعة دافئة صفراء دغدغت خده ، ووضعت نفسها بينه وبين

الطاولة الخفيضة . ونظرت نظرة قصيرة إلى الكأس في يده ، شربت منه ، وغصّت وجهها من طعمه المر . ثم ضغطت وجهها تقريباً على أصابع كولا المسترخية التي بدأ البندق يتساقط منها . أمامه ، مدْبرةً ، مدغدغةً وجهه بشعر أصفر قصيرة العقص ، كانت تقف فتاة مهقاء . كانت لطيفة ، مرتبكة ، هشة ، طفلة شفق مقلقة .

كانت مونيكا دخلت :« أوسايي! ياعزيزتي ، أين تهذيبك ؟ تعالي هنا » . رمش كولا غير مصدق .

قالت مونيكا : « أوسايي هي ابنة طباخنا » .

« أهو أمهق ؟ » .

« لا . تلك هي المعجزة .لا هو ولا زوجته . إنهما كليهما أسودان مثلك» . « آه... . أنت لاتعترض على السواد .أتعترض ؟ » .

« أنا اعترض على الأسمر .الملون .المخضّب ، وأي من التعابير البلهاء » .

« كنت متأكدة . تعلمت أن على المرء أن يكون حذراً هنا . أغلب الناس حساسون جداً ، لماذا ؟ ها أنذا أعود ثانيةً . كنت أتكلم عن أوسايي . ان لها أربعة أخوة وأخوات ، ثلاثة منهم وهي بضمنهم مُهْقٌ . والأم تتوقع سادساً . الرجل المسكين مرتعب حقاً حتى الموت » .

« تبدو عرضةً للمخاطر تماماً » .

« أوسايي أضعفهم بصراً . « إنها قصيرة النظر فعلاً » .

« لاحظت ذلك » .

« أظنها جاءت هنا بسببي . هوى اللون » .

« إنها شيء ناعم أزغب ، مثل فرخ ذي يوم واحد . أوسايي . تعالي ، وخذي مزيداً من البيرة » .

« لا . يجب ألاتأخذي » .

« لن تضرها البيرة . مع أن البراندي سيكون أفضل . أنظر إن كان اللون سيندفع الى خديها » .

احتسست أوسايي البيرة ، بعدم التذوق ذاته . ثم شرعت تحدق في وجهه متملية ، ومرت عيناها ـ بمسافة انش فقط ـ على ملابسه . وأحس فجأة بالرعب عليها .

« ولكن... كيف لها أن تعبرالشارع ؟ » .

« يجب أن تستعمل نظارات . رتبت الامرمع صاحب محل نظارات ، ليفحصها ، أوسايي جذبته ونفرته . قال « مثل بيضة وضعت للتو ، لم تتصلب قشرتها بعد... أو مثل الوسط النابض لرأس وليد... أوه... لاتهتم بي . أنا أعاني أحيانا من عواطف زغب » .

آنذاك نظرت إليه مندهشة ، مما أفقده الراحة . « قلت إن لديك عواطف زغباً ؟ » .

حاول أن يبعد الموضوع ، فقالت : « تعال إلى النافذة » .

النافذة تطل على الفناء الخلفي . « هناك... أترى جِذل الشجرة ذاك ؟ إنها جد قصيرة النظر بحيث تتحدث إليه » .

« لمَ لم تفعلي شيئاً طوال هذه المدة ؟ » .

« ظل آيو يعدني . المشكلة أنني لاأملك سيارة ، ثم أنني لاأعرف كيف أسوق » .

« حسناً . حسناً . سأرتب... أرتب شيئاً » .

« أتأتي لتأخذها ؟ » .

« نعم . بالطبع . سآتي بنفسي » .

قالت : « اشكرك » . ثم استفسرت بعد هنيهة : « هل أسأت اليك البارحة ؟ » .

« أسأت إليّ ؟ كيف » .

« أقصد ، أنك كنت غير ودود تقريباً . أأنت ممن لايؤمنون بالزواج المختلط ؟ أعرف ان بعض اصدقاء آيو لايطيقونني » .

« أليس هذا ، شأنك وشأن زوجكِ ؟ » .

« أنا سعيدة لأنك ستأخذ اوسايي . قد تظن أنني انتهزتُك ؟ » .
« بالطبع لا . لاتكوني مضحكة » .
« لن يتغير شيء . لكني انتهزتك ، وإن كنت لاأشعر بالأسف لذلك » .
« ولا أنا . فلنغلق الموضوع » .

محدقاً في الجذل الخشبي ، كانت أهداب أوسايي تمسح راحتيه وهي تصفهما وصفاً مفصلاً . لم يفطن كولا الى مغادرة مونيكا الغرفة . فجأة ، صاريعيد الفعل ، ناظراً عن قرب إلى الطفلة ، هاتفاً بنعومة لنفسه . لقد يئس طويلاً من وجه مناسب بين الاطفال القريبين من أجل أن تغدو وصيفة أوبالوايي ، وبدت له اوسايي الآن هبةَ الهيّئة ، لوناً وملامح تحقق صورته المثلى . بشَرَتُهَاحجر قمر طاهر ، جالسةً تحت قدمي أوبالوايي ، وهي تعكس وجه تجارب الغضب الرباني ، طالعة في كل مرة ، صافية ، سليمة ، لم يلحق بها وضَرَ .

ثم حل هذا الأمر الآخر ، بداية داخلية لحنين عظيم... في وقت كهذا أكيداً ، ليس الحضور المتخمر لرقة ماتضعف قوانين خلقه الخاص...

بغتةً سمع أبواب الشرفة تفتح ، وبانديلي يدعوه . استدار فجأة ، بدون أن يترك لنفسه وقت تفكير ، وهرب من المنزل .

٤

حتى الأطفال يعرفون عن سيمي! الزوجات يركعن ويصلين من أجل أن يخطىء أزواجهن مائة مرة مع مائة امرأة ، ولاتقودهم أقدامهم الضالة إلى سيمي أبداً ، سيمي ذات الجفنين الذابلين . ذلك ، لأن الرجال ، حينها ، يفقدون الامل بالخلاص ، وتمسي بيوتهم وأطفالهم أشباح وهم مضى ، متعلمين من سيمي نظرة جديدة عن الحياة ، والحب ، منغمسة في واقع يأكل لحم البشر .

سيمي حطمت رجالاً وصداقات . جد بريئة كانت . سيمي لم تسقط في معرفة العمر . كل رجل شعر انه خانها ، وانها لم تخطىء بحقه ، وقد حماها من غضب النساء الذي لا يمكن أن تظهر في عينه مثل هذه البراءة . كانت هناك أغان ، بالطبع ، عن قصص حب سيمي ، أغان مديح ، وأغان أخرى تكيل الشتائم ، ليس على سيمي ؛ ليس على سيمي ابداً ، ولكن على النسوة اللائي يجرؤون على النيل من ربة الصفاء ، سيمي ، ملكة النحل . التي بَشَرَتُها من بستل الأرض الخفيف ، ومن الهواء ترابُ « كانو » . سيمي لم تدفع حتى تغنى مدائحها . الرجال دفعوا . لكن معظم الأغاني كانت ارتجالاً . الشاعر رأى وانفجر بأغنية .

في المجلس ، تجلس سيمي بلا حراك ، هادئة ، غير محتفية ، غير مبالية بجمع العشاق . وحين يذهبون ، وقد هدأ هديرهم ، وفرغت جيوبهم ، وخزيت رجولتهم ـ ذلك لأن سيمي تباريهم ، كأساً بكأس ، وتحفظ سرها ،

بينما الرجال يخوون ، ويقادون خارجاً ، صامتين أو صاخبين ، أشد أسى ، لكنهم ليسوا أكثر حكمةً ، أبداً ـ آنذاك تقوم سيمي باختيارها ، وجفناها الجامدان لا يشيان بشيء .

«تعال هنا! تعال هنا ، أيها الاجبو الفتى!» ، معلم الجغرافيا ، الرجل الوحيد ذو المهنة المحفوفة بالكارثة ، الذي وجد بصيصاً من الطيبة في «ذلك الإجبو!» ، أمسك به من سترته الجديدة الفضفاضة وسحبه الى صفه المدرسي . تفحص اللباس الأزرق وعلامة المدرسة ، شارتي الحرية الأولى ، ذلك لأن طلبة الصف الأعلى وحدهم هم الذين يشتريانها ، وقد انتظر اجبو حتى اقتربت عطلته المدرسية . قال المعلم «أيها الاجبو الفتى ، إنك لمعجزة . هل عرفت انك كدت تُفصل ست مرات ؟ ست مرات في الدراسة الثانوية! ياإجبو الفتى! يجب أن تسألني شهادة تقدير ، لأن تلك الحقيقة قد تؤثر في رجلي ذي التفكير الصائب» .

«نعم ياسيدي» ، قالها مرتبكاً ، لأن هذا المعلم وحده كان قادراً على تأخيره .

«أجل . لقد سجلت مايشبه رقماً قياسياً . والآن اسمع الى هذه أيضاً . أنا أعرف المجنون بالجنس حين أرى واحداً . وأنا الآن أرى واحداً يقف أمامي تماماً ، هذه اللحظة ، اجتنب النساء ، أتفهم ؟ اذهب الآن أيها الدودة البشرية البائسة ، أغرب عن وجهي» .

كان ذلك المعلم معروفاً بمغالاته ، ذلك لأن اجبو كان فظيعاً في خوفه النساء . قبل اسبوع ، وصلت حكاية ليلة بالبلدة الى المعلمين . عدد من الطلبة هربوا ، واجبو من بينهم ، لكن الحكاية ظلت تدور بسبب دور اجبو فيها . كانوا ستة طلبة في نشوة الحرية القادمة والخلاص اخيراً من طغيان الشهادة المدرسية ، هؤلاء الستة شنوا هجومهم الأول على نادٍ ليليّ . وقد مرت فترة قبل ان يعرف زملاء اجبو انه لم يرقص ولم ينطق كلمة منذ وصولهم . كما أن نظرته لم تتزحزح عن وجهة واحدة .

« أنظر إلى إجبو... إيه... ألم تر امرأة قط من قبل ؟ » .

« بإمكانك دائما أن تميزهم عن سواهم . ابن الكاهن ، أعظم فاسق » .

بعد امتحان مغادرة المدرسة ، ومع الورقة الأخيرة المرميّة على وكيل المضطهِد ، تمدد لديهم الزمن نفسه ، وفترة السنة ، الباردة الجافة الهشة ، ولّدت إحساساً بالطلاقة ، نهاية للوعي بالزمان والمكان ، طيشاً عاماً حتى في الطبيعة ، في الغبار ، في حفنات الأوراق المتفحمة . في الصباح الباكر وفي الليل ، يكتسب الهواء لذعاً ، وفي الظهيرة تحوم صقور العوسق ، حول الدخان ، منتظرة خلاص سنجاب أو جرذ . لكن لدغة تلك الليلة بخاصة ، هي التي ألهبت الجلد ، السير مع ممر الغابة ، عبر أمواج حشيش الفيل الواخزة ، كان الهواء قِرناً من خمر نخيلٍ صرفٍ في صيام عشرة أيام ، وبحلق يابس ، وشفتين متشققتين ، في مسيرة الأميال الثلاثة... عرف اجبو السكر الكامل .

جلس الى الطاولة ، وقد تبدد كل ارتباكه ، إذ لم يكن يبصر هو غرابته . سيمي في الفترة الخالدة من حياتها ، كانت جالسة في وسط جماعة عليه ان يعرفها ويألفها ، لم تكن سيمي تحابي أحداً . كانت مائدتها تضج بالضحكات . الضحكات فارغة حقاً ، لكن سيمي لم تكن لتأبه . كانت لها عينا السمكة . تمتم اجبو ، والأولاد قالوا ، آه ، لقد وجد رجل الخليج مبتغاه : مامي واتا .

مرةً ، رفعت سيمي بصرها ورأته . وبدا امراً مضحكاً أن ينظر في عينيها ويفكر بالكبد الطري على خشبة القصّاب . وأعماق الكبد الهلامية الباردة . للحظة كاملة تركت سيمي عينيها تثبتان عليه ، اما اجبو المذهول الضائع ، فقد نهض ببطء ، والدم يحتدم في رأسه بحيث لم يفهم من النظرة شيئاً ، ولم يستخلص منها شيئاً سوى ان سيمي قد رفعت بصرها ورأته . كانت يداه نديتين ، وترنح اجبو في الشارع خارجاً ، تائهاً كالأعمى بين صواني جوز الكولا واللحم المقلي ، بينما الباعة الجوالون يضحكون ويقولون ، انه واحدٌ آخر منهم ، تعتعه السكر . وانه ليتذكر مسيرة العودة فقط باعتبارها حمى

اصوات كتيمة ، وأصداء بعيدة لجنادب ، وهسهسة مسترقة في ليل أسود ، لقد دار اجبو مع اللدغة العامدة للأفعى ، وقال للسم في عروقه : أهلاً .

في اليوم التالي ، وفي الصف ، شرح اجبو الأمر كله . «لو كنت رأيتها قبل امتحان درس الحيوان ، لأجبت عن سؤال حول ملكة النحل . فقط لأصحح الكتب المدرسية ، مرة وإلى الأبد» .

المعلمون تبلغهم دائماً هذه الأشياء . «ياإجبو الفتى ، تعالى هنا لنسمعك أيها المهووس مبكراً» .

فيما بعد ، سيعترف اجبو لسيمي «كان ذلك أول فعل قرار ، وآخر فعل» .

لقد ترك المدرسة فوراً ، وحصل على عمل ، وشرع يوفر . كان نكران ذاته إلى حد تفكيره بأنه لو اختار أن يغدو ناسكاً على شاطىء البحر ، فإن هذه المجالدة ستكون نافعة . كان يأكل تحت خط التضور جوعاً ، ويجد في المكتبة بهجته المطلقة . بثمانية عشر باوناً في جيبه ، ونعل حذاء ارتفاعه ثلاثة إنشات لمزيد من الطول والثقة ، وبدلة من غزيل الصوف ، مخططة ، وربطة عنق ـ الياقة المنشاة ذات حد قاطع ـ اقتحم اجبو إيبادان ، حيث مازالت سيمي تعقد بلاطها . اختيار المضيف مسألة هامة طبعاً ، وقد تذكر اجبو ، أخيراً ، طالباً في سنه . بدا الاختيار مثالياً ، حتى بلغ اجبو باب مضيّفه البريء ، فتردد ، لكن البطاقة المثبتة على الباب بالدبابيس ضبطته : ي . آيو . ديجادي . سكرتير . اس . سي . ام . اطرق الباب رجاء . وادخل بمشيئة الله .

كان يمكن ان يهرب فوراً ، لكن ديجادي فتح الباب وهو واقف خارجها . «اجبو! ماذا تفعل هنا ؟» ، لكن اجبو حتى لم يبتسم . «ما كل هذا ؟» قال وهو يقرع البطاقة بمفاصل أصابعه . «لاتقل إنك تتقدم حاملاً راية الأسرة» .

«أود لو تفعل الشيء نفسه» . ديجادي ابن زميل أبيه المتوفى .

لقد جهد القس ديجادي كي يرعى ابن صديقه ، أو يجعله في الأقل تحت

رعاية الأبرشيّة . لكن عمة اجبو رفضت ، وقالت لا أنت ولا الشيطان العجوز جده ستأخذانه . أنا سأدبر تنشئته بنفسي .

غرفة دراسة ديجادي كانت تحمل أهوال الحياة الآثمة في نصوص مؤطرة على طول الحائط ، وسرعان ماراًى اجبو خيبة آماله في المساندة المعنوية من ديجادي في المواجهة المخطط لها . قال ديجادي : «سيكون هذا مساندة غير اخلاقية» ، ولم يزحزحه عن موقفه حتى توسلُ بشعور الرفقة لديه . «سأبيّن رفقتي الحقيقية حين أبقى هنا وأصلي من أجلك» . قال اجبو «عليك ألا تهمل كتبك . أما أنا فلا تقلق عليّ» . طمأنه ديجادي : «أنا أصلي دائماً قبل مباشرة الدرس . عندي استراحة شاي حوالي الحادية عشرة . في حال الاستجابة لصلاتي ، سوف ترى النور ، وتعود في وقت الشاي» .

وشعر اجبو برعب حقيقي : إن تستجاب صلاة ديجادي ، ويعود الى البيت محبطاً . وحينما سار في الحي الجامعي ازدادت مخاوفه ، وبدت قضية ديجادي ، فجأة ، معقولة ، عادلة ، ووارده . وأحس اجبو ثانية بوطأة تقوى صديقه ، وأخذ عرقه يسيل خوفاً من سحر النصوص . وجّه يائساً صلواته ضد ديجادي «هذه الليلة ياإلهي الكريم ، دعني أضع من أجلك . أنس وجودي البائس ، وبارك صديقي مع كتبه . اجعل منه مثالاً ساطعاً ، ولكن اتركني ، كي يشع مثاله» .

ثمت تقوى ، أيضاً ، في التضحية بالنفس (كان يقنع نفسه) ، وهل كانت صلاته غير ذلك ؟

وجد سيمي في ثالث نادٍ ليلي ارتاده . لم يرها اجبو على الفور ، لكن الحلقة لايخطئها أحد . الفناء المكشوف كان مفعماً بسيمي ، بعيدة ، ساكنة ، عصية على التأثر ، كما هو شأنها دائماً . ان اولئك الذين يدّعون متباهين بأن سيمي منحتهم حبها ، وعاشت من أجلهم ، غير قادرين على أن يجعلوا العالم يصدقهم ، ذلك لأن سيمي مسبوكة في بوتقة البعد ، مما جعلها بريئة . كأنّ أية صلة بينها وبين العالم لم تكن ، وهؤلاء الرجال الذين نامت

معهم ، لم يعرفوا إلا اليأس ، إذ أنهم يرون ، فيما بعد ، أنهم لم يمستوها قط . ان استعادة الفعل ، في حضرة نظرة الكبد الباردة لسيمي ، هي تدنيس . لذا فإن الرجال لا يستطيعون الا ان يتعبوا من اجلها ، هم الذين لم يمتلكوها البتة . والوهم يدفعهم الى الجنون ، فيدخلون في ولهٍ لايمكن ان ينتهي .

فكر اجبو : «إنها ملكة النحل» . يجب ان يرقص الرجال ويؤدوا دور الحمقى من أجلها . وقف اجبو ، غير ميّال بعد ، الى ان يلزم نفسه بالجلوس الى طاولة ، وطلب شراباً .

وقف اجبو ، يهيىء نفسه لفعل الاستسلام للوحش الذي يكمن منتظراً ابتلاعه . وكما وقف مرة ، من قبل ، في مطار واري ، وهو مطار قميء غير ممهد في تلك الأيام الأولى للطيران المدني ، منتظراً ان تبتلعه طائرة دوف رقيقة .

اجبو وعمته . اجبو مفكراً بالشجاعة الخرقاء لهذه المسافرة الطائرة العجيبة التي فكرت بتجارة أقمشتها اكثر من الخطر الداهم الذي ظنت انه يتهدد حياته .

واستعاد ثانيةً ، أماً وأباً ماتا ميتة المعجزة .

القس جونسون ، وزوجته الأميرة اجبو . في دفتره المدرسي الأول خطّت عمته اجبو ، وإجبو كان . وحينما كبر وفهم ، وجد انه لايمكن ان يخطىء اسماً مثل جونسون ، وظل اجبو . قالت العمة ، يجب ان تذهب الى المدرسة في لاغوس مثل مخلوق متمدن . إن جدك الوثني ذاك لن يعلمك سوى أن تحسب الزوجات وتضبط مغانم التهريب . وعالياً ، مرة ، فوق الرائحة النتنة لسيف البحر والرطوبة ، تلاشى الخوف . لقد قاتل في كل خطوة من ممر المسافرين وهو يركل ، ويعض ، ويتشبث بالحاجز ، وحتى في القمرة حاول أن يفتح كوّة ، فضحك المسافرون الآخرون . هدرت الماكنة ، وهدّأه نبضها قليلاً ، ثم اندفعت صرخاته من جديد . لكن أجنحة الطائرة ارتفعت فجأةً ، تماماً كما ألف حين كان يتظاهر بالطيران .

هدأ إجبو .

نظر إلى أسفل ، فشاهد النهر وشجر المنغروف الكثيف ، وشرع ينط ويهبط على المقعد . الا ان السماء اشرقت الآن فوقه ، مروحة هائلة من تاج الطاووس ، والتفت اجبو الى امه الجديدة وقال : « ماما ، أليس هذا منزل الله ؟ » . لقد اختفى الخوف تماماً ، سقط مثل طير ميت في الخلجان المختفية في أسفل . ونام اجبو نوماً عميقاً طوال الرحلة .

جلس اجبو ، وتحسس ، قلقاً ، جيوبه ، وازدادت ثقته من حافظة نقوده الثخينة . جاء صبيٌّ ، ذو وجه صغير حاد مليء بالندوب . توقف الصبي طويلاً قبل ان يدرك اجبو انه مكلف بخدمة الطاولة . « ويسكي . لا . براندي مع الليموناد... كأس مضاعفة رجاء . وليموناد » . تركه الصبي ، ونهض اجبو . الآن ، الآن ، حتى قبل ان يحتسي الجرعة الاولى من الشراب ، إنه وقت التحرك . الآن ، الآن ، قبل أن ترفع عينيها وتتبيّنه... وداهمه يأسٌ لا يغالَب .

دهش للسهولة التي تمت بها الأمور . سألها ، فنهضت سيمي حالاً وجاءت معه . نهضت بصورة جد عابرة ، غير مقدمة شيئاً ، ولاقاصدة شيئاً ، ما عدا أنها نهضت وتحركت كما لو أنها انتظرت لتُطلبَ ، وأن آخرين كثاراً سيطلبون ، ويمضون . قادها اجبو ، معتذراً عن يديه اللتين ظلتا نديتين ، في رقصة فوكس تروت رشيقة ، ذلك لأنه كان عضواً مثابراً في صف الرقص للطلبة الكبار ، ومستوى رقصه فوق المتوسط .

أظن أن هذا يكفيني ، يكفي أنني لمستُها . انه خائف من التجربة حتى في الضغط خفيفاً عليها . يعتقد أنه حين يطلب أكثر سوف يفسد الأمسية . لقد فعلها خطأً . وكان متعجلاً . ينبغي ان تكون هذه حملة بطيئة ، تتصاعد حتى اللحظة التي يكون فيها غير محتاج الى الطلب . كأن يزورها في منزلها ، بعد ان يتم قبوله في حلقتها المشرقة .

استغرب من معرفته كيفية قول الشيء « ماذا سأرسل إلى طاولتك ؟ ويسكي ؟ أم أنك تفضلين الجن ؟ » .

« أنت في أول شبابك ، فلا تبدأ تبذر نقودك » .

أعادها ، منكمشاً ، إلى رجالها ، ملاحظاً آنذاك كيف أن طاولتها كانت ملأى بالمشروبات ، لا في الكؤوس ، وإنما في القناني . وهو ؟ سألها أن يرسل إليها كأساً بائسة...

بقية الليل كانت عمياء . وحافظ اجبو على يقظة مديدة . كان الرجال يأتون ويغادرون ، مهذبين ، رجال أعمال كباراً ، رجال قانون ، الاطباء كانوا الاكثر ثقة بأنفسهم ، فآنذاك كانت مهنتهم المهنة الأولى ، وعنوان الذكاء المتقد ، والظفر بأفضل مواهب الرجل الأبيض وأدقها وأخفاها . لكن سيمي ظلت شجرة الشوك في الليل ، واليراعات تطير حولها ، متشنجة ، وتحترق تحت قدميها .

المتحلقون ايضاً ، تحتملهم مهما كان عددهم ، اذ كانوا حماية . انهم يسعون لها ، ويبتدعون أهواءها ، ويقومون بمهمات من اجل « كلمة طيبة لأختك » ، ويشربون من فيض الأمل الأبدي .

اجبو ، الجالس وحيداً ، المتآكل بالغيرة والحقد ، ابتلع كأس البراندي بدون تفكير ، وحبس انفاسه بينما كان البراندي يكوي أحشاءه ويشعل صدره وبعد أن هدأ قليلاً أخذ يفكر بأن يترك المسألة عند هذا الحد ، متطلعاً بلهفة صادقة الى شاي منتصف الليل مع ديجيادي . ديجيادي آه... ثمت الراحة الكبرى .

« ردّ لي باقي الحساب » وركض الصبي مبتعداً .

صبغ البراندي نظره بضباب فجر . ووجد اجبو ان ارادته متجهة نحو استهلاك نفسها ، وحتى التدمير الذاتي عبر العملية ، متذكراً بعد هذا كله انه مايزال بكراً ، ولم لاتكون سيمي ؟ لم لاتكون سيمي هي التي تدخله مرةً واحدة ، وبقوة ، في هذا الجانب من أسرار الحياة ؟ وقال لنفسه ليس الأمر هكذا . لقد مضى أبعد بكثير ، ذلك لأن الحقيقة طمست ، حينها ، أمله في الانسحاب ، ووقف كالمجنون ، وقد استثار البساطة الماثلة .

إذن ، هذا هو السبب في ملاحقته اياها ـ جاء ليستنقذها من هذا ، من

هذا كله . ليجعلها زوجته ، وتذكر قراره النهائي ، عيشة الناسك السابقة ، قلة اهتمامه بالنساء الأخريات ، لم ذلك كله في هذه الليلة الواحدة ؟ هذه الليلة الواحدة دون سواها ؟ لا . إنه لم يأت لينهي الأمر هنا . سيمي يجب ان تأتي معه ، تأتي معه وتبني وإياه بيتاً .

كان واقفاً بجانبها ثانية . ربما قالت له ، لا ، عشرات المرات . لم يكن بمقدور اجبو ان يسمع . لا . لا أريد أن أرقص ، لكن اجبو لم يسمع شيئاً . أؤكد لك اني متعبة ، كما اني لا احب هذه الرقصة . المرة الاخرى... ايه ؟ ولكن كيف بمقدورها ألا ترقص الآن وفي صدره شيء هام جداً يجب ان يقوله . يمكنها ان تمضي بعد لحظة من قوله . ذلك لأنه يعرف عن سيمي وهجراناتها الغامضة . في لحظة ، نعم ، سيمي ، في الوسط لا تخطئها العين . في اللحظة التالية ذهبت سيمي . لكن ، مع من ؟ ولأسابيع تالية ، تظل سيمي في عزلتها .

وكيف استطاعت سيمي أن تصده هذا الصد الموجع وتقول له ليس هذه المرة ، بينما قد تكون المرة المقبلة انتظاراً أطول من استعداده لهذه المرة!

باطن قدمها كان ممتصاً على أرضها ملتصقاً ، بينما أدرك هو فجأة انه يحاول اقتلاعها من كرسيها بكل اصرار ، « أريد أن اخبرك بشيء » .

« ألا تستطيع قوله هنا ؟ » ، كانت جد رقيقة ، لم تكن صابرة ، كانت ببساطة غير نافدة الصبر .

اجبو عاجز عن الحراك... أليست معجزة ؟ وجهك بالغ النعومة ، غرين المد الأملس ، لكن لم يفكر أي سرطان بالسير عليه ، لم يفكر أي طفل مستهتر بأن يخط على ابنة الأنهار حين تستحم : يا ملكة البحر ، يا ابنة يموجا... « أيها الشاب ، عد . لقد سمعت السيدة لاتريد الرقص » .

رجل غريب ، رجل لم يعرفه ، ولايعني له شيئاً ، انتصب ليجيب باسمها . لن أكون هذا الغرّ ثانية... أبداً... ضد كل هؤلاء الرجال ، الأغنياء والمرموقين ، ماذا أظن ؟ لكن أن يقع في الشرك بهذه الطريقة ، وبلا توازن ،

وأن يتكلم أحد المتحلقين باسمها ، وان توضع يد خشنة مخضلة بالويسكي على مرفقه ، مبعدةً إياه ، وهي تدفعه الى وراء...

سمع اجبو صوته هو يخترق الموسيقى : «أبعدْ يديك!» شكراً لله ، لا أحد يعرفني هنا ، لكن آه لو استطعت إغراقه مرةً بقيء السكران ، فقط ذلك... «أبعدْ نفسك ، يا صديقي ، من أنت لتصيح هنا ؟» ، ووقف اثنان من الحماة لتنفيذ التهديد .

تدخلت سيمي : «لا . لا . اتركوه . لماذا تضايقون الصبي ؟» .

صبي! هذه هي القضية ، حقاً . صبي!

دبّر ان يجلس بصورة ما . كان المقعد ادنى اليه من الباب ، ثم ان الوقت غير مناسب للمغادرة . والانتظار ليس عذاباً ، فهو لم يكن ليبصر شيئاً أو يسمع . بل لم يرها حتى هي حين غادرت .

بعد ساعات وساعات ، أو ربما بعد بضع دقائق فقط ، دنا منه وجه حادّ صغير ، مليء بالندوب ، دنا منه للمرة السابعة «نعم . نعم . هات آخر . ويسكي هذه المرة» .

● السيدة تريدك .

ـ ايه ؟

● السيدة أرسلتني تريدك...

تلفت اجبو حوله متوحشاً ، لايكاد يصدق . لم تعد سيمي هنا . أمسك إجبو بأذن الصبي ، قارصاً إياه من شحمتها . «أتحاول الاستهزاء بي ؟» .

تلوى الصبيّ ألماً ، واحتج .

«استمر . أية سيدة ؟ أين ؟ أين ؟» .

● السيدة هناك في سيارة أجرة .

صحا اجبو بعد جهد جهيد ، عازماً على تحطيم الهلوسة . لكن الصبي ظل في مكانه ، وكان يعني ماقاله... ان الأمر لواضح .

«بقية الحساب...» .

لكن اجبو كان تجاوز التذكر...

باب سيارة الاجرة كان مفتوحاً ، وسيمي تجلس في الطرف القصيّ . وقف اجبو مسمّراً .

« حسناً ، ألا تدخل ؟ » .

هوى اجبو في الداخل ، اخرق ، منهدًا في كل طرف من أطرافه .

في يوم احتفالي هذا . في يوم احتفالي هذا . وتذكر تحذيرات الأولاد الأكثر تجربة ، بصدد حالة القلق ، وإمكان الدمار... عاجزا! إلهي ، في ساعة تجربتنا هذه ، لاتسخر مني بفتيل قطنٍ فجٍّ .

« يجب ألا تعارك الكبار ، وإلا نالك الأذى » .

لكن اجبو ماكان قادراً حتى على النظر إليها . كان يبحث فقط عن وسيلة للهرب ، متلهفاً الى ان يكون في اي مكان غير هذا ، وتراءت له غرفة ديجيادي موئلاً لسعادة الأمان الأبدي . تجاربه الروحية ولامشروع المهانة هذا .

أممكن أنه كان حقاً ذلك الأحمق ؟ أن يأتي إليها ، إليها بدون معرفة إلا ادعاءات الاولاد الآخرين ، وذلك الدرس الخاص في الصف الرابع الذي يبدو الآن قذراً إزاء هذه الحقيقة العليا والمواجهة .

ما ان توقفت سيارة الأجرة حتى امتدت يده الى جيبه ، لكن سيمي أوقفتها ، واضعة يدها عند الانتفاخ أسفل جيبه ، وأجفل اجبو .

قالت : « وفرها » .

في المنزل ، قامت بإغلاق الباب ، ثم استدارت إليه : « لا تكن شديد القلق أنت لست ذا تجربة طويلة ، بل انك لست ذا تجربة على الإطلاق » .

... لو تكلمتُ انفجرت لامحالة . لو تكلمت فإن هذا الادعاء المتباهي المتصاعد سيهبط ثانية لامحالة . هل النساء كلهن مثل هذه ، قادرات على معرفة الرجال بمجرد النظر ؟ قادرات على جعل داخلهم خارجهم ؟ .

كانت قد ذهبت إلى غرفة داخلية ، ونظر اجبو حوله ، غير قادر على تمييز أي شيء ، سوى سيمي الحاضرة في كل مكان .

... في هذه الساعة من...

دخلت سيمي ثانيةً ، فسيطر على هذيانه المتصاعد .

... إلهي ، إلهي ، إن كان هذا خطيئة... يا إلهي ، فلأنكسنّ رأسي سنة أخرى ، لكن ، هذه الليلة ، هذه الليلة الواحدة ، دعني أتعبد هنا ، دعني لا أرى النور ثانية إلا في رؤيا أنوارها المحبوكة .

«أنت لم تخلع ملابس . لا . اتركها لي . سأقوم بالأمر عنك» . للوهلة الأولى لم يحس بشيء . اذ كان فكاه منطبقين على بعضهما بشدة .

قالت : «أنت فتيّ» ، وكانت راكعةً آنذاك ، لذا رفعت وجهها إليه .

نسي اجبو نفسه حين نظر إليها ، وانتابه احساسٌ بالأسى ، حتى انه بدأ يخشى عليها ، وتساءل في سره عما اذا كان هذا حباً . لكن اللحظة مرت ، اذ أمست سيمي لعوباً ، وإن ظلت رصينة حتى في هزئها : «قلبك يدق . يجب ألا تكون قلقاً» . لامسته سيمي ، فأحس بنفسه يرتفع ، ولا أرض تحت قدميه .

احس بالخطر الآن ، ولكي يستنقذ نفسه من جرح يخشاه ، سألها : «ألم تحبي رجلاً يوماً ؟» .

«ش... ش... ش...» .

واندفعت ريح خلال أسنانه المكزوزة ، كلماتٍ عصية على السبر ، وأوتاداً تشبث بها مخافة السقوط .

... أنا تلك الحقيبة الملأى في مهب الريح ، أركب العشب العالي في مطار واري ، حين كان هاجعاً...

«ياعزيزي ، ماذا تقول ؟» .

... حقيبة ملأى في مهب الريح ، عشب عالٍ في المطار الهاجع...

«ما هذا ، يا عزيزي ؟» .

مع أن الأمر كان فاتناً ، إلا أنه كان ألماً ، وهو الذي كان مستعداً طويلاً ، وهو مستعد الآن ، وجد ان المعركة تكمن في استعادة اللحظة ، لحظة

تعلّقهِ بأطراف أصابعه بجرفٍ حادّ ، بينما الدم يتحدر ، عذباً ، في فمه . وطاف ذهنه بحياته ، متسائلاً عما يعني هذا في ماضيه وآتيه .

... يا إلهي الكريم ، في الظلمة دعني...

« أوه ياعزيزي... ماهذا ؟ » .

ذلك لأن المتعة يجب أن تكون آثمة ، والمتعة الزائدة لعنة .

وديجيادي ، ديجيادي ، سيخبر ديجيادي غداً ، بأن حياته بسيطة ، بسيطة جداً وميتة .

... خلال مسايل خفيّة ، زورق ضيق كالغمد ، يفسح القصب الطويل .

لا يمت... يا إلهي... لا يمت هيكل سفينة عتيقاً...

« لكن ياعزيزي... » .

شقٌّ وحيد يباعد مابين الباب وبابٌ على الفخذ المتضائل ، مجزوز الورق ، وضباب عالٍ يدور به ، وعواصف تنثر السديم ، لكن الساق تحملته .

« قل لي ياعزيزي ، ما الأمر ؟ »

... حين أتى عليها الطوفان ، حين أتى عليها الطوفان . كان ثمت شرّابات للرجل ، وجذور حلوة للطفل ، وفي الأعالي كانت غيومٌ متخثرة تنتظر من اصطفاه الله... افسحُ الضباب الخفيض في زورق معتم... في الظلمة دعني أرسو ، في الظلمة أبكي...

٥

كان أكثر صباحٍ مجنون يمكن اختياره لإغاظة البنت ، لكن ساجو لم يواجه إلا خزانة الملابس ـ لم يكن البتة في غرفة النوم من قبل ـ وكان فاقد الحس أثناء محنة دهينوا مع عمتها وأمها . أخيراً ، أخذتهما دهينوا إلى موقف الحافلة ، وهي الآن تمزّق الغرفة اشلاءً ، متدافعةً كي تلبس في الوقت المناسب للدائرة . أيقظته الضجة ، ورأت عيناه المحمرتان أربعة مقابض في مقبضي باب خزانة الملابس .

سألها في النهاية : « هل اشتريتِ هذه بنفسك ؟ » .

« ماذا ؟ » .

« الخزانة . هل اشتريتها بنفسك ؟ » كان يصيح كي يعلو صوته فوق المطر الذي بدأ يهطل من جديد . أوجع الجهد رأسه ، لكنه لم يكفّ .

« أنا غير مرتبة ، ان كان هذا قصدك » .

« لست أنا الذي يقول ذلك بالتأكيد » .

« أنت لا تستطيع الاستغناء عني » .

« لا جدال في هذا » .

« اسمع . أنا لم أنم إطلاقاً ، وعليّ الذهاب الى العمل ، فاحتفظ بإهاناتك حتى عودتي » .

« النساء كلهن في هذا البلد اللعين متلفهات حد اللعنة للإهانة » .

حاشرةً نفسها في ثوب ضيق ، ومتمعجةً مثل سمكة محصورة . راقبها ساجو ، لكنه لم يستطع أن يضحك لأن ذلك يؤلم رأسه . امتدت يد دهينوا الى مقبض خزانة الملابس ، وسحبت الباب ، . حاجبةً أي منظر آخر عن ساجو . دار باب الخزانة قربه ، فانكمش ممتعضاً .

«لم تجيبي عن سؤالي . هل دفعتِ لهذا الشيء الفظيع ؟» .

«هذا صحيح . تمدّد فقط ، وتابع وخزي بالإبر» .

آنذاك فقط تذكر ساجو النساء . عادت الصورة إليه ، بطيئة ، حتى اللحظة التي سقط فيها ، وأَعْتَمَ العالم حوله . استعاد ، ببطء ، وصحو ، تلك اللحظة ، مستغرباً الآن من المأزق الذي وضع دهينوا فيه ، وشاعراً بأنه مذنب الى حدٍ ما . قال بمنتهى الحذر «أظن أولئك كانو أهلكِ ؟» .

«لا . كانوا ساحرات مصاصات دماء من بلدتي . ترى ماالذي دفعك الى الصراخ ؟» .

«أنا... لا أدري... لقد أفزعوني حقاً ، وبخاصة تلك التي تشبه كائنات العالم الآخر» .

«تلك كانت أمي ، والآن اخرس» .

«أوه... قصدت فقط...» .

«لا أهمية لما قصدت» ، ولطمت قطيفة البودرة بدلا من مجرد التربيت بها على وجهها . تطايرت البودرة ، واستقرت في شعرها ، وهبطت بكثافة على ثوبها الداكن . «أرأيت الآن ماجعلتني أفعل ؟» .

«أنا لم أجعلك تفعلين أي شيء . لكنني آسف ، إن كان هذا يساعد» .

سأل الآن بلطف اكثر : «أكان هناك إزعاج كبير ؟» .

لم تجبه بالمرة . مال خارجاً ، محاولاً لمسها ، لكنها ابتعدت : «حسناً ، أخبريني في الأقل ، هل سببوا إزعاجاً ؟» .

ذهبت الى خزانة الملابس ، وأغلقت الباب ، فَخَدَشهُ قليلاً في ذراعه الممتدة . دهشت لشدة إجفاله ، وظلت هناك ، حائرة الآن .

«ما بك ؟» .

«لا شيء . فقط تلك الخزانة اللعينة» .

«ما فعلت الخزانة بحق السماء ؟» .

«ماذا فعلت ؟ يا إلهي الكريم! تقصدين انك لا تستطيعين رؤيتها» .

«يجب ان اذهب الى العمل» .

«لا . لا . انتظري . وإلا أقسمت لآخذنها الى الخارج وأحرقها قبل عودتك» .

«افعل ما تشاء . انها لن تحترق في المطر» .

«بكل ذلك الزيت الذي يتقطر منها ؟ لكن أخبريني الحقيقة الآن . ألنت مرغمة على العيش معها ؟ أكانت هدية من عمتك او جدتك فلا تستطيعين رميها بعيداً ؟» .

«لقد اشتريتها» ـ كانت ساخطة فوق الاحتمال «أما إذا كنت تكرهها ، فاحتفظ بما تكرهه لنفسك» .

«المرأة عمياء... لكنك قادرة على الاحساس في الأقل . أنت تفتحين الباب ، أليس كذلك ؟ يجب ان تكوني لمستِها مئات المرات ، أم أنك لا تجفلين من جلد السحلية ؟» .

«شكراً . أظننا عدنا الى الاغنية العتيقة . انت لن تدعنا ننسى انك كنت في اميركا وعرفت الاثاث المستقبلي» .

«هذا ليس حتى مسألة طراز . كيف تطيقين ملمس المقبض ؟» .

«المقبض ؟ لكن ذاك أفضل ما فيها» .

«إذن يجب ان تكون حواسك متجمدة ، مثل ذلك الشيء الكريه . بأي حق اردت ان تشتري مقبضاً من أزهار حجرية ؟ وانظري الى الطلاء ، قلت لك انني سأمرض» .

«نعم . انت شربت كثيراً ، البارحة» .

وانتقاماً منه ، صفقت الباب ، بشدة ، عقاباً له على عقابيل سكره .

من الطابق الثاني شعر بهدير محرك السيارة ، عميقاً في مسامعه المخرشة . لكنها الآن ليست سيئة جداً ، إذ أن رعب الخزانة شلّها شللاً جزئياً .

مرةً ، في سييتل ، في ساعات الصباح ، وبعد حفلة رقص صاخبة ، راقب ساجو حصاة بطيئة الحركة قذفتها سيارة على مقدمة سيارته . خفض رأسه غَريزياً . لكن الحصاة اخترقت زجاج سيارته واصابته في صدغه الأيسر . تشقق رأسه فوراً ، كما كان زجاج السيارة ليتشقق ، وانتطر ، موجعاً ، ان ينهار البناء كله . لكن الجمجمة ظلت سليمة ، انفصلت وطفت وهي تدور وتدور حول مخه منتظرة الإمساك بالقطع الرمادية حين تبدأ تتبعثر .

ساجو وجد الانتظار لا إنسانياً . مثل الرجل الساكن في الشقة السفلى ، بانتظار أن تسقط فردة الحذاءالاخرى . همد نائماً ، وأفاق في خندق .

تصلّب ساجو فجأة ، منتظراً ان تعبر لحظةٌ رديئة حقاً... دوّامة وحلٍ وسط النهر... مرةً ، الروتين الاستثنائي لليلة بوربون... أنتهي كما بدأتُ ، على الصخور ، غمغم ساجو... اما خزانة الملابس هذه ، فقد فكّر بصنعها غولٌ ملهم .

كانت قطعة الاثاث المكربة على شكل قلب . رخيصةً ومثقلة بالطلاء الذي يبدو أنه يسيل باستمرار . أعلى القطعة لابأس . القلب يكمل انحناءة رأسه الطبيعية باتجاه السقف ، لكن حين تنفتح الأبواب تكشف نهاية مسطحة تُخزن فيها الحقائب وصناديق القبعات .

ذلك الصباح كان هناك صندوق قبعات . شعر بالراحة للصندوق . ومن العجيب ان صندوق القبعات جعله يفكر بـ« سير » معين ، وانعقد حاجباه وهو يحاول ان يتذكر من يكون الرجل . دوّخته المحاولة ، فهوى ثانية على الوسادة ، والعرق يتفصد مثل حبّاتٍ نامية على جبهته . ود لو ان دهينوا لم تتركه وحيداً ، كانت مزعجة لكن لديها يدين لطيفتين... آها ، سير درينولا ، ذلك كان اسم رئيسه .

أدار رأسه ناحية صندوق القبعات ، وغمز له . سير درينولا ، بالطبع ، هذا هو أنت .

ضاقت الغرفة أكثر ، وغشيتها عتمة كاملة ، ورأى ساجو ان نظرته ستسقط على أديم الخزانة الكريه .

سلام ، يا سير درينولا ، سلام . أوه ، لكنك سحلية ، يا سير درين ، ان جلدك اجرب بالرغم من انك تفتح عليه حنفيات ابدية من الزيت الزنخ .

بدا واضحاً انها اللحظة التي يتم فيها احتواء الفارس المميت . اوه ، انه ميت اخيراً ، بقبعته وشعره المستعار ، كان سير درينولا ميتاً . الستارة اندفعت الى الداخل ، وظلت فوقه ، مثل شراع منفوخ ، وقد أثقلتها في مكانها ريح رطبةٌ . لم ينهض ساجو لإغلاق النافذة ، كان المطر منعشاً ببرودته ، وسقطت على شفتيه بضع قطرات لعقها بشهية .

خفقت الستارة في طرفها ، وشرعت تداعب صندوق القبعات الذي ظل على حافة السقوط . وتذكر ساجو صوراً صحافية عن السير درينولا وهو معتمر قبعة عالية ، صوراً التقطت له وهو يتمشى في حديقة سان جيمس ليتسلم رتبة فروسيته من الملكة .

قال ساجو بصوت عال : «لا . لايمكن ان ينتزعوا ذلك منك ، يا سير درين . سوف يدفنونك مع الفروسية . لكن القبعة العالية . لنر . القبعة العالية الآن . ماذا ترانا فاعلين بالقبعة العالية ؟ إلا إذا استعملت ، بالطبع ، شعرك المستعار المتقاعد » . وضحك ساجو مع نفسه ، مستعيداً الآن كيف كان سير درين يلقب بـ«المشرحة» .

الريح ومبذل دهينوا ربحا في آخر الأمر . ظل صندوق القبعات في مكانه ، لكن باب خزانة الملابس برزت الى الخارج ، ببطء شديد شديد ، وخرج الفارس الطيب نفسه ، عارياً إلا من مَنْهدة دهينوا على صدره . شعر ساجو فجأة بالحشمة ورفع صوته على المطر .

«سير درين ، ماذا تريد ؟ تبدو في وضع غير لائق!»

كان «المشرحة» رزيناً : «أوه... انت مخطىء ، ألست كذلك ؟ انت جد مخطىء ياسيدي . فهمت انك تعني ذلك ، أليس كذلك ؟ في الحق ، ليست سوى دودة» .

«أنا أحتج ، يا سير درين . هل يتصرف كل الرؤساء الضجرين هكذا ؟ ثم انك كنت قاضياً في أحد الأيام» .

«لا تذكّرني . هؤلاء السياسيون لايمكن ان تثق بهم أبداً . آه... كم خانوني» .

«أَفَعَلوا ذلك ؟» .

«أنتم ، الشباب ، لا تعرفون شيئاً . لكن ، لايهم ، لايهم ، حين يقدّر لك ان تقود البلاد... اوه... دعنا من هذا . ألديك فكرة عن الكيفية التي سيتم فيها دفني ؟ انت تعرف مشاعري ، طبعاً» .

كان ساجو عنيداً : «يجب ان تعود . البس شيئا في الأقل . استر نفسك . أو تخلّص من هذه الدودة المعلقة بأصل فخذك» .

«ماذا تنفعني الملابس الآن ، أيها الشباب ؟» .

أومأ ساجو برأسه : «هذا حق ، يا سير درين ، لم تكن لتستعمل الملابس في يوم من الأيام ، كثيراً» .

«بلى . وحتى الآن لا استطيع ان أغيّر مبادئي . الثوب لا يصنع الرجل . أتعرف ان الصحافيين مايزالون يتمثلون بقولي هذا ؟» .

حشر ساجو أصابعه في أذنيه : «لا تستمر يا سير درين . أنت تنسى انني كنت هناك» .

أومأ «المشرحة» برأسه ، آسفاً : «بالطبع انت كنت . كنتُ أرى العديد منكم ، وكيف لي ان اتذكر من هاجمته هذا اليوم ، ومن هاجمتُه في اليوم التالي ؟ لكني آمل في ألا تحمل عليّ ضغينة . لقد قمت بواجبي تبعاً لاستضاءاتي» .

تغاضى عنه ساجو مدندناً .

« ومع هذا ، ألم أؤدّ الحساب ؟ حين جاء الحزب الآخر الى السلطة طردوني .

أوه ، أعرف أني استقلت ، لكن ماذا كان بمقدوري غير هذا ؟ وكل اولئك الشبان يخلفونني! » . أخذ « المشرحة » يضحك ضحكة جوفاء غريبة كان لها وقعٌ مهدئ في فصوص سكر ساجو المسلوخة . « أقول لك ، لايمكن لك ان تقمع انساناً طيباً . لقد حصلت على رتبة فارس . لهذا أنا اظل ارتدي المنهدة » . اعترف ساجو بأنه لايرى العلاقة .

« ومن أجل الاوسمة ايها الشاب . الأوسمة . انهم يعلقون شيئاً على صدرك حين يمنحونك رتبة فارس ، كما تعرف . وانا احتفظ برتبة الفارس » .

« سير درين . عليّ أن أوبخك على ذلك . كيف يكون الوسام منفصلاً عن الثياب ؟ » .

« أيها الشاب ، لاتحاول أن تطرحني أرضاً بتلك النقاط القانونية . انا اعرف قانوني . وزملائي القضاة يعترفون بهذا . لو ان اولئك السياسيين فقط لم يقودوني الى الضلال... » .

« انت تخطئ فهمي ، أيها الفارس الطيب . كنت اعني فلسفتك ، مثلاً ، هل الشعر المستعار صنع منك قاضياً ؟ » . أجفل « المشرحة » ورقصت ذرات الرمل ناعمة في محجريه الفارغين ، عيني القاضي .

طارده ساجو ، قاسياً بعض القسوة : « إذن ماذا سيصنع منك وسامٌ ؟ » .

وقف « المشرحة » صامتاً ، وقتاً طويلاً ، وهو يعبث بنهدي المنهدة أسفل حنكه . في تلك اللحظة ، كان يناسب لقبه تماماً ، ذلك اللقب الذي أستحقه من جوه الفجائعي ، حين كان ، وهو رعب المحاكم ، يعلق نظارتيه بأدنى انفه ، ويحملق من عل في السجين . كان صوته يأتي فجائعياً كالقبر .

« لكنهم أخذوا كل شيء آخر ، كل شيء... » .

قال ساجو : « كان ذلك خيارك » .

فجأة غدا «المشرحة» بالغ الاحتراس ، وتنبهت نظراته الى حضورٍ معاد «أوه ، أوه ، هناك من يراقبنا» . واندفع داخل خزانة الملابس .

هنا راقب ساجو دهينوا تفتح الباب .

«مع من كنت تتكلم ؟» .

«كنت أصلّي» .

قالت : «كنت كمن يتكلم مع شخص ما» .

«ربما مع نفسي» .

«أنت مريض» .

«أعلم ذلك . هذه الخزانة أمرضتني» .

أخذت تبحث في أحد الأدراج ، وهي تتقطر ماءً . تتبعها بعينيه ، متعجباً مما يتآكلها . فجأة سحبت السرير اليها ، وانحنت عليه . صرخ ساجو ، فزعاً ، فزَعاً حقيقياً : «لا تلمسيني!» .

انحنت عليه ، وحدقت في الفراغ بين السرير والحائط . قلّص ساجو نفسه في عقدة .

«يا إلهي ، أكان عليك أن تباغتيني هكذا ؟» .

لكنها دفعت السرير إلى موضعه السابق ، وحين ارتطم بالجدار بعث الارتطام قشعريرةً فيه وهو بملابس النوم .

«قاتلة! قاتلة!»

وقفت الآن ، وهي تنظر اليه ، فقط : «أليس من الافضل لك ان ترى طبيباً ؟» .

«لا أشكو شيئاً . اذهبي فقط» .

«لماذا كنت تصرخ ؟ أظننت اني سأهاجمك ؟» .

«هل ظننتُ ؟ وماذا كنت تفعلين ، منذ الصباح ، غير مهاجمتي ؟ انظري الى يديّ... انظري اليهما» وبسط يديه الى أعلى .

«إنهما ترتجفان . وماذا توقعت بعد إسراف البارحة ؟» .

«ليس لهذا علاقة بالبارحة . انت تصفقين السرير على الحائط . تنتظرين حتى يكون رأسي في مدخل الباب ثم تغلقين الباب اللعين ، تسيرين على كل مسامع سكري بقبقابك الخشب... لم لاتأتين ببلطةٍ وتغمدينها في جمجمتي ، ايتها الملعونة! ، كان يبدو متألماً ، وفكرت دهينوا ان الرجال هم مثل الأطفال تماماً . إنهم لا يطيقون مزيداً من الألم . جلست الى جانب السرير ، ووضعت رأسه في حضنها ، وقد غدت بالغة الرقة فجأة . ساجو الذي استسلم لها اولاً ، أخذ يشعر بالخجل من ضعفه . «اذهبي» وخطف رأسه بعيداً «لم عدتِ بحق الجحيم ؟ إن أردت معانقتي فجففي نفسك في الأقل» .

أدهشه رد فعلها ، ذلك لان الدموع انبجست ، بغتة في عينيها .

ولكي تخفي دموعها اخذت تبحث في الغرفة ثانية ، بشدةٍ لم تبينها سابقاً .

« أممكنٌ اني قد اكون رأيت ماكنت تبحثين عنه ؟ » .

« ملف . جئت به الى البيت أمس » .

« ملف دائرة ؟ » .

« لا . ملف سرقة » .

« لاحاجة الى ان تكوني ساخرة هكذا حد اللعنة . أخبريني فقط إن كان يحمل علامة (سري) ؟ » .

« أرأيته ؟ » .

« لا . انني استبصر » .

« ارجوك ياعزيزي... » .

« إنه تحت مقعد السيارة الأمامي » .

« لكن... » .

« أنا وضعته هناك ، بنفسي . نظرت فيه وأنا أنتظرك خارج الدكاكين . وكدتِ تمسكين بي متلبساً ، فقذفته تحت المقعد » .

نظرت إليه وكأنها حائرة في طريقة قتله . سخر بها قائلاً : «لم أجد فيه الكثير ليس كافياً لإثارة فضيحة صحافية» .

وتصلب ساجو من رأسه حتى اخمص قدميه ، لكن هذا لم ينقذه . فتحت الباب على مصراعيه ، حتى أقصى انفتاحه ، وهي في أقصى الحبور . تركته ينتظر وينتظر وينتظر ، ثم صفقت الباب بشدة مستخدمة كل قوّتها ، قاذفة رأسه بين قارنتي قطار يتحوّل خطُه . امرأة كهذه... عليك ان تضربهن حتى الموت... ونسي ساجو ضعفه فوثب خلفها ، ليتهاوى في اول خطوة على خزانة الملابس . تشبث بها لينقذ نفسه فلم تقع يداه إلا على ذهوله ، مما جعله يرتدّ بسرعة الى وراء ، مستغرباً من ان جسده الذي عرفه جيداً خذله مثل هذا الخذلان . المعتاد ان الرأس فقط هو الذي يسبب الخراب . في الحالة التي تمنى انه كان فيها... تسلق مرة الى نافذة طابق ثالث حين كان طالباً ، مستعرضاً أفاريز النافذة ، حتى أنزلته ، بعد ان ظُنت به الظنون ، فوّهة مسدس أسود لشرطي نيويوركيّ . قال : «أنا أحاول الوصول الى غرفة نومي» . ابتسم الرجل بدوره : «بالتأكيد ، بالتأكيد . فقط انزل بهدوء أيها الزنجي» .

طلع سير درين ثانية ، ذلك الصباح ، بعد نومة قصيرة جعلت ساجو اسوأ مما كان . رآه ساجو يطلع متراجعاً . وكانت رجرجات مؤخرة الفارس الطيب مضحكة جداً ، بحيث اطلق ضحكة صارخة ، ودفع غرامة فورية في رأسه مع الإحساس بالقرقعة القديمة لزجاج السيارة الامامي .

استفسر «المشرحة» : «أكانت تلك سيدتك الشابة ؟» .

لم يكن ساجو يريد مزيداً من المحادثة ، ولهذا تظاهر بالنوم .

كان صوت الفارس مثيراً للشفقة : «ألا تريد التحدث معي ؟ أنت تعلم انك صديقي الوحيد» .

«أنا ؟ صديقك ؟» .

«أجل... آه... لا عليك من الماضي . الحق... اعتبر الماضي قدر ما

تستطيع . أنت كنت صديقي . أنت تقول لي الحق في الأقل ، وهو أمرٌ اخذ يصير هاماً مؤخرا . لم يكن في تلك الأيام وقت كثير للحق... أليس كذلك ؟ » .

« نعم . أخشى أنه لم يكن وقت » .

« الآن لم يتبق لي إلا الحق . كل ما أفعله الآن أن أراقب بقيتكم ليل نهار . هذا هو السبب... انتظر ، فقط أريد أن أخلع هذه » . خلع المنهدة : « هل رضيت الآن ؟ » .

« وما شأني أنا ؟ تذكّر أنها فلسفتك . صادف أني أحب الثياب » .

« كنت محقاً . انا راض الآن . لا تدعهم يدفنوني إلا كما أنا الآن . حتى ولا كفن » .

« أفهم ما تعني . الكفن لا يصنع الجثة » .

أومأ سير درين برأسه بكل حكمة ، غارزاً محجريه عميقاً في الدُّرج .

من الصعب ان يفكر المرء بالسير درينولا ميتاً . حين وقف أمامه ، للمرة الاولى ، طالب وظيفة أمام هيئة مقابلة ، كدّره الفارس ، ببراعة مثل سيد مهذب .

والأمر غير القابل للتصديق ، ليس فقط حصوله على الوظيفة ، وانما البقاء فيها حتى اليوم . لم تكن المسألة مجرد السير درينولا ، انما كامل صحيفة الرأي المستقل وقفت ضد رغبته . باستثناء ماثياس المراسل ، بالطبع . ان كان ثمت من بشير فهو ماثياس . وبعد ان حصل على العمل ، ظل ماثياس يحقق معجزة بقائه خلف منضدته ، كان مثل الكلب الذي يسترد الاشياء ، معيداً ساجو ، بعناد ، الى قدمي التناسب . او ، وبدقة تامة ، أن ساجو أخذ ماثياس ، سجنه ، وقال له ، الآن أيها الوغد ، أعدني ثانية الى قدمي التناسب .

ولكي يحتفل ساجو ـ ذلك لأن ماثياس هو الذي جعله ينتظر المقابلة ـ أرسل ماثياس ليأتي ببيرةٍ في أول يوم من أيام عمله .

« أغلق الباب ، يا ماثياس » أخذ القناني منه وملأ الابريق . « خذ القنينة

الأخرى» . قال ماثياس متأثراً «شكراً ، يا سيدي» واستدار ليذهب . «أين تظنك ذاهباً ؟ اجلس هناك ، اخشى ان عليك ان تشرب بيرتك من القنينة ، فلديّ ابريق واحد فقط» .

«أذهبُ لأشرب بيرتي في الكانتين» .

«لماذا ؟ أردتك أن تشرب معي . أم أن حضوري يفسد مزاج شرابك ؟ انا اعرف انك شديد الحساسية» .

احتج ماثياس بحبه صحبة ساجو .

«في هذه الحالة ، لا تجلس على حافة الكرسي : خذ راحتك . ما بك ؟ أريد أن أتحدث معك» .

«أحيانا يريدونني في مكتب آخر . إن عمل مراسل في مكتب صحيفة ليس له وقت محدد» .

«باعتباري جديداً هنا ، يجب أن يعلمني أحدهم الخيوط . صحيح ؟» أومأ ماثياس برأسه . «حسناً ، أنا أريد ان أحتكرك هذا الصباح لذاك الغرض . اشرب يا ماثياس» .

«نعم ، سيدي» ، وأطاع ماثياس ممتثلاً .

«وأرجوك أن تتوقف عن إجابتي بـ (سيدي)» .

«نعم ، يا سيدي . أوه... أنا آسف» .

«حسناً ، لكن لا تنسَ» .

«نعم ، سيدي» .

أجفل ساجو ، فضحك ماثياس ضحكة غير واعية . «عليك بالصبر ، ذلك لأن هذه المسألةتأخذ وقتاً طويلاً ، يا آغا» .

تناول ساجو حقيبته . وسحب منها مجلداً . «الآن يا ماثياس ، أنت أفضل ما حصل لي منذ عدت الى البلد . ولولاك ما حصلت على هذا العمل ، ولو أطلتُ البقاء فيه فسيكون هذا بسببك» .

«كيف ، يا آغا!» .

«هذا ما أريد ان أشرحه لك . انت ترى : انت وانا روحان شقيقان» .

«روح ؟ لا ، يا آغا ؟» .

«ماثياس ، لا أستطيع أن أقول لك ادعني (بيدون) ، لأني أومن بمقتضيات العمل الى حد ما . لكن الآغا هذه سيئة مثل نعم سيدي» . نفد صبر ماثياس قليلاً «لكن ، آغا ، كيف ندبّر هذه الآن ؟ كيف أدعوك ؟» .

«تكفي... سيد ساجو» .

«حسناً ، سيدي» .

«كما كنت اقول يا ماثياس ـ أوه ، نعم ، أردتَ أن تعرف ما هو الروح الشقيق . حسناً . يعني الأمر ببساطة ، اننا ، حسناً ، لنر ، آه... نعم ، يعني أننا نرى الامور بالعين ذاتها» .

«آها...» .

«أتذكر ما حدث حين جئتُ للمقابلة ؟» .

«ماذا ، آغا ؟» .

لم يجب ساجو مباشرة ، وفجأة اتسعت عينا ماثياس : «تعني شغلة المرحاض تلك ؟» .

«بالضبط» . فتح ساجو المجلد أمامه «ولكي أشرح ما أعنيه ، أريد أن اقرأ لك قسما من كلمة هامة جداً كتبتُها ايام تفلسفي . سأقرأ لك قليلاً منها كل يوم ، مادمت هنا . وإن كانت لديك أي اسئلة ، فباستطاعتك ان تسأل . والواقع أننا لو اهتدينا ، فسوف نعقد مجموعات مناقشة» .

«نعم ، سيدي» .

«كان المؤمل ان تصبح جزءاً من اطروحة . لكن أساتذتي ، لسوء الحظ ، لم يتقبلوا موضوعي . اعتقد انهم رأوه معداً لقلة محدودة . انا بحاجة الى صديق ، ياماثياس ، فمنذ جئت الى هنا وأنا أشعر أنني أحمل روحي على راحتي . لكننا حين نقرأ هذا المنشور يومياً ، أنت تعرف ما أعني ، أي حين تجعله كتابنا المقدس ، فسوف يمنحنا القوة والعزاء . أنت مثلي ، رجل متدين ، ثقة ؟» .

أومأ ماثياس بوقار ، واشار ساجو الى قنينته « اشرب ياماثياس . انها تعينك . تجعلك في مزاج متقبلٍ» . شرب ماثياس ، طائعاً ، مختلساً النظر بعين واحدة الى الباب ، متعجباً . أعاده صوت ساجو : «أنت ترى يا ماثياس . انك افراغيّ ، بالغريزة...» .

« ياسيدي ؟ » .

« إفراغيّ ؟ آه... لا يهم . ستفهم كل شيء بعد بضع جلسات . لا تتعجل » .

« أنت طبيعي . المسألة فقط ان تمسك بأساسيات المنظومة . لكنك ، روحياً ، فعلاً هناك... يا صديقي » .

« آغا . انتظر قليلاً . بدأت أتشوش » .

« لا صعوبة في الأمر يا ماثياس . استمع وستفهم فلسفة الخراء » .

ابتسم ماثياس ابتسامة عريضة ، وتنحنح ساجو .

« ... عن المذاهب اترنم ترنيمة جنائزية ، اليوم ، من الماركسية الى الوجودية . وان كنت شخصانياً ، فلأنني حين أقدم تاريخ نفسي . فلا افعل اقل او اكثر من الكشف عن تطوري الفلسفي ، ذلك لأن هذه طقوسية لست مديناً بها لسابقٍ إلا عالم الانسان بأجمعه ، وهذه رؤيا لا أعترف لها بقضية سوى قوانين الطبيعة غير القابلة للتغيير . إن كنت شخصانياً ، فلأن هذه يجب أن تعد أكثر الفلسفات باطنية في الوجود الانساني . وسواء كانت الافراغية وظيفية او روحية او ابداعية او طقسية ، فإنها تظل الفلسفة الصادقة الوحيدة للأنويّ . ايتها السيدات ، ايها السادة ، يكفي هذا من اجل التعريف .

الإفراغية ليست حركة احتجاج ، لكنها تحتج : انها ليست ثورية ، لكنها تثور ، الإفراغية ـ إن شئنا القول ـ هي الكمية المجهولة . الافراغية هي آخر منجم لم ترسم خارطته بعد ، للطاقات الخلاقة ، وفي مفارقته يكمن جوهر الطقس الخلاق ـ وحين ينطلق تكون الولادة . لستُ المخلِّصَ المنتظر ، لكني لا استطيع الا ان اشعر بأني مولود لأحقق هذا الدور ، ذلك لأن في الطبيعة

الوراثية لعلتي تكمن العلائم الأولى لشهادتي ومجدي المحتوم . ولدت بمعدة عاطفية . حين أغضب تتمرد معدتي . حين أجوع تثور . حين أضايَقُ تردّ . وحين أُحبَطُ تُهزَم . انها تسيل مع القلق . وتنقبض مع التوتر . ترتاب في الامتحان ، وتراوغ في الحب . ياأصدقائي الطيبين ، للنبي شرفه... غالباً ما جرى التشكك في أنني أتهرب من الواجب ، وكان العقاب سريعاً . وأشد أعراض المعدة العاطفية تتلازم والشعور القوي بالظلم . مؤثر آخر على تشكُّل انكفائي الإفراغي كان : عمة حبيبة طفولتي ، التي تزور بيتنا بين حين وآخر . كانت تضرط مثل وحش . والأكثر إضاءة هنا كانت امي المبتلاة بالبلوى ذاتها . كانت ضرّاطة شديدة التدين . وكانت تدّعي ، حتى وهي على حافة القبر ، ان صوت الله كان ريحاً لم تفتأ تكلمها في اي حين بعد صلوات العشاء . واستدعت اهل البيت شهوداً ، فقالوا : آمين . مفهومي عن منزلة الصلاة يجب ان يبدأ ، إذن من تلك الأيام ، حين لم يكن سبب لجوئي الى المرحاض ضرورة طبيعية ، بقدر ماكان هذا اللجوء ضرورة نفسية ، ودافعاً دينياً . اود القول انه منذ تلك الفترة من حياتي بدأت أكرس نفسي كي ادرس بصورة منهجية وموضوعية ، السلوك الهضمي للطفل الحساس... » .

توقف ساجو ، ونظر الى ماثياس وقد تدلى فكه ، فأطبق المجلد .

« ها هي ذي مادتنا كلها لهذا اليوم ، يا ماثياس . وهكذا انتهى درسنا الأول » .

قال ماثياس بصوت مخنوق : « نعم ، سيدي . اشكرك جزيلاً ، سيدي » ، وترك ساجو مع اطروحته ، ممسكاً قنينة بيرته براحة واضحة ، مقنّعاً تلهفه الى المغادرة .

... ساجو ، وهو بانتظار الموافقة الكاملة من هيئة المقابلة ، قام بجولته الاولى في المبنى . لقد تم اختيار المنطقة ، حسب ما قاله ماثياس ، لأسباب استراتيجية سياسية صرف . اية مدينة صاخبة لها احياؤها الفقيرة ، وتمثل ايسالي ـ ايكو انتصار العاصمة الافريقية الحديثة على الشعوب الأوروبية في

هذا الجانب من الحضارة . قلة من الاجانب الباحثين عن اللون المحلي المتنحي يجدونه دائما في ايسالي ـ ايكو ، وهم إذ يتجرأون على التجول في متاهتها السوداء يعترفون بأن تجربتهم كانت فريدة . ثمت لعبة الحجلة بين اكوام القمامة ، وضعاف القلوب يجدون طريق تراجعهم مغلقاً بسبب الوحل الناتج عن طسوت ربات البيوت ، صحيفة (الرأي المستقل) تمتلك مبنى كبيراً في الحي ، الصحيفة نفسها كانت صحيفة حزب ، وكان مقرها يعني رعاية سهلة للشقاة المحليين ، وكان حي ايسالي ـ ياكو يعجّ بهم .

شرح ماثياس الأمر : « لايمكن اجراء اي تعديلات من الداخل في بيوت الآجرّ . الحائط يتداعى الى الأرض ، وتبدو المرأة حتى البدينة عجفاء إزاء الحائط المتداعي ، لابيوت خاصة هنا ، ولهذا يهدمون الحائط ، ويحولون البيت الى مكتب » ، وانطلق لمدة دقيقة كاملة في ضحكة هدّارة .

نظر ساجو خلال النافذة الخلفية . الجدار يهبط عمودياً في قناة توصل الماء الى البحيرة . هذا الماء كان راكداً . مسدوداً ، وقطع روث وغائط كبيرة تطفو في دوائر متعفنة ، وتصطدم بالجدار . التفت الى ماثياس : « كيف تعمل في هذه النتانة ؟ » « آه... كل واحد يقول هذا في اول الأمر . لكن انظر إليّ الآن ، انني أزداد بدانة بسبب النتانة » .

طلب منه ساجو ان يريه الكانتين . دفع ثمن القهوة لكنه لم يستطع أن يشربها .

كان نصفا الفنجان ملتصقين بالوسخ المتراكم في شرخ عميق . وكان من الصعب معرفة السبب الذي أعطى الكانتين هذه النوعية الخاصة من الرائحة . ثمت الماء المزيّت الذي غطست به أطباق غداء أمس ، أو الفتاة المتصببة عرقاً التي تخدم الموظفين وهي في غيبوبة ، إنها في الثامنة عشرة على أكثر تقدير ، وتشي حركاتها بأنها غارقة حتى الركبة في المناشف الصحية ، وقد ظلت منسدّة طوال الأيام الثمانية والعشرين لدورتها الشهرية . تبدو اجفانها ملتصقة بسرّتها ، حركتها الدخيلة الوحيدة كانت في مسح جبينها بذراع

تكشف ابطاً مبقعاً بالأسود والأبيض . البودرة والسخام . كما أن وجهها المبيضّ يؤكد تنظيفاً يومياً بالبودرة . وليس البتة بالماء .

في نزوةٍ ، سألها ساجو : « هل رددتِ على الهاتف مرةً ؟ » .

« ايه ؟ » .

« سألتكِ ، هل تكونين احيانا عاملة الهاتف ؟ » .

« أنا... بنفسي ؟ » .

« نعم ، هل تشتغلين ، أحياناً ، على... أوه ، لا تهتمي » .

وترك ساجو الأمر يائساً . إذ كيف له أن يخبرها بأنه حين اتصل بالصحيفة ، مرتين ، رفع ذلك الماء الراكد سماعة الهاتف ، وأن الصوت المخوّض الذي سمعه من الطرف الآخر يثير صوت الطرطشة اياها ، مثل ابطيها اللذين يشبهان مفاتيح البيانو .

لحق بماثياس عند الباب : « آغا . لاتبتعد كثيراً » .

« إنني مغادرٌ يا ماثياس . لا أستطيع أن أنتظر ، أكثر مما انتظرت ، أعضاء هيئتك » .

« آه . آغا . لاتفعل هذا . انهم يأتون الآن الآن . والحق ان الزعيم ونسالا دخل . ولم يبق بعده إلا شخص واحد » .

قفز الاثنان ، حين تعالى مع طنين الآلات صوت مفاجئ هـ رـ رـ ر ، ثم جمد ساجو في مكانه بفعل صوتٍ مخنوق ، كان الصوت آتياً من ناحية زاوية موظفة الاستقبال ، لكن لم تعد هناك موظفة استقبال ولامنضدة . وبدلاً من الاثنتين رأى ساجو خيمة داخلية وعليها عبارة (الاستقلال النايجيري١٩٦٠) ، نظر مندهشاً إلى ماثياس ليعرف جلية الأمر ، لكن ماثياس كان مشغولا بالضحك مع نفسه . الصوت جاء ثانية ، صوت جارح ، وفي هذه المرة رأى ساجو حد سكين مكتب يشق خطاً مستقيماً تحت جزء متوتر من القماش ، وبرز رأس انثوي خلال الخيمة المزيفة ، لاهثاً واهناً (النجدة ، إنه يخنقني) . وقف ماثياس والصينية ذات فنجاني القهوة في يده ، هاتفاً (او ـ كو ـ كو ـ كو

ـ و) ، ومثل ملابس تنكرية تسقط على الأرض ، انقذفت الخيمة بغتة إلى وراء ، ورُميت قلنسوة صياد وقد مال جيبها على جبهة عالية ، على ارتفاع أقدام من الأرض .

« أين العاهرة ؟ » طالب الزعيم ونسالا ورداؤه الفضفاض يخفق على الطاولة « كانت هنا للتو . لقد أمسكت بها » ، وطفق يتحسس اثوابه ، لكنه أخفق في القبض على موظفة الاستقبال المدفونة .

مثل روح معتوهة شرعت الفتاة تصارع الطيات من جديد ، ومبتغاها الوحيد أن تبقي رأسها في الهواء . سُمعتْ هر ـ ر ـ ر ـ رـ أخرى أكثر تمزقاً وطولاً ، بينما وجدت يداها الشقّ الأصلي ، وطار كمٌ من رداء ونسالا ليوم الاستقلال ، طار منفصلاً عن الرداء تماماً .

« ها هي ذي ، العاهرة المراوغة . هيا ، تعالي يا ابنتي » . لكن موظفة الاستقبال لم تُمسَك ، وتحركت طيات من القماش لتلفّها ثانيةً ، تقاصرتْ تحت الطاولة ، ومرّت ، سالمةً ، بين ساقيه ، ولم يرها أحد ، بعدُ ، في العمل ، ذلك اليوم .

« مَن العملاق ؟ » .

« إنه الزعيم ونسالا الذي ذكرناه الآن . هو والقنينة ، مثل داود وجوليات » كان في حالة عشق كحولي عميق ، لكن بالنسبة لرجل في وضع سكره الشديد ، كان الزعيم ونسالا يتمتع بتوازن مرقوق . تأرجح إلى الوراء هابطاً إلى أقصى مايستطيعه لاعبٌ متباهٍ في عرضٍ عامٍ ، وقد اضفى وزنه على العرض تأثيراً أشد . اقترب ماثياس منه : « يا زعيم يا زعيم... لم أعرف أنك تفعل هكذا » . لكن ضربة قصيرة ثقيلة على الظهر قطعت كلام ماثياس ، فاندلقت القهوة في الصينية .

قال الزعيم بعد أن أفاق من حبوره لإجفال ماثياس : « ما بال تلك المرأة ، اليوم ؟ » « يا زعيم . إنها موظفة استقبال جديدة ، وهي لم تعرفك ، بعد » .

« موظفة استقبال جديدة ؟ لاعجب » ، وراح في نوبة كرسي هزاز أخرى . وانضمّ إليه ماثياس مغتنماً الفرصة .

« يا آغا . اندلقت القهوة وانتهت . ماذا أقول لمصحح البروفات ؟ » .

كان يعرف رجله . نقّب الزعيم ونسالا في مخابيء جيبه العميقة واخرج حفنة نقود .

« أنت وغد سافل ، ياماثياس . اذهب واشتر قهوة لكل رجل هنا ، وكل امرأة . اشتر للنساء قهوتين مع لفّات سجق . هيا . امش » .

جاء دوره بعد نصف ساعة ، وفكر ساجو ـ كم هي محقة دهينوا تلك في بعض الأحيان... اننا نحتقر المجرم الصغير فقط . الغرفة التي أدخل فيها تصلح أن تكون قاعة حفلات . سجادة وثيرة تغوص فيها الأحذية التي لايزيد ارتفاع نعلها على ثلاثة انشات ، على النقيض من المبنى الذي دُعِّم بسرعة كي يجوز على الفحص الثاني لمفتش مُرتشٍ بالحي . غرفة الهيئة كانت عالماً مختلفاً ، يتناقض في كل شيء مع المكاتب الأخرى . في الغرفة مكيف الهواء الوحيد ، والجدران مكسوة بالخشب ، وخلف الخشب ملاطٌ ، وثمت ستائر صغيرة في لون الجدار تخفي اجهزة التبريد حين لاتكون مستعملةً . كل مقعدٍ هو كرسي دوّارٌ ذو ذراعين مائل إلى الخلف ، والطاولة من أفضل خشب الماهوجني ، بحيث أن خدش دبّوس عليها يبدو مثل أثر مادة قاصرة . لبادة مذهبة الحواشي تمتد في كل موضع ، وبزوايا دقيقة تجاه طرف الطاولة . وفي إحدى الزوايا « راديو جرام » مصاب بداءالسكتة ولكن لا توجد اسطوانات . المذياع فقط يستخدم ، وذلك للأخبار وحدها . للمذياع تسعة أضواء غمّازة ، مختلفة الألوان ، بدون أن يكتشف أحد ماتعنيه الألوان ، كان هذا المذياع مفخرة مدير الإدارة ، ففي زيارته المانيا ، خلال مهمته الحادية عشرة حول العالم ، بهره جلال هذا الشيء ، فما كان بمقدوره إلا أن يغمغم له « له منزلة . له منزلة » .

أثنت الآنسة البائعة على ذوقه ، ودفع المبلغ حالاً بشيكات السفر .

وقال : «بالمناسبة . تعالي إلى فندقي كي تبيني لي كيف يعمل» . «ألن نشحنه لك بحراً يا سيدي ؟» .

«بلى . طبعاً . طبعاً» قال المدير «قصدت أن تجيئي مع التعليمات وتشرحيها كلها لي ، فأنا لاأعرف الألمانية» . قالت الفتاة : «إنها بالانجليزية أيضاً ، وبالفرنسية والإسبانية والعربية» . التفت المدير إلى سكرتيره ساحباً وراءه الأثر الطويل للأبهة التقليدية ، وقال : «هؤلاء الفتيات الألمانيات ، ألسن غبيات ؟» .

توقف ساجو ، وهو ينظر إلى الداخل من خلال باب موارب . عاد إلى الممر حيث كان خمسة مرشحين آخرين ينتظرون ، وارسل واحداً مكانه . ثم ذهب يبحث عن ماثياس في جحر مصحح البروفات .

«أين المرحاض ؟» .

«آـ آه ، آغا... ألم ينادوك ، بعد ؟» .

«لم ينادوني بعد . فقط أرني المرحاض» .

وتساءل في سره عما إذا كان بمقدوره المضي ، متذكرا دائرة من العلاجيم التافهة ، الملساء ، الأميّة . من تراه ظفر بك من برك الفصل الماضي المنكمشة ، ووضعك في هذه الكتلة المعوّقة ، وقفاً على العلامة الظاهرة للخراء . الخراء هذا هو الأمر . واستذوق الكلمة بينما كان ماثياس يقوده ، عجلاً ، الى المرحاض : «إن أردت البول فقط ، فالأفضل ان تذهب الى الساحة الخلفية التي نستعملها مبولة عامة» .

«لا يا ماثياس . اريد بولة القاعد» .

«تبول قاعداً ؟... أوووه!» وانحنى على ركبتيه من فرط الضحك .

«آغا . انك طريف . والله لن اسمع بشيء كهذا من قبل» .

كان ماثياس في المقدمة ، لكن أنف ساجو وصل قبل الاثنين كليهما ، وقد اكدت رؤيته اوراق الصحيفة ، المشبعة بالبول ، ماكان توقعه . منذ عودته ، كان مرحاض محطة الإذاعة فقط ، هو الاكثر كبحاً . هذا الصهريج

كان ذا قشرة ، ولم ينزل ماؤه ، وكانت جدرانه تنافس جدران مرحاض محطة الإذاعة في اللطخات المشبوهة . انغلقت احشاؤه فوراً . وعاد ساجو .

ماثياس : «أظن الآغا قال إنه لن يخرأ ؟» .

«لا . لا . لقد اختفى الشيء» .

«ايه . تعني انه اضرب ؟» .

شعر بالعجز ازاء هذا الظُّرف ، وخشي على صحته من جرعات الهواء الضخمة هذه .

«لنذهب» ، وسحبه بالقوة «لنذهب ونضحك في مكان غير هذا» .

«أنا أذهب ، ياآغا ، لكن يجب ان تقعد قليلاً . احيانا تعود الحاجة» .

«أين أقعد ؟» .

«أين تقعد ؟ تقعد مع نفسك ، ياآغا» .

«لا تهتم» ، قال وهو يشعر أنه قد يفقد صديقاً لو اعترف بالحقيقة «أحياناً تفعل معدتي الشيء نفسه» .

لكن ماثياس لم يُخدع ، إذ أن الصوت الغاضب لساجو ، في الأقل ، فضح الحقيقة .

«أنت لم يَرُقْ لك المكان ، أنا آسف يا آغا . الآن نتدبرالمسألة ، ولكن كيف ؟» .

«تعني انه لا يوجد عندكم مرحاض آخر ؟» .

«بقي مرحاض النساء ، وهو في الطابق الأعلى» .

«حسناً . سنجربه» .

كان يضحك الضحكة اليائسة لرجل اعتبر زميله الآن ، واخيراً ، هزأةً لا نفع فيه . ماثياس كان يتقدمه في طريق العودة . قال «الحقيقة انه يوجد مرحاض ثالث ، لكن رئيس التحرير وحده لديه مفتاح له ، وهو مخصص فقط لمجلس ادارة الصحيفة» .

«إذن ، ثلاثة مراحيض فقط ؟» .

هكذا كان الامر ، مرحاض للذكور ، مرحاض للإناث . وواحد لمجلس المحيّرين .

لقد ساعد هذا . ففي منظومة ساجو ، وجد أن مجلساً كهذا ، متمتعاً بالورع الإفراغي ، بحيث اغلق المرحاض عن الآخرين ، من اجل المشاركة الذاتية الخالصة ، هذا المجلس لايمكن ان يكون عديم الروح . وباحترام جديد لمن سيقوّمونه ، اقترب ساجو من غرفة المجلس ، المليئة ، كما هي الحال مع سائر المجالس ، بأعضاء التعويض .

انتخابات خاسرة . تسميات خاطئة . توظيف شقاة . دعم مالي . قرابات وزارية .

لعق مؤخرات عام . قضايا محظيات وزارية... امضى ساجو الدقائق القليلة الأولى وهو يضع كل وجه الى جانب التعويض المناسب ، ووجد ان وجهاً واحداً كان يتميز على الوجوه الأخرى . هذا الوجه لايحمل البلاهة العامة وازدراء الموهبة اللذين يحملهما فرسان المائدة البيضوية . إنه مُغتلٍ ، بهدوء ، في الطرف القصي للمائدة . وتفحّصته عينان صفراوان فوق الإطار الفضي لنظارتين عتيقتي الطراز . لكن كان في الشخص نفسه شيء شاذ ، هو قلنوسته . كانت قلنسوة ابيتياجا* بسيطة ، إلا أنها كانت معتمرة بحيث كان اذناها الى أمام والى وراء . وليستا منسدلتين فوق كل اذن ، كما هو الاستعمال المألوف .

هذا الشذوذ الذي يشبه الحكيم ، كان ذا رأس ضيق مستدق من الوراء ، مثل رأسي الابيجي** المنحوت ، قطعة حقيقية لمن يجمع مايتصل بفراسة الدماغ .

حدق ساجو ، لكنه كان حديث القدوم الى البلاد ، لم يسمع بالقحف الشهير لـ « المشرحة » ، ولا بالسجل الحافل ، باستمرار ، بالأساطير الدائرة حوله .

---

* الابيتاجيا : قلنسوة من ازياء اليوروبا ، لها اذنان متدليتان .

** تمثال لتوأمين ، وغالبا مايكون الرأسان مستدقين .

هذا القحف ، لم يشاهد مرة بدون غطاء . قال بعضهم إنه ينتهي بثقب ، وقال آخرون انه ينتهي بنتوء مثلث ، وان لهذا القحف مانعة صواعق ذاتية . آخرون أشد فضولية من البقية حاولوا ان يجدوا حلاّقه ويسألوه . المعجزة ان السير درين لم يكن ابله .

«اجلس من فضلك» .

ظل ساجو يتعجب من سبب اختيار سير درين أن يعتمر قلنسوته وقد جعل أمامها وراءً ، وجاء السؤال الأول مباغتاً «لماذا تريد هذا العمل ؟» .

السؤال جاء من الرجل الجالس جنب الزعيم ونسالا الذي يحتضن مخلبه الجبار الآن كأس ويسكي . رأى ساجو الخزانة المفتوحة ، إذ كان الزعيم ونسالا هو الوحيد من بين أعضاء المجلس ، الذي يتيح لنفسه هذا الامتياز . التقت عيناه بعيني الزعيم ، وغمز له الوغد العجوز . لقد عرف ساجو ، بطريقة ما ، ان ونسالا يصوّت لأي يد تضع كأس الويسكي بجانبه .

ارتجف ساجو ، متسائلاً في سره عما إذا كان هؤلاء الناس عرفوا أن مكيف هواء هو بحاجة الى ضبط . التفت الى وجه سائله .

الراديوجرام الهامد ، ومدير الإدارة ، مثل فلقتي حبة الباقلاء .

وكل محاولات مدير الإدارة للتخلص من شقيقه التوأم ، لاطائل من ورائها ، بالرغم من طقم الخزف الصيني الرقيق الذي يحتسون منه الشاي باستثناء الزعيم ونسالا .

اقتنى مدير الإدارة ، الطقم ، خلال مهمته الاقتصادية العاشرة الى الصين الاميركية ، لقد أهدى الطقم الى المجلس ملاحظاً : «تعرفون ، ان لشانجهاي شيك النوع نفسه من الفنجان والصحن» .

«حسناً ؟» وتلفت مدير الإدارة حوله ، مستجلباً الموافقة على أن انتظار الجواب كان طويلاً .

«أجب على السؤال . لماذا تريد هذا العمل ؟» .

قال ساجو «لا أدري» .

كان رد الفعل اتفاقاً بسيطاً على عدم التصديق . طوال سنوات خبرتهم في عمل المجالس ، لم يواجه احدهم مثل جهالة ساجو .

«اقلت انك لا تدري ؟ » . أومأ ساجو ايجاباً .

بدا كأن المقابلة انتهت حتى قبل ان تبدأ . لقد قلب الأمر الطريقة المعتادة في اصطياد الذباب . صارت الاجراءات مهزلة ، وتعالى الامتعاض في ارجاء الغرفة . الزعيم ونسالا وحده بدا غير متأثر بما حوله .

قال : «حسناً . حسناً . هذا مايمكن ان يسميه المرء جواباً صادقاً » .

رمقه السير درين بنظرة شزراء ، معنّفاً إياه على طيشه ، بحيث طار ونسالا ، عجلاً ، الى صداقة الخزانة . قال مدير الإدارة منتفجاً : «حسناً . إن كان المرشح لايعرف حتى السبب في مجيئه الى المقابلة ، فإنني أعتقد أننا أيضاً لا نستطيع معرفة السبب في وجوده هنا » .

الآن ، تكلم السير درين : «ايها الشاب ، آمل في انك لاتعتقد ان مجيئك هنا هو لاضاعة وقتنا » .

«لا ، يا سيدي» .

«فقط دعه يذهب ، أيها الرئيس . كيف يمكن ان تجري مقابلة مع شخص لا يأخذ الأمر جديّاً ؟ » .

«انتظر . الآن ، ايها الشاب ، انا افترض انك شخص متعلم ؟ » .

«آمل ، ياسيدي» .

«أنا متأكد أنك حتى رجل ذكي ؟ » .

صمت ساجو . «لا حاجة الى التواضع . انا متأكد من انك تعتبر نفسك رجلاً ذكياً » .

«هذا يعتمد على من أكون معه ، سيدي» .

كان هناك انكسار في وثوق السير درين ، لكنه قرر ان يدع المسألة تمر .

«الآن ، قل لي بصراحة ، باعتبارك رجلاً ذكياً ، لو كنت تجلس مكاني ،

وأنا اجلس مكانك ، فماذا تظن لو أنني سئلت عن سب طلبي العمل وأجبتُ بأنني لاأعرف ؟ » .

« كنت سأظن ، من الممكن ، انك بدأت تشعر بأنك ارتكبت غلطةً » .

انتفخت أحشاء مدير الادارة ، واطلقت كريّات شحمية من الجلد في مراحل قصوى من التعفن ، وانفجرت في سيل غير مفهوم عبر حلق ممزق :

« أتعتقد أننا جئنا هنا لنتحمل صفاقتك المتبجحة ؟ انت الولد الصغير ، جئت هنا تشحذ عملاً... » .

« لم آت شحاذاً » .

« لا تتكلم حين اتكلم ، وإلا أخرج من هنا . نحن نريد شخصاً سوف يحترم رئيسه ، لا أولاداً مغرورين على شاكلتك . ولنفترض انك لاتشحذ . من يهتم بذلك ؟ الأفضل منك يشحذون . اذهب ياصديقي واجلس » .

نهض ساجو ليذهب « اسمحوا لي » .

« اغرب عن وجهي رجاء » وأطلق هسيساً طويلاً . « هؤلاء الفراخ يظنون جميعاً أن عليهم طلباً شعبياً ، لمجرد أنهم يحملون شهادات... » .

قاطعه السير درين ، بوقار « الشهادة لاتصنع خريجاً » .

كان لكلمته الوقع المهدئ ، للكاهن العرّاف . سكت مدير الادارة . وغدت الغرفة مفعمة بالسكون والانتباه . « هذه هي الغلطة التي يرتكبها هؤلاء الأولاد جميعاً . الشهادة لا تصنع خريجاً » .

الزعيم ونسالا صار مبدعاً في الجو الجديد ، وشعر أنه في بيته حين اعيدت حكمة الشيوخ . وكان متلفهاً لاسعاد الآخر ونيل اعجابه ، وبدا كأن العلاقة بين الاثنين هي علاقة الحكيم ومَحْميِّهِ . اسهمَ في الحديث : « لقد قالها الرئيس ، شجرة واحدة لاتصنع غابة » . أومأ مدير الإدارة موافقاً ، لكن الرئيس قاطعه بابتسامة متسامحة وهزة حازمة من رأسه المخروط « ليس الأمر نفسه بالضبط ، يا زعيم ونسالا . انا ببساطة اعني ان المظاهر خدّاعة . عندما دخلت هنا شعرت بأنني متأكد تماماً ان هذا هو الرجل الذي اردناه » .

«آه ـ آه ، انت لست حكماً على شخصية ، أيها السيد الرئيس» .

اجفل السير درين كأنه تلقى طعنة غادرة ، لكن المدير كان ضائعاً في لحظة من حكمة العالم ، وعجز عن رؤية مرور الذكريات المؤلمة في وجه السير درين . هو ، ليس حَكَمًا على الشخصية ؟ ماالذي اكتسبه من سنواته الطوال في المحاكم ان لم تكن هذه القدرة الوحيدة ، هذا السحر في ان تعرف الرجل بمعزل عن ثيابه ، من تذلله المفترض او ندمه . من يكون هو ، إن لم يكن الوحي الإلهي الذي يخترق قلوب الرجال ويعري مخاوفهم الخبيثة وعواطفهم .

ذلك لانه الذي لا يمكن ان يحاكمه أحد . ذلك لان له الكلمة العليا ، بعد الله . لكن... بالرغم من ذلك... أحياناً... نعم ، احياناً ، فوق البشر العاديين الذين يرتجفون امامه ، الذين تنفذ من أعماق يأسهم أحياناً تهجمات ضئيلة تستهدف كرامته ، الذين عندما يضربهم ، يضربهم بشدة ، وبنظرة لم تعرف الرحمة ، يطحنهم ، او يهشمهم بموضوعيته السامية ، نعم ، في مثل تلك الأوقات ، يتساءل ان كان الله أكثر من هذا . خذ مثلاً ديك هذا الصباح المبكر ، الذي انتفش من حضوره ، منه هو ، المشرحة ، منه هو . آه للأيام السوالف... وأنزل سير درين حاشية قلنسوته خلفه ، وشعر بالراحة وهي تدغدغ رقبته . المحامون يعرفون هذه الايماءة... عندما يُنزل المشرحة شعره المستعار خلفه ، ويحرك رقبته إزاء الذيل في مداعبة بطيئة ، فإن هذا يعتبر نذير العاصفة . هذا اليوم كان السير درين مشوشاً . فقد هدر غاضباً ، ممطراً بالاهانات هذه الفطنة التي كسفته .

أحس ساجو وهو يخرج من الممر ، باضطراب أحشائه ، الشاهد مرة أخرى على تنبؤاتها الافراغية .

أحدهم ، ناداه باسمه ، ولحقه ، ولكن ساجو أسرع في خطوه . ماثياس ، الحاضر في كل مكان ، خرج من باب لاتبعد عنه سوى ثلاث ياردات ، مرغماً إياه على التوقف . «آغا . ما الأمر ؟ عراك ؟» .

لحق به مطارده وهو يلهث «ياسيد ساجو . يا إلهي . يا سيد ساجو...

أأنت رياضيّ ؟ أي واحد لابد معتقد أنك هاربٌ من الشيطان » . توقّف ليستعيد أنفاسه ، وقدّم يده «اسمي نوابزور . انا رئيس التحرير» . صافحه ساجو صامتاً «أنا آسف لما حدث هناك» .

« أوه ؟ » والآن حاول ان يضع الوجه موضعه . استبقه نوابزور «لابأس . لم اكن معهم هناك ، لكني كنت استرق السمع . يجب ان افعل ذلك كما ترى . اتدخل في مكتبي ؟ » .

حاول ساجو ان يقمع ضغط احشائه ، لكنه عجز عن تحقيق نجاح فوري . اخطأ نوابزور الفهم ، اذ لم ير إلا ضيفه الظاهر . «وان شئت ، فبإمكاننا التحدث فيما بعد . والواقع ، عليّ العودة الآن ، كي اسمع مايقولون وأعرف من اتدبّر فيما بعد . انت تفهم ، اليس كذلك ؟ لذا ، أرجو أن تترك لي عنوانك ، ورقم الهاتف إن كان لديك» .

بادر ماثياس : «أنا سآتي بهما إليك» .

قال ساجو : «أنا أسكن فندقاً ـ أنا وصلت قريباً ، من الخارج ، فندق اكسلسيور» .

« يا إلهي... لا تهتم بما حدث هناك . ان هذا المجلس يتخلص من أفضل الناس . هذا ما أعانيه . المفروض أنني رئيس التحرير ، لكنهم لا يسمحون لي بحضور المقابلة . يجب أن استرق السمع خارج الباب ، واحاول تكوين استنتاجاتي الخاصة . ثم تبدأ عملية الضغط والتأثير . أنا ماشٍ هكذا » .

غمغم ساجو : «هكذا» .

قدم يده ثانيةً : «لن أوخرك ، اذن . سأهاتفك غداً ، إذا تأخرت ، وقد نلتقي » . كان ساجو نصف سامع ، فالوضع الداخلي أوشك على الانفجار .

اعترف : «الحق أنني كنت مسرعاً نحو أقرب فندق . أنا بحاجة ملحة الى استعمال مرحاض» .

«أنا آسف... أوه! ثم اني ظللت أتكلم طوال الوقت . لكن ، لماذا تقطع الطريق كله الى فندق ؟ ماثياس...» .

« نعم ، سيدي » .

قاطعه ساجو بسرعة : « لا . شكراً . لقد رأيت المرحاض الذي في الأعلى » .

كشّر نوابزور « لم اكن لاضيف الإهانة الى الاذى . ماثياس سيريك المرحاض الذي نحفظه تحت القفل والمفتاح » .

« شكراً » .

« وأعدك بأنني سأهاتفك مساء غد . اذا تأخرت . ماثياس انت تعرف مكان المفتاح في مكتبي . دُلّه على المرحاض الذي تستعمله انت » .

« سيدي ؟ » .

« المرحاض الذي تستعمله أنت . لقد قبضت عليك متلبساً ، عدة مرات . خذ المفتاح ، ودُلّ هذا السيد على المكان . يجب أن أعود راكضاً الى الكبار » .

كان ارتباك ماثياس مؤلماً ، أطلق آهة امرئ أسيء فهمه كثيراً ، وسار ، منكسراً متثاقلاً ، نحو مرحاض المحيَّرين . كان جد مخذول ، بحيث مضى مباشرة الى الغرفة بدون تحايل او مناداة كما أوصي في مكتب المحرر .

أخرج من جيبه سلسلة طويلة وأدخل المفتاح . آنذاك فقط تذكر . وعلت وجهه ابتسامة ساذجة . فتح الباب واسعاً وأشار الى الداخل متحمساً .

« أنت ترى المشكلة . كيف باستطاعة المرء أن يخرأ في غرفة ذات سجادة ، دع عنك الخشب الصقيل ؟ بالنسبة لي ، أنا لا أستطيع » .

« إذن ، لم تحتفظ بنسخة من المفتاح ؟ » .

« أنا آتي هنا لأقرأ جريدة . هذا هو المكان الوحيد الذي يشعر المرء فيه بالاطمئنان ، هنا ، كما ان الرائحة فيه افضل من اي مكان في ايسالي ـ ايكو ، حتى غرفة المجلس ليست ذات رائحة افضل من هذا المكان » .

« شكراً ، ماثياس » .

أغلق ساجو ، الباب ، أخيراً ، وأدخل رتاج (مشغول) في موضعه .

وعلى الفور نسحه نسيم معطر حول عنقه ، وملأ الأثاث الفاخر لحجرة الانتظار .

كان ذلك جهاز تنقية هواء أوتوماتيكياً ، جاء به مدير الادارة في مهمته الاقتصادية السابعة الى السويد . ساجو ، وهو يخطو على السجاد الثخين ، ويتجه الى المقعد الوردي ، تأوه أسفاً ، مفكراً بأن هذا الرجل وماثياس عبقريان مضيّعان .

لكن ، فيما بـ د ، حدث ما لابد منه .

الزعيم ونسالا ، وهو في افضل مزاج ، جاء زائراً الى فندق اكسلسيور .

كان جالساً في كرسي عميق ذي ذراعين عندما جاء ساجو . لأول وهلة تظاهر ساجو بعدم المعرفة الكامل ، لكن ونسالا وجد الأمر مجرد فكاهة .

« ها ها ، إذن أنت ساجو . اجلس . تعال واجلس . ما بالك ؟ ألا تعرفني ثانية ؟ » .

« أخشى ذلك . لقد عدت للتو الى البلاد ، وهذا هو السبب » .

« ها ها ها ، أعرف ذلك . طبعك وتصرفك كلاهما يشيران الى شاب متهور ، الى جوني القادم للتو ، ها ها ها » .

« لا افهم » .

« ستفهم . ستفهم . دعني أنشط ذاكرتك . كنت في مقابلة معنا ، صباح أمس الأول » .

« ماذا كنت ؟ » .

« كنت في مقابلة معنا أنا أحد أعضاء المجلس الذي أتيته لتجيب على إعلاننا » .

رفع كأسه فارغة . « بالمناسبة . أنا أشرب شنابس » .

اعتذر ساجو ونادى النادل .

« في الصباحات اشرب الويسكي ، وفي المساء اشرب الشنابس . والعصر لا أشرب أبداً ، وإنما أنام ، ها ها ها ها » .

انتظر ساجو صابراً .

«لنر الآن . هكذا بعد أن تعارفنا ، يجب أن أخبرك . أنت ولد سيئ ذلك الصباح . ولد سيئ جداً . لكن هذا هو شأنكم جميعاً أيها الأولاد ، حين تكونون عائدين للتو . أكنت في انجلترا أم أميركا ؟ على أي حال ، هذه البلدان تجعلك مباهياً بنفسك» . نظر حول الفندق وطقطق بلسانه «هم... م... م ، ينبغي ان يكون أبوك غنياً حتى تسكن في فندق كهذا» .

«إنه مليونير ، في الواقع» .

«حسناً . حسناً... هل الامر هكذا ؟ لم اكن لأظن أن عندنا في نايجيريا أصحاب ملايين» .

«هو لا يعلن» .

«حكمة بالغة . حكمة بالغة منه . كما أنها حكمة بالغة منك ، أن تريد العمل أيضاً . على الشاب ان يكون مستقلاً عن أبيه ، متبعاً سبيله الخاص في الحياة» .

حتى وصول الشنابس ، ظل ساجو ينصت الى كلام مبتذل ، لاعلاقة لبعضه ببعضه .

كانت وجهتهما واضحة . ومازال ساجو يعتني به ، بكل لطف ، لكن مزاج ونسالا بعد الشنابس صار حاداً . «ياسيد ساجو . أنا امرؤ صريح . أوه ان ارى الشبان القديرين ينجحون . لكن الأمور ، لسوء الحظ ، أكثر تعقيداً مما يرغب المرء فيه . أنت بنفسك رأيت العدد الكبير من الزبائن الذين جاؤوا ليحضروا مقابلة ذلك العمل» .

«أكانوا عديدين ؟»

«نعم . وأمس كانوا أكثر . حقيقة أن الرجل الأبيض طُرد بعد الاستقلال ، لكن هذا كان منذ أمد بعيد . في السابق كانت الشهادة تعني شيئاً ، أما اليوم فكل واحد عنده شهادة . كل شهادتين بقرش ، هكذا الجميع يركضون لملء الوظائف الشاغرة . لم تعد الشهادة جوازاً» . كان بارعاً في

فنه . لم يلحظه ساجو يشير الى النادل الذي جاء بعد وقت قصير حاملا كأس شنابس جديداً .

« على أي حال ، المسألة هكذا ، أنت نفسك تعرف بأنك لست ذا خبرة في هذا العمل . أخبرني المحرر ، في الاجتماع انك في الواقع مؤهل لـ... لـ... شيء مثل البناء أو... آه... نعم ، مسّاح » . وسمح لنفسه بتوقفٍ مديد . كان التوقف علامة خبرة ، توقُّفَ انتقاص كافٍ لاغراق الضحية . لكن من أين أتى بفكرة المساح . هز ساجو كتفيه . الأمر لا يهم على أي حال .

« ثم انك أزعجت المجلس كثيراً ، ورئيسنا بخاصة... لكن... ما يزال بالإمكان إصلاح الأمور... حسناً ، القضية كلها بين يديك ، هل أدركت ما أعنيه ؟ » .

أشار ونسالا إلى كأس آخر . ثم بسط يديه وابتسم : « أتراك ستفعل فعل ابنٍ طائع ؟ » .

« كم ؟ » .

« أربعةٌ منا ينبغي ان يحسب حسابهم . لو ان الامر متعلق بي فقط... » .

« كم ؟ » .

تناول الشنابس ، ضاحكاً . « الانجليزي لم يترك كثيراً من دبلوماسيته عليك . أنت أقرب الى الاميركي... صريح . هكذا أنا أيضاً . أتعرف أنني أود الأميركيين ، إنهم ليسوا مثل الانجليز . الانجليز جد ماكرين ، جد دبلوماسيين ، لكنهم أكثر شراً حتى حين يقولون نعم من فضلك ، ولا... شكراً ، ها ها ها ها . أنا أود الناس الصرحاء . هكذا ربيت » .

يختبىء داخل ساجو ، مثل آخرين عديدين من سنِّه ، مركزُ مرضٍ من زيت الخروع ، والقرب من هذا الشنابس الحقير المصنوع من الغراء هو اسوأ جرعة فعالة عرفها . ربما كان الشنابس شهيراً بكونه سر الشيوخ الخالدين في خلجان النيجر ، والترياق الوحيد لروماتزم المستنقعات ، لكن كان من الصعب التفكير به وهو يدور في تلك الأحشاء الهرمة . قد يكون الأمر أكثر تقبلاً حين

يدور في مفاصلهم المتزعزعة ، وكان جوف ساجو ينقلب كلما مسح ونسالا شفتيه .

« قل لي فقط ، كم ؟ » .

« كف ونسالا عن تمرير لسانه على آثار الشنابس في شفتيه ، وعاد عمليا من جديد .

« باعتبارك جديداً ، سنجعلها قضية شرب . لنقل... خمسون باوناً ؟ » .

كانت هناك طرق عديدة لجعله يتدلى ، لسحبه الى الخارج ، متعلقاً بأملٍ مثل اللعاب المتقطر من ذقن خروف . وقد تناول ساجو هذه الطرق ، واحدة بعد الأخرى ، ملغياً إياها جميعاً في النهاية ، عندما غلبته رائحة الشنابس .

« لنفترض... لنفترض أني أخبرك بأني تلقيت مكالمة هاتفية من رئيس التحرير ، منذ خمس عشرة دقيقة فقط ، وأنه قال انني حصلت فعلاً على العمل ؟ » .

انكمش ونسالا متضائلاً ، وتلاشت ثقته بنفسه . أحدث هذا ؟ ليس مستحيلاً ان الأمر قد يكون مجرد وهم . الآن ، حل محل الوهم ، وينسالا الضاحك ، ونسالا الفترة العاشقة ، عينين مغلقتين ، وكرسياً على قائمتيه الخلفيتين ، وستين ثانية كاملة على هذه الحال . « يا ولدي ، لن يفيدك امتحانك من يكبرونك . عندما يتنازل شبلٌ طواعيةً لغزال ، فتأكدا أولاً ان لم يكن النمر الأب نفسه على مبعدة اشجار قليل في الخلف .. سوف اقول لك سراً ، وان شئت راهنّا عليه لنرى من منا على حق . يوم الاثنين سوف تتلقى مكالمة هاتفية اخرى من محررك يخبرك فيها أن المجلس رفض تعيينك . ها أنتذا ترى أن الكلمة الأخيرة ، لنا . ألا تعرف أن لي من العقل مايدعوني الى التحدث مع نابزور قبل مجيئي هنا ؟ أعرفُ أنه سيهاتفك الآن . العمل موجود ، لكن عليك ان تضمنه » . هذه المرة كان ساجو مهتماً تماماً بوجه الرجل ، بحيث أنه شاهد إشارة الشنابس . النادل ذو الصُدرة الخضراء ظهر أنه أيضاً يعرف الرجل ، حتى ليكاد يستجيب قبل أن يرفع ونسالا وجهه في إمالة

خبير . ارتبك ساجو ثانيةً ، وقرر أن تحدي ونسالا ليس بالأمر اليسير . لكن باستطاعته أن يمتنع عن تناول المزيد من زيت خروع الرجل ، وهكذا وقف عندما اقترب النادل .

«سأرى ماعندي في الغرفة» .

«هذا أفضل . حين يأتي المفتش الصحي وينظر تحت الفراش ، فإنه يبحث عن الكولا ، لا عن يرقة بعوض الملاريا» .

رائحة الطلب الجديد تبعث ساجو إلى الخارج . وتمنّى قشرة ليمون قوية .

مضى ساجو إلى الشرفة ، مستنشقاً ، بعمق ، هواء البحيرة . كان الغسق يهبط ، ومصابيح الشوارع كانت شرعت للتو تخفق في صراعها الأبدي ضد قوة غير أكيدة .

إنها ستظل هكذا حتى منتصف الليل ، آنذاك ربما وجد المهندس المناوب ملفّ الاسلاك العاطل فانتزعه بالكامل ، تاركاً الشارع للعتمة ، شهراً أو أكثر .

كانت سيارة أميركية طويلة متوقفة تحت الشرفة مباشرة . ثمة شيء أليف في خطوط الكروم... والحق أنه كان أكثر من ذلك . الحشيّات الشرقية على الرف الواقع وراء النافذة الخلفية ، كلها رموزٌ مألوفة لثراء مبتذل .

تذكر ساجو المكان ـ الرأي المستقل . كان محشوراً بين مصدّ السيارة والحائط ، حين غادر المكاتب . سيارة الزعيم ونسالا ؟

نظر ساجو ، ثانية ، الى الشكل الغامض في حوض السيارة الخلفي ، والذي ظنه ساجو ، السائق . كان الرجل نائماً ، وقد سقط رأسه على صدره .

القلنسوة لا يمكن أن تخطئها العين ، إنها قلنسوة الأبيتجايا ذات الحواشي الثلاث ، وقد لصقت على رقبته من الخلف ، بطريقة غير متشددة . انه السير درينولا ، رئيس المجلس .

لم يربط ساجو ، فوراً ، بينه وبين زميله العضو في بهو الفندق ، لكن

النمط أكد نفسه بشكل قاس ، وبدون رحمة ، وشعر بتضايق حادّ لأنه شهد هذا الفضح الشرس لرجال كان ينبغي أن ينالوا احترامه بسبب سنهم .

كان السير درينولا لاينام بسلام ، لكن ساجو أحس أنه هو نفسه مجلل بالعار .

كان مذنباً لانه تطفل على أسرارٍ ينبغي ألاتفضح أبداً . لكن كيف ، كيف بدأت المسألة ؟ لقد اكتفى ونسالا بطلب خمسين باوناً فقط . إنها كثيرة عليه أكيداً ، لكن أتراها تعني شيئاً للسير درين ؟ أعاد دوزنة ذهنه على عالم الأرقام البارد . ثمت مجالس أخرى ، فرص أخرى ، مرتين في الشهر مثلاً . دخلٌ طارىء ـ ستون باوناً شهرياً ، غير خاضعة للضريبة .

المسألة مضبوطة . انها تستحق ان ينام المرء ، متنكراً ، في سيارة مكيفة الهواء ، بينما تمضي الواجهة : مهرجٌ مثل ونسالا ليقوم بعملية المساومة . ينبغي أن تكون زيارات أخرى هذه الليلة . بدا أن الشنابس قد علق بشيابه ، والرأس الماكر في السيارة ، تحت ، استأنف دواره . لكأن ونسالا أنظف الاثنين ، فهو يواجهه ويعلن نفسه ، كما هو . لكن السير درينولا تحت...

ذهب ساجو الى غرفته ، واستلقى على الفراش ، محدّقاً بالسقف . اتصل بخدمة الغرف ، وطلب كأس جن بالتونك ، وليموناً طازجاً على حدة .

كان يامكان ، في قديم الزمان . كانوا يحرمونه من الليمون بعد المسهّل الاسبوعي .

اجبو وهو ناقشا المشكلة في مدرسة الأحد . وهما يخربشان بالقلم على المنضدة .

«الأفضل أن تتهيأ . ستجيء أمي الى بيتكم اليوم ، وهي لا تسمح لي بمص الليمون » .

« لماذا ؟ » .

« لا أدري . لكن هذا يعني حرمانك أنت أيضاً من الليمون » .

ران صمت طويل . الوصية على اجبو تزوجت فيما بعد ، وتعهدت أم ساجو بأن تدربها على أمراض الأطفال ، والعلاجات الوقائية بخاصة ، وكان المسهّل كل أسبوع ، أو كل أسبوعين في الأقل ، واحداً من هذه . كان يوم السبت مرعباً لساجو ، والآن جاء تهديد السينابوديوم بدون ليمون ، رعب الغثيان الأبدي ، واللسان الذي يظل ينزلق كالبزاق ، بعد يومين من تناول الدواء .

كتب اجبو : « وماذا عن الشبّ ؟ » لم يكن هذا ليزعجه كثيراً ، ذلك لان زوجة المعلم كانت تخافه قليلاً ، لكن أم ساجو كانت دائماً حول المكان ، وقد أقنعتها أن اجبو كان هبة من الله لإجراء التجارب الصحية .

« فقط جربيها على هذا الوحش الصغير لمدة شهر ، وشاهدي الاختلاف الذي تحدثه » .

اهتمّ ساجو بالشبّ « نعم . هذا يفيد . كيف الحصول عليه ؟ » .

« عندنا في البيت . المعلم يحفظه في خزانة الدواء » .

« أهناك كمية كافية ؟ » .

« كثير » .

امتلأت المنضدة الآن ، كتابةً ، ولم يكن لديهما ممحاة . لكن الحل كان جاهزاً . وتذكر ساجو فكرة أرهقته زمناً وما كان بإمكانها الانتظار . لهذا انتزع حافة (تقدّم الحجّاج) وكتب عليها .

« وماذا عن الله ؟ » .

أمسك بها المعلم « خارج الصف ، ساجو ، وأنت ، اجبو . أبعدا جسميكما التافهين من هنا ، وأحضر تلك الرسالة معكما » .

في مدرسة الأحد يجد حتى أكثر الأطفال بلاهة شروحاً مشروعةً وحتى موصى بها . لسؤال كهذا ، لذا امتنع المعلم عن التحقيق . لكن الورقة بدت

مشبوهة ، فطلب كتبهما . دهينوا جالسة جنبه ، ورفضت رفضاً قاطعاً مقايضة كتبها ، بالرغم من تهديدها بعذابٍ أليمٍ بعد المدرسة . لكن عقوبتهما كانت خفيفة ، وهي استظهار صفحتين من (تقدُّم الحجّاج) قبل مدرسة الأحد التالية .

فيما بعد ، كان عليهما الانتهاء من القضية . «تعني ، هل الله يشرب زيت الخروع ؟» .

«نعم» .

«هو لا يأكل ، ولهذا ليس بحاجة إليه» .

«أما أنا ، فلو امتنعت عن الأكل أسبوعاً كاملاً تظل أمي تزقّني به . بل إنها ستظن أني لم آخذ الجرعة السابقة» .

كانت دهينوا لحقت بهما ، لكنهما تجاهلاها . «السينابوديوم أسوأ . موعدي معه الأحد المقبل . اجبو محظوظ طبعاً . فليس لديه جدول زمني» .

«إلا اذا كان عندي مغص ، او ريح جوف تفسد الهواء . حتى في تلك الحالة ، تستعين بأمك» .

سألت دهينوا : «أأنت الذي تفسد الهواء ؟ يجب ان تراقبهن . عمتي تفعل ذلك طوال الوقت وتلومنا نحن الاطفال . لكن بمقدوري دائماً ان أعرف . أنا أعرف دائماً متى تريد أن تفعلها . إنها تميل بعجيزتها الى جانب ، بعدها ، يهرب الجميع متناثرين» .

شعر ساجو بامتيازه «أمي أكثر انتظاماً . تفعلها دائماً كل مساء بعد الصلاة ، عالية مديدة . وحين ينتهي القصف تقول «شكراً لله» ، وعلينا جميعاً ان نرد (آمين)» .

قالت دهينوا : « أمك لاتستحي . حتى بين الضيوف» .

أراد ساجو أن يصفعها بالكتاب المقدس لكنها زاغت بخفة .

وصلوا باب منزل اجبو «لاتنس الشبّ» . توقّف اجبو « الآن أتذكّر . أتعرف ما قال لي المضمد ؟ قال انهم الآن يعملون الخروع بشكل مدور ، كالأقراص» .

« صحيح ؟ » .

« أراني إياه . دائري تقريباً ، مثل بيضة السحلية » .

تحمس ساجو لحظةً ، ثم هز رأسه « لن ينفعني . ستقول أمي إن الأقراص لن تفعل فعل الزيت » .

« لكن... لو قال المضمد... » .

« سيوافقها المضمد . أنت تعرف كيف أنه منافق » .

أمالت دهينوا رأسها احتقاراً ، وابتعدت قليلاً .

وقف الولدان يفكران حيناً ، مثقلين ببؤس الأشياء .

« لا تنس الشب » وأسرع ساجو في خطوه ، وتقدّم دهينوا قليلاً . خبّت وراءه متهمةً « فقط لأنني لم أرد أن أبادل كتبي بكتبك... » .

شخص غريب أيقظه بعد فترة قصيرة ، فقفز ساجو مذعوراً « يا إلهي . كم الساعة ؟ » .

« السابعة والنصف » .

« فقط ؟ كنت ظننت أني نمت طويلاً... » .

توقف . وضحك بانديلي ضحكة ناعمة . امتدت يد ساجو إلى الحائط وضغطت الزر .

ولدقيقة كاملة وقفا يحدّقان . وفجأة تماسكا بالأيدي دون أن يتكلما . ثم اقتحم كولا المكان ، وتدفق ساجو ، معانقاً إياه ، وهاتفاً بكلمات غير مشذبة ما كان ليظن أنه سيسمع نفسه ينطق بها « أنت لم تتغير » ، ويسمع بالمقابل « ولا أنت » .

ومفعماً بالبهجة ، لفّ ذراعيه حول خصر بانديلي ورفعه بضع أقدام عن الأرض ، فاصطدم برأسه بالسقف . أنزله ساجو وهو يهتف « ياإلهي ان لم يكن

العملاق الاكوكو! ليس أقصر حتى بإنش واحد ، ومازال مهيباً كالعائلة المالكة البريطانية» .

جلس بانديلي على السرير «أنت آخر العائدين . سيكوني غلبك بثلاثة أشهر» .

استفسر كولا «لم كنت مختئباً ؟ اعترف» .

«سأشرح الأمر ، فيما بعد . كيف عرفت اني عدت ؟» .

ضحك كولا «لك ملف . أم أنك لا تعرف بذلك ؟» .

«ملف ؟ ما شأنه ؟» .

«في وزارة الخارجية . أليس المفروض أنك شيوعي ؟» .

«حسناً...» .

«اجبو يعمل بوزارة الخارجية . هو أخبرنا أنك عدت» .

«اللعين...» وصفع نفسه على الفخذ ضاحكاً «وها أنذا ، أنسل داخلاً خارجاً ، معتقداً بأن أحداً لا يعرف بوجودي» .

«ملفك يملأ خزانة حفظ بأسرها ـ سيخبرك اجبو أكثر عن نفسك» .

حك ساجو رأسه «وماذا عن اجبو ؟ كان بإمكانه ان يهاتفني في الأقل» .

«حسناً ، خمّنا نحن كلنا بأن لديك سببك في الاختباء . لذا قلنا الخير ان ننتظر أسبوعاً او اثنين» .

«لا شيء شريراً... بصراحة ، فقط كنت أريد ألا تعرف أسرتي بعودتي . كنت أريد ان أتكفل بنفسي أولاً ، أحصل على عمل ، أو أقرر ألا أحصل على عمل ، ثم زيارة مجاملة قصيرة ، وانتهى الموضوع . وكل وشغله» .

هز بانديلي رأسه «ليس هذا بالسهل» .

«نعم . لكني اعتزم المحاولة» .

«أليس اجبو هنا ، بعد ؟» .

«لم أره» .

«رتبنا ان نلتقي هنا في السابعة ، لنفاجئك . لكننا تأخرنا في طريق ايبادان . حادث سير مرعب» .

«تعالوا ، لننزل ، ولنستقر في البار . هل طبختم شيئاً لهذه الليلة ؟» .

«انها ليلتك . انت أخبرنا بما تريد أن تعمله» .

الدرجة الاخيرة في السلم ، وشعر ساجو بهدوء غير اعتيادي في الغرفة .

مزق دخولهم الصاخب ، ذلك الهدوء ، وتراجع ساجو ، مستعيداً الآن زيارة الزعيم ونسالا . وبدا دخولهم موقوتاً وسط فعل دنيء . كان البار عبر البهو ، ودلهم على المشهد جمع من البزات ذات السترات الخضر .

«ما الأمر ؟» .

«انتظر» .

بدا الزعيم ونسالا نائماً . وحوله يحوم نادل . وجاءت المباغتة . فجأة ارتفع كمّ الاجبادا العريض وخطف باتجاهه . واضح ان النادل كان يتوقعها ، لذا تراجع بمهارة مغمغماً . «لكن ، يا آغا ، أجنبي الآن» .

النادلون الآخرون كانوا ينفسون عن ضجرهم بمراقبة اللعبة ، والقهقهة .

كان واضحا ان هذه اللعبة كانت قائمة منذ حين . كان صوت ونسالا ثخيناً «لا تقربني ان لم تأت بشنابس» .

«لكن ، ياآغا ، يجب ان تدفع للكأس التي شربتها» .

أمام الزعيم ونسالا ، نصف قنينة ، منطرحة الآن على جنبها .

النادل يفهم دور سكارى القنينة الخضراء في الفندق . تقدم ثانية :

«لكن ، يا آغا ، أتوسل إليك... سوف أغلق البار» .

جأر ونسالا «أنت محتال . لو احتلت علي فسأطردك . قلت لك انني مازلت أنتظر صديقي . اذهب الآن» .

قال بانديلي بعد رؤيته وجه ساجو «أتعرفه ؟» .

«انتظر» .

في الاعماق المعتمة لايمان ونسالا ، كان ساجو يعود بخمسين باوناً ،

أو بنصف المبلغ ووعد بالباقي . وبالتأكد نفسه ، أمسك بفرصته ليطلب قنينة شنابس ، خفضها فيما بعد الى نصف . لكن ساجو أخّر عودته . الصينية امتدت . القنينة الخضراء تقدم . دارت حوله . لكن ونسالا بدا نائماً تماماً .

«انت نائم ؟ ايه ؟» وحاول القنينة الخضراء ان يرى العينين تحت القلنسوة . نال صبر ونسالا مكافأته ، اذ اندفع مخلب يقظ الى أعلى وطارت الصينية ، اصابت القنينة الخضراء على خرطومه ، فذهبت مقعقعة على الآجر . تراجع القنينة الخضراء جريحاً ، وجرت عليه تحولات قبح فورية . ضجة رفاق القنينة الخضراء ضخمت الحادث الى حد يفوق التصور . كانت الصوت الوحيد المسموع . طنين يتجمع من سرب قنان خضراء تبعثرت على فاكهة تتعفن . الطبقة التي تطلب الشراب ، أدارت ظهرها ، متضايقة من مشاهدة المهانة التي يجب ان تتبع .

للنادلين مجسات سريعة . رجل كبير كان يوشك ان يتمرغ في الروث ، وانتظروا سيل الاهانات الاول من النادل .

كرة الاستنكار صارت في يده الآن ، وأخذ القنينة الخضراء كامل وقته ، متسخناً بهدوء . لم يكن غراً ، كان يعرف متى يفقد الاستنكار قيمته ، ومتى يستردها . «لم يحدث لي مثل هذا البتة . أنا أشتغل هنا منذ زمن ، ولم يضربني أحد مثلما يضرب حصاناً» .

خلفه ، طنين تأييد .

«سأرفع هذه القضية الى الشرطة ، لايمكن ان يدفع زبون الصينية في وجهي . أنا أفضل من يخدم هذا المكان ، ولا يمكن لأحد أن يرمي وجهي بالصينية هكذا» .

الزعيم ونسالا ، وقد انكمش جسده الضخم ، وانهارت ثقته بنفسه ، انتظر في ضباب عميق ، لانذا ببداية المشهد المخزي ، عائداً الى رجل في مركزه . الى نفسه ، من اجل نفسه فقط ، انبثق سيل منشارات متأخرة من شفتيه ، وهو يغمغم صامتاً ، بينما رأسه يهتز مشفقاً...

«ليس أمراً مفرحاً ان يرى الطفل أباه عارياً . الخصيّ الحكيم يبتعد عن النساء . الموظف الجائع يرتدي سترة فوق حزامه الضيق ، ومن سيقول إن بطنه ممسوح ؟ لكن ، عندما ينزع قناع الساحر في السوق ، فهل بمقدوره ان يطلب طاقية الاخفاء كي تنقله الى أمان القبر الحصين ؟ والزاني الذي يجعل مواعيده في غرفة ذات مخرج واحد ، أليس يريد ان يطعم أسماك أوجون* مَنِيَّهُ ؟

«لا يأت رجل كبير إليّ هنا . الرجل الكبير الذي لا يحترم نفسه ، لا يحترمه أحد ...» .

وجد ساجو ان يتقدم ، ويرفع الصينية . وعندما نهض ، سمع خفق ثياب مفاجئاً ، التفت بحدة نحو المدخل الرئيس . كان السير درينولا واقفاً بجانب النخلة الصغيرة الموضوعة في برميل نفط مقسوم نصفين . ولن ينسى ساجو ، أبداً ، تلك النظرة على وجهه . فإلى جانب الخوف ، وكرامته المهددة ، برزت علائم لعذاب التردد .

لقد جاء كي يعرف سبب التأخر الطويل ، وقد دخل في مستهل العذاب . لأول وهلة أحس بنوع غريب من الاندهاش ، كأنه رأى في الزعيم ونسالا مصيره هو ، واعترف بالمنطق المنحدر نحو فقدان الاحترام الذاتي . لقد ادرك لحظة النجاة ، متأخراً جداً ، وقام بتأجيلها ، وظلت اللحظة تتأخر ، وكل خطوة خطاها الى الامام كانت ترتد ازاء فكرة ان ساجو قد يعود فيراه مع الزعيم ونسالا . لكن الأهم من ذلك كله ، ان السير درينولا كان مشلولاً تماماً في مواجهة صورة آتية ، وغير قادر على التحرك للمساعدة . الآن رأى ساجو يتقدم ، وحاول التراجع والانكماش وراء النخلة . حدّق أحدهما في الآخر . لا معنى لأي اختباء . وكان ساجو هو الذي أشاح بعينيه .

سأل وهو يدفع الصينية في يدي النادل : «ماذا جرى ؟» .

---

*الإله الخالق ، المحارب ، المكتشف .

« هو لم يدفع ثمن الشراب » .

« إذن ، كان عليك ان تتصل بالمدير » .

« المدير غير موجود ، أنا لا أتحمل ما فعل . الحاكم العام نفسه لا يجرؤ على ضربي وأنا أقوم بواجبي » .

« أتعرف أنه ضيفي ؟ » .

« وماذا أفعل . لقد حلّ وقتي للإغلاق . قلت له إنني... » .

« سجل ما شربه على حسابي ، وتوقف عن الصراخ بي » .

وضع يده على كتف الزعيم ونسالا : « أنذهب ، ياسيدي ؟ » .

وقف متواضعاً . لقد غادرته الخديعة تماماً . وكان بانديلي جاء ليسند الرجل من الناحية الأخرى ، لكن ساجو قاده ، فجأة ، في استدارة ، « سنأخذ المصعد الآخر » .

وبزاوية عينه ، رأى السير درينولا ينطلق فجأة ، يستدير عنهم ، ويعدو الى المصعد . في الصباح التالي هتف له نوابزور ، غير مصدق . « هل جئت معك برُقْيَةٍ من أميركا ؟ الرئيس يقول... يجب ان اعطيك العمل . بصراحة ، ماذا فعلت له ؟ أخبرني فقط ، ماذا فعلت له ؟ » .

٦

«ماثياس! ماثياس! تعال هنا ، ماثياس! »

نظر المراسل حول الباب .«أنت تنادي ،سيدي ؟ »

«ماثياس ، أما زلت مريدي ؟ »

«آغا ؟ »

«أنا مفلس . أيعرفك جيداً صاحب البار ؟ »

«هو من بلدي» .

«إذن ، لن تلقى صعوبة في الشراء بالدين » .

«آغا ، هذا أمر مختلف . انهم ينسون حين يتعلق الأمر بالنقود . لاأحد يتذكر ابن بلده » .

«ماثياس ، اذهب الآن ، ولاتعد بدون الاثنتين المعتادتين » .

«آغا... اقول لك...» .

« ماثياس ، اليوم هو يوم تلاوة الكتاب المقدس . اذهب الآن » .

«حسناً ، آغا ، ذاهب لأحاول» .

كانت جلسته مع رئيس التحرير قصيرة بصورة مؤلمة . دعاه نوابزور في المكتب وقال« أريد الاستماع إلى هذه » . وفي يده حزمة أوراق فولسكاب تضم مادة ساجو عن سيكوني . كان عنوانها (من هندس الهروب ؟) كانت الوقائع مبينة ، ولا يمكن الخلاف عليها . حين كان نوابزور ينتظر مجيئه ،

أخبره «بالمناسبة ، لقد ذهب صديقك المهندس الأبيض . ذلك الذي كان تقريره لعنة على المحطة الكهربائية» .

«ماذا تعني... ذهب ؟» .

«ذهب ببساطة . فقد وافق مجلس شكاوى الموظفين على شكوى قدمها بصدد اضرار لحقت به اثناء تأديته الواجب . احزركم كسب ؟» .

هز ساجو رأسه .

«ثمانية آلاف . إضافة الى ألفين تعويضاً عن إنهاء عقده» .

«هكذا...» .

«لاتبدأ تفقد الامل . هذا الامر لن يجعل مادتك عديمة الجدوى . في الأقل ليس ذاك...هناك طرق متنوعة للتحقق - إن أردنا ذلك» .

«لكنكم لاتريدون التحقق ؟» .

«هذا يعتمد . انتظر . سأشرح... آلو...» .

نهض ساجو «خير الا أسمع اي شرح . لقد استنفدت المادة اسبوعين من العمل القاتل» .

«اجلس . اجلس . أنت لا تحب الانتظار بالتأكيد ، أتحبه ؟ آلو... آلو... هذا نوابزور ، أنا أريد التكلم مع الرئيس...» .

«بصراحة ، اما ان تأخذها او تتركها . انت تعرف ان المسألة شخصية تماماً» .

«تلك صحافة رديئة ، ياصديقي . سرعان ماستعرف ذلك . مهما يكن ، فأنت أديت دورك . حصلت على المادة ، والباقي علينا . لتكن هذه طريقتك... آلو... آلو...» غطى فم الهاتف «بسرعة ، خذ ذلك التفرع على الطاولة» . من الطرف الآخر جاء صوت السير درينولا المعروف «هذا انت يانوابزور ؟» .

«نعم ، سيدي . حول (كشف الحقائق) ، هل نستطيع استعمالها الآن ، سيدي ؟» .

« لا . ضعها في ملف للحفظ » .

« تعني نؤجلها ، سيدي ؟ » .

« لا . لقد استعملناها في حينه » .

« أوه ، فهمت ، ياسيدي ؟ » ، ولفائدة ساجو ، وبصورة واضحة ، قال « إذن وافقوا على التعامل ، سيدي ؟ » .

« لاأريد التكلم عن ذلك في الهاتف » .

« طبعاً لا ، سيدي ، أنا آسف » .

« بالمناسبة ، من اشتغل المادة ؟ » .

« محرر المواد الخاصة الجديد ، سيدي » .

« تقصد ذلك... ذلك الولد من أميركا ؟ » .

« نعم سيدي » .

صمت السيردرين طويلاً . نوابزور تكلم . « قام بعمل جيد ، أليس كذلك سيدي ؟ » .

« بلى ، كان عملا مرضياً » .

دهش ساجو ، لأن نوابزور كان يستهزىء غرزياً : « أليس حظاً أننا وجدناه بعد هذا كله ، سيدي ؟ » .

بغتة ، صار صوت السير درين فظاً : « نسيت انني أمرتك بتوظيفه » ، وأطبق الهاتف . أعاد ساجو الهاتف الى موضعه بهدوء ، والتفت الى نوابزور . اشار رئيس التحرير عليه بأن يبقى في مجلسه . « حسناً . هذه هي المسألة . انت الآن تعرفها » .

« أعرف الآن ماذا ؟ » .

« أغلق انت فمك ، اغلق انا فمي . واضحة بسيطة . لقد أنقذت الرئيس من ورطة كبيرة » .

« أنا... ماذا ؟ » .

« لأمر دائم الحدوث . إنه جزء من الحماية المتبادلة . قبل أن ننشر أي

كشف حقائق مثل هذا ، يجب ان يذهب الكشف الى محامينا . المحامي بدوره يتباحث مع الرئيس . الأمر خارج مسؤوليتنا . لم يعد بأيدينا » .

« استمر . أنا متلهف لأتعلم » .

« حسناً . هويدع الجانب الآخر يعرف ماوقع بيده من أشياء ضدهم . فإذا قرروا أن باستطاعتهم تحملها قالوا له امض قدماً . وإلا قالوا ، حسناً ، في الواقع كنا نجمع اشياء معينة عن فلان وعلان من جانبكم ، ثم يرسلون نسخة مما توصلوا اليه . حسناً... أنا أعرف جيداً الورطة التي أوقع فيها السيردرين نفسه ، لكن مادتك جاءت في الوقت المناسب تماماً . هكذا عقد الجانبان مقايضة صمت » .

« وصديقي ؟ » .

رفع نوابزور كتفيه ، كأنه يقول ماذا بمقدوري أن أفعل .

وقف ساجو « آمل ألاّ تعترض إن ارسلتها الى صحيفة اخرى » .

« اسمع ، يا ساجو . أنا في هذه اللعبة منذ ثلاثين عاماً . صدقني ، لقد مر علي حين من الدهر كنت أعتنق فيه هذه المثل . وتنقلت من صحيفة الى صحيفة مخلفا ورائي زوبعة من استنكارات عادلة . لكن الصحافة هنا ، يارجل ، هي عمل مثل سائر الأعمال . أنت تفعل مايأمرك به مستخدمك . صدقني ياساجو . اسمع فقط كلمتي » .

أخذ ساجو المخطوطة : « سوف أرسلها الى صحف اخرى » .

هز نوابزور رأسه يائساً « لكنك ، يا عزيزي ، تشتغل عندنا . وقد استعملت وقتنا ، هذه المخطوطة ملك لنا » .

« لن تكون ، إذا استقلت » .

« لا . لا . لا داعي . الصحف الأخرى لن تلمس المادة ، هكذا أقول لك . العملية ذاتها ستجري ، وسيعرفون أن اتفاق جنتلمان قد تمّ بصددها » .

« في هذه الحالة... » .

« لا . لا . لا . لاتقل اشياء لتزيد الأمور سوءاً عليك . انسها فقط .

أعرف انك مدين ببعض الولاء لصديقك . صدقني انت لست مديناً لاحد . ستعرف ان كل امرىء ونفسه » .

« إنه بالتأكيد رأي هام في الحياة » .

« فعلاً هو رأي هام ، بل هو الرأي الوحيد . أما صديقك فسوف يجد عملاً اخر ، وسرعان ما تنسى أنت... » .

انصفق الباب ، وعاد نوابزور الى عمله ، مفكراً انه سيستقر .

أخرج ساجو مجلده ، وفتحه على غير تعيين .

« ادخل يا ماثياس ، هل وفقت ؟ » .

دخل ماثياس ، حاملاً في كل يد قنينة تتعرق« قال انه لن ينتظر حتى نهاية الشهر . وقال انه يبيعنا بالدين حتى عطلة هذا الأسبوع فقط » .

« حسنا . اجلس » .

« هل افتحهما أولا ، آغا ؟ » .

« شكرا » .

انتظر حتى ازبدت البيرة . ثم ناول ماثياس الكتاب . « افتحه . فقط افتحه ، في أي موضع تشاء » .

أطاع ماثياس ، متلهفا ، مثل من اعتاد الآن على متعة ما .

« حسنا . اشرب الآن ، وأنا سأبدأ » .

« ... والصمت للإفراغي ،كأدخنة الأفيون لمتصوفة المشرق . صمت المرحاض في بيت بضاحية انجليزية ، حين يغادر أهل البيت والجيران إلى كدحهم اليومي ، والضيف يفرغ وحيدا ، ان هذا صمت بإمكانك أن تلمسه . في فرنسا ، بالطبع ، خرافة التعقيد ليست سوى ادعاء ضحل سمج ـ كالعلاجيم المفرخة . هناك بحثت ، عبثاً ، عن أبخرة الصمت . وفي الأخير ، وللتخلص من الوضع المثبط للروح في مراحيض النزل ، ذهبت أحمل معي كتاباً ورفشاً إلى الغابات القريبة ـ هنالك كان هذا التخليص الوحيد في الأقل ـ والغابات تمتد عشرات الهكتارات . هنا وجدت تعريشة صغيرة أتأمل تحتها بانتظام ،

اقرأ ، أو انصت فقط إلى موسيقى الطيور الغالية . اعترف انها كانت إفراغية مقيدة ، كانت تعوزها الراحة الكاملة ، الاسترخاء العضلي المطلق .

والأسوأ من ذلك ، الشعور بورقة عشب مباغتة رطبة وأنا في خضم تهجدي مما يجعلني أثب خوفا من افعى تحاول أن تلعق خصيتيّ . لكن الصمت الرطب الثقيل المخترق بالطيور كان تجربة صوفية جعلت من خطر الاخصاء شيئا تافها .

والآن ، يا أصدقائي ، علي أن أروي لكم حكاية مخجلة . في أحد الأيام تتبعني طالبان جوالان دفعهما الفضول إلى معرفة المكان الذي أمضي إليه بالكتاب والرفش . مسألة مثيرة أنني كنت فعلاً تحت المراقبة في هذه الفاعلية الأشد فردية لدى الإنسان . لكنهما برهنا أنهما طالبان لطيفان ، طهرا نفسيهما من التابو بأن انفقا ميزانية ثلاثة أيام ، في مساء واحد بالخمارة . غفرت لهما ، وأدار النبيذ رأسي فأمسيت كريماً ، وأدخلتهما في أسرار الافراغية . انني أتساءل الآن إن كان تم فعلاً حل السؤال ؟ أتذكر أنهما اعتنقا المذهب بسبب دهائي . لقد ادعيا أن المفرغ الحقيقي موجود في التراب المبتل وما تحته من نبت رطب وفي المعالجة الماكرة للمتسلقات والشجيرات . هتفت : لنعد إلى الغابة . ان المفرغ يستلزم فن الانسان وعلمه . الضوء ينبغي أن يكون خافتا على العين ، ومنقي الهواء ـ لأن هذا بخور ـ يجب أن ينتقى حسب أدق ما يناسب من روائح . كما ينبغي اختيار الكتب والرسوم المناسبة ، حتى لا تؤدي الرغبة في تغيير وجهة الفكرة ، إلى إحباط . ويجب أن يوضع في المكان تفرع لمكبر صوت من أجل موسيقى منتقاة لا أهواء هجرة موسمية . وطوال ثلاثة ايام كنا مغمورين بالديالكتيك الإفراغي . صاحا بي أنت إفراغي بورجوازي (معروف حب الفرنسيين الجدال) ، وأجبتهما : أنتما افراغيان زائفا الزنجية! أيها الأحمقان الانقساميان ألا تستطيعان أن تفهما أن الجو يجب أن يخلق كما لو كان كنيسة ؟ لم تكن رحلاتي مع الكتاب والرفش إلا استكشافية . لكنهما قذفا بأندرو مارفل بين أسناني ، مرددين لازمة (فكرة خضراء لظل محمود) ، وإزاء رؤيتهما للطبيعة البكر والمفرغ الشجري ، صارت تحذيراتي من خطر الأفعى عديمة التأثير . ان

المرء ليشعر بالغبطة حين ينثر بذور الإفراغية في قارة اوروبا ، لكنها كانت هميمة صغيرة ، بالمناسبة ، ذلك لأنني كنت عاجزاً إزاء ارتدادهما المنكود... » .

أطبق ساجو الكتاب بكل وقار ، وبقي الاثنان في تأمل صامت .

« أعرف يا ماثياس أنك طبيعي . أنت في الواقع مستبصر . قليل من الناس لهم أصابع مدوزنة بدقة على أرواحهم... » .

« إن قلت هكذا ، يا آغا... » .

« أنا أقول هذا ، ياماثياس . الصمت . هذه هي المسألة . الصمت . أن تفتحها مع الصمت ، هذه هي عبقريتها . ماثياس ، ياصديقي ماثياس . لقد اختارك القدر كي تنقذني من مستشفى المجانين . إن حظي أوفر من حظ صديقي الشيخ . أما هو فذهب الى مستشفى المجانين » .

« لاسمح الله » .

« سيسمح الله ياماثياس ، أتدري أنني لم أكن اعرف أني مبيع جسداً وروحاً للسير رئيس هذا المكان ، والآن بعد اسبوعين من هجماتي القديس - جورجية على التنين ، يخبرونني ، لا ، حتى لم يخبرونني ، بل حكوا وجهي بالأمر ، بكل هدوء... هم يقولون انك ملك المشرحة ، فعد الآن الى العمل » .

« لاتخدعك النظرة الطيبية ، آغا » .

« لقد شووا الشيخ ، لأن الفارس الطيب يجب ان يتم انقاذه . لاعليك مني ، يا ماثياس . أعرف أنني أشعر بالأسف لنفسي ، بدون سبب . الناس امثال سيكوني ، ينتهون على اي حال ، على خشب المحرقة ، لكن... اللعنة... لا ينبغي لي أن أساعدهم في تكديس الحطب » .

أفرغ ماثياس قنينته « هكذا الحياة » .

« صمتاً ياماثياس ، صمتاً . لقد عرفت انواع الصمت كلها ، لكن حان الوقت لأتعلم اكثر » .

وإيمانُ الصمت . ايمان الصمت فوق كل ماعداها ، يجب ان توفى . إزاء الحب ، إزاء الحاجة وإرادة العطاء . والندم ، حتى الندم ثبت انه عاجز ازاء صمت كهذا الذي قضى على والد سيكوني بالمنأى الصامت حتى موته . فتاة مسيحية ؟ هذه الخطيئة الشائنة ، العاقة ، الزنديقة ، لم تعد تسفع ذاكرة الحاج سيكوني . لكن اليمين هو اليمين . وقد أطْلع الكبر رأسه المتعطش بينما هو يكاد يقع في الحب . قبل خمس سنين ، وقف بباب مكتب تسجيل الزواج ، وتوسل بغضب الأعاصير ، لعله ينزل على ذريته الخائنة . كانت عباءة الحاج تخفق منتفخة حول كتفيه ، مثل لمة لير على منبسط الاسفلت . وبقدر أساه ، كان استعصاء أساه . «لن افتح فمي لأكلمك أبداً أبداً . ولتأت منيتي غضبا من الله الجبار ان نطقت كلمة ثانية معك!» .

واليوم ، ها هو ذا الحاج سيكوني ، يكاد يكفّر عما سلف ، حزنا وقلقاً ، وهو يسكن عتبة الطبيب . كيف حاله ، ياسيدي ، أخبرني الآن كيف حاله ؟ هل سيشفى ؟ واعلم ، ياسيدي ، يجب الاينقصه شيء . هل تريد ارساله الى الخارج ، الى اختصاصيين ؟ لا ؟ الا يقولون أن سويسرة هي الفضلى في كل شيء ؟ ايها الطبيب ، أثمت شيء بمقدوري أن أفعله ؟ أثمت شيء يجب أن أفعله ؟ عم يتكلم ، وعمن ؟ أيذكر اسماء ؟ .

لا .لا . أنا اتساءل فقط... هل رغب في رؤية شخص معين ؟ تقول لا ؟

لكني سمعت أنهم في الغالب يرغبون في رؤية شخص او سواه . أهناك ممرضة معه ترعاه طوال الوقت ؟ لكن هذا ينبغي ان يكون... انه لأمر سيء ان يبدي رغبته في رؤية صديق له... أو قريب ، ونحن لانعرف عن رغبته شيئاً... لا . لا . ليس له اخوة او اخوات... حسناً ، ان كان ثمت شيء ، فربما تبديل الجو ، أنت طبيب ، ماذا ترى ؟ تبديل جو ، العطلة دائماً جيدة ، أليس كذلك ؟ .

الطبيب فهم أي الاثنين احوج من الآخر حقاً الى العلاج . وقد غادر المريض الأكبر سناً ، وهو في طريقه ، فعلاً ، الى المعافاة . كان موسم الحج

يقترب ، وعرف الحاج سيكوني ان لا أمل في الشفاء ، حين ادار ابنه رأسه ، ليس الى صيف لندني ، أو اسبوعين في البندقية ، وإنما الى مكة . يدا سيكوني المتفرستان ، المتقريتان المعجزات ، كانتا مثقلتين بالأمل والتاريخ وهما تقبلان أطلال القدس القديمة ، لا الحجر الأسود... لكن أنى للحاج ان يعرف هذا ؟ عبر أسواق تحف ومواد وذكرى ، مخلفا وراءه آلاف الاحرامات المهرولة في طواف الاربعين مرة حول الكعبة السوداء ، وموت الأربعة او الخمسة تحت الاقدام المهرولة ، كان سيكوني يغلغل اصابعه خلال الاسوار المتداعية للقدس القديمة ، واطئاً ، بدون رحمة ، تراثه ، قبل ان تأتي التأملات المقلقة ، والتماثلات المليئة فجأة بالمعاني . وأدركه روع ، روع كامل ، عصي على التحديد .

سيكوني بدأ ينحت بعد عودته مباشرة . كان عمله الأول نحتاً مسعوراً على الخشب ، سماه« المصارع » . لم يطلب من بانديلي او سواه ان يجلسوا امامه ، لكن وجه الشخص المركزي وهيئته ، متحمساً محرماً ، كانا لبانديلي بصورة لاتخطئها العين . اعصاب مشدودة ، في توتر موجع . بيثون ملتف تم الإمساك به في لحظة الارتخاء ، توازن الخنق قبل الاطلاق . كان العمل كله مطاطية وتوتر . والباقي ، شأن عمله الابداعي الذي استغرق شهرا او اكثر ، كان مسعوراً مستميتاً ، كأن الزمن يقف في طريقه . كان لكولا امتداد سقيفة مبني لصق محترفه الخاص ، فكان يراقب باحترام متعاظم ، كيف يحول سيكوني ، الخشب ، الى روح مطيعة ، روح كان ترويضها سحرا مضفوراً بالطاقة .

كان واضحاً ان وجه بانديلي حيلة عامدة ، لكن لم يكن من بد .

فقط ، هيئة بانديلي الفريدة كان بإمكانها الوصول الى هذا التواطؤ الفيزيقي المرن مع الشكل . كولا ، نادى جوغولدر الذي كان جالساً للوحة البانثيون ، ونظر غولدر الاميركي نظرة مديدة ، وهو صامت ، الى المنحوتة ، وعرض ان يشتريها . هز سيكوني رأسه ببساطة وتابع العمل . انه الآن يعمل ـ كانت

اللمسات الأخيرة ـ بتركيز لا هوادة فيه ، وببلاغة ، ولطفٍ مخالفٍ للجيشان السابق ، وبثقةٍ عاليةٍ جعلت كولا يشك في معرفته الرجل ، متسائلاً عما اذا كان سيكوني فعل شيئاً غير هذا ، طوال حياته . قال كولا « تعال ياجو ، لنرجع الى البانثيون » . أطلق جو غولدر أنيناً : « ولكن... ألايبيع المنحوتة ؟ » وبنفاد صبر ، ورنة حسد في الصوت ، لمزه كولا قائلاً : « اللعنة على تكسبك الاميركي » .

ووجد كولا أنه يغار حقاً . فإن لم تكن منحوتة « المصارع » واحدة من تلك الأعمال التي تحدث مرة في العمر ، نتيجة تناسقات بين الخبرة والتفوق ، فإن سيكوني ، فنان انتظر طويلا ليجد نفسه ، الا انه وجدها اخيراً ، ولم يدع للشك مجالاً ، اكيداً ، لم يكن اي ارتياب بيد سيكوني ، ولم يظهر اي ارتياب في محاولته الأولى هذه . وكانت شهادة جو غولدر هكذا ايضاً . جاهد كولا ، عبثاً ، وحيناً ، مع لوحته ، ثم ترك العمل فيها بقية اليوم ، معترفا بـ « أن (مصارع) سيكوني قد عطلني . لنستأنف العمل غدا » .

« عطلك ؟ لماذا ؟ معرفة الذات ؟ » .

« وددت لو كانت هكذا . لا . مجرد غيرة عادية ؟ » ثم انفجر « اللعنة! انت بنفسك تعرف كم جاهدت مع هذا الشيء » .

« لكنك لم تكمله » .

« المسألة ليست هنا . كان عليك ان تراقب سيكوني وهو يعمل . ثم ، النتيجة . ياإلهي! عندما تفكر بأن ذلك الرجل لم يفعل سوى اللخبطة مع المحطات الكهربائية... » .

« لا تكن غبياً ، إنك رسام رفيعٌ ، ياكولا ... » .

« لا تقل لي ذلك » .

نهض جو غولدر واتجه الى اللوحة ، لكن كول أوقفه . « مازلت لا تستطيع ان تراها ، أوه ، اعرف ان بعضها جيد . لكن انظر ياجو ، ذلك الشيء الذي يضربك غدرا في المعدة ، تحت الحزام تماماً ، غالباً مارجعت في الليل ، لأبحث عنه ، لأمسك ولو ببداياته » .

« ولكن كيف تتصور أنك تستطيع ذلك ؟ لقد رسمت ، ياكولا ، هذا ، بنفسك ، إذن كيف تأمل في ان تتصرف إزاءه بذات الطريقة التي تتصرف فيها إزاء عمل شخص مختلف ؟ » .

« أعرف ذلك . لكن شيئا اثار انتباهي حقاً ، حين راقبت ذلك الجواد الأدهم المتأتيء ... يعمل » .

قال جوغولدر « أوه . أظن أنك مجرد غيور » .

« وهل انكرت ذلك ؟ » .

جو غولدر ، نصف مازح في اول الامر ، جعل خوف كولا الكئيب أصعب على الاحتواء بما أبداه من طمع انثوي . بمنحوتة سيكوني .

كان ابتزازه مترددا في البداية ، لكنه حين رأى التعقيدات التي دفعت كولا الى اليأس ، غدا عديم المسؤولية فعلاً ، وأنانياً بصورة خطرة .

« إن لم تحصل لي على المنحوتة ، فلن أجلس أمامك ، بعد » .

قال كولا : « لست في مزاج المزاح » .

ورد غولدر : « وما أنا بمازح » .

بعد ظهر اليوم التالي ، لم يحضر جو غولدر الى المحترف ، فأسرع كولا الى المكتبة ، ثم الى نادي الموظفين ، لكن جو غولدر لم يكن في اي من المكانين . لم يكن بالامكان وجوده في غرفته ، الا ان كولا ذهب الى هناك ، مع ذلك . واخذته فكرة متأخرة الى حجرة الموسيقى ، حيث انبأه صوت صادح بحضور جوغولدر .

توقف حال رؤيته كولا . وقال « لدي تمرين » .

« لم يكن لديك ، أمس ، تمرين » .

« نعم . إنه اليوم ،كما ترى » .

وصاح كولا : « لا تكن هزأة . أنت تعرف تماما مقصدي » .

المرأة الانجليزية المصاحبة ، نظرت اليهما ، الواحد تلو الآخر ، ثم جمعت أوراقها الموسيقية وقالت : « حسناً ، نحن كدنا ننتهي علي اي حال ،

اسمحا لي » . صر كولا على اسنانه ، عارفا تماما ان المرأة تفكر به ، مادام كل امرىء يعرف ما كان جوغولدر .

قال بعد ان غادرت المرأة : « حسناً ، ألن تأتي لتجلس ؟ » .

« دع صديقك يبيعني المنحوتة... آنذاك اجلس » .

ارتمى كولا في كرسي : « مابالك ، بحق الإله ؟ ألاترى وجهك يبرأ سريعاً ؟ سرعان مايغدو عديم النفع » .

كان جو غولدر ، الاميركي ، وثلاثة ارباع الأبيض ، يكره وجهه ، وقد جرب عليه هولا بعد هول . عندما كان يجلس الى لوحة بانثيون كولا باعتباره الاله اوينلي ، دخل المحترف ، يوما ، وقد الصق ورق صحف مجعداً على طول وجهه وعرضه ، مكافأة تعرضه عصركل يوم للشمس المحرقة . صرخ به كولا متهسترا غضباً : « في اي حفل تنكري تظن نفسك ؟ » .

« شمسكم أشد جبروتاً مما ظننت » .

رمى كول حاملة الالوان جانباً ، لشدة يأسه : « اتظن حقاً اني راسم وجهك في حال كهذه ؟ » . ثم توقف ، اذ كان حتى وهو يتكلم ، يحدق اكثر في وجه غولدر ، ملاحظاً القسوة المختلفة في طبيعته الجديدة .

حين يكون جو غولدر قبيحاً ، يستغرق المدى الكامل للتحول . إن عينيه تنكشفان عن اتساع عجيب متضخم فوق الحد . احيانا ينبض رأسه بأسره ، كأنه مشدود بخيوط غير مرئية تحت البشرة الصقيلة كالجلد ، مثل جواد مذعور ، على حدود الصرع . ولقد كان يغدو قبيحاً بسبب كبريائه الجريح ، واحتقار ذاته . كما لو انه لم يأخذ الشمس مأخذ زنجي افريقي أصيل . لقد لاحظ كولا ، حتى قبل ان يبدأ لوحته عن البانثيون ، كيف يمكن لجوغولدر ان يكون احد الآلهة ، وحين بدأ عمله الضخم ، كان غولدر في مكانه المناسب باعتباره أوينلي ، ولو انه أقل وضوحا من اجبو باعتباره اوجون . أما الآن فإن البشرة المشوية تتقشر على وجهه ، في دوائر صغيرة ومنحنيات . ولم يبق على الوجه الا بقع نظيفة قليلة من ارض قاحلة... بحيث اكتسب جوغولدر قسوة

مابعد القربان ، وقد لصقت بوجهه نتف طيور ذبيحة . اختطف كولا فرشاته ثانية ، وخلط مزيداً من اللون على الحاملة ، وشرع يعمل بطريقة حانقة .

توسل : « ألن تنظف وجهك ؟ » .

« لا أتحمل حتى مجردلمسه . انت لاتتصور كم يؤلم » .

« حين أرى ثلاثة أرباع الأسود . أشعر ، مثل ايسو ، انني خدعت بحق ولادتي » .

« أنت تبدو مثل يعقوب وقد غطى وجهه فراء ممرغ » .

الأيام التالية كانت مفعمة بما كاد يكون يأساً . فقد اخذ وجه جوغولدر يتقشر سريعاً ، ويتناثر . كان اي نسيم واهن يدخل المحترف يحمل معه بعضاً من جلده ، يطفو على هذا الحامل وذاك ، وبعد عدة دورات يطير ، بلطف ، عبر النافذة المفتوحة ، بينما ينظر غولدر متسلياً ، ويراقب كولا يائساً . حتى اذا تحررت من وجنته قطعة كبيرة تكاد تكون ضرورية لالتصاق الوجه ببعضه ، قطعة مشوية تشبه نعالا تركيّاً ، آنذاك فقد كولا سيطرته ، وهجم عليها ، امسك بها بطرف الفرشاة ومهدها على الرسم ، حيث تركها شيئا ناميا من أذن اريتلي .

ثم كان عليهما ان يتخاصما حول الفازلين . كان جو غولدر يفزع من الألم كالطفل . لكن وجهه قد نشف بصورة قاسية ، وبمقدور اي مرهم أن يبطىء عملية التقشر .

« إنه مؤلم » ، ويصدّ عن وجهه اصابع كولا . «انه يؤلم بالطبع . من قال لك بحق الجحيم ان تسلق وجهك ؟ » .

والآن هذه . نظر كولا الى البشرة الهشة ، وراقب كيف ان توسله بالطبيعة الفضلى لغولدر لم يفلح الا في اثارة غرائزه للمناكدة .

جلس غولدر على الكرسي الفارغ للبيانو ، وشرع يعزف لحن الأغنية الروحية الزنجية التي كان يتمرن عليها للتو . اندفع كولا اليه واطبق غطاء البيانو على يديه ، بصورة حادة ، وان لم تكن مؤلمة جداً .

« هل ستأتي ؟ » .

« لا » .

« حسناً . لكني احذرك من الدخول في اي ناد ليلي بالبلدة ، بعد هذا . تجربتك الاخيرة لن تعد شيئا بالمقارنة مع ماسيصيبك» .

انكمش غولدر ، متذكراً . وتلاعب كولا على خوفه من العنف .

« لاتنس أنني اعرف دربي ، وانت لاتعرف . اي ناد ليلي... احذرك » .

استدار وغادره .

تردد جو غولدر . ايبادان بلا موسيقى الحانات...

تبع كولا الى المحترف .

٧

أما الآن فقد مات السيردرين . تحسس ساجو قوة ساقيه ، متسائلا عما جعله يشعر بضرورة الذهاب ، ورؤية السير درين اثناء دفنه . انهم يتوقعون منه تحقيقا واسعا ، بالصور . لكن الامر ليس كذلك . مصوره الفوتوغرافي سيكون حاضراً ، وخطيب الجنازة سيسعد بتقديم نسخة من خطبته ـ بمقدور ساجو ان يملأ صفحة كاملة بدون ان يتحرك من فراشه .لكن المسألة أنه شعر بالحاجة الى ان يذهب بشخصه . رفع نفسه على مرفقيه ، ونظر من النافذة . كان الطقس مثبطاً . فقد امتص المطر آخر نأمة حياة من العالم الخارجي . كان الهواء ميتاً . سمع قعقعة مقلاة بأخرى من خلال الباب ، وعرف أن دهينوا عادت من العمل . العاهرة ، العاهرة الملعونة . لقد ايقظته بقعقعة مقلاتها ـ عمداً ، كان واثقاً من هذا . مع هذا كان يشعر بتحسن ، إذ اجترح النوم معجزة شافية .

انفتح الباب : « إذن ، أنت لست ميتاً ؟ » .

« كم الساعة ؟ » .

« تقترب من الرابعة . أتريد أن تأكل ؟ » .

وقف ، وهو يختبر ساقاً بعد اخرى . وأعلن « باستطاعتي الوقوف » .

« أنا قلت ، أتريد أن تأكل ؟ » .

« نعم ، إن أوصيتني بذلك . لكن يجب أن أصب علي الماء ، أولاً » .

جلس ساجو طويلاً في الحمام ، وهو مليء بانزعاجات غامضة . سمع دهينوا تناديه عدة مرات ، بدون ان يشعر برغبة في الرد . وظنت دهينوا أنه غاب عن الوعي ثانية ، فاندفعت الى الباب وفتحته كاملاً . كان ساجو جالساً في الحوض الفارغ ، يتابع بأسى طول انبوب مطاط في يده . أجفلت ، وصفقت الباب ، بينما ضحك ساجو لنفسه .

«لكن... لماذا الحمام ، يادهينوا ؟ لم يوجد في هذه الشقة حمام ، ولا يوجد دوش ؟» .

«الدوش النقال في يدك» .

«هذا الشيء ؟ انه مرش ، منقط ، سر خصي . الاتعرفين ماهو الدوش ؟ ظننت انك ذهبت الى مدرسة داخلية» .

«أنا لم أبن الشقة» .

«أمس لم تمدي الطرق واليوم لم تبني الشقة وأحسب أنك لم تصنعي هذه الخزانة الكابوس أيضاً» .

ظلت صامتة ، فانزعج .

«إنه في كل بيت جديد ، هذا الشيء الهلامي الذي لايناسب الحنفية مطلقاً . الماء كله يأتي من الطرف ـ هاهوذا ، أنا أعرف . ثم ينطوي على نفسه ويسد جريان الماء . وفي كل الاحوال ، هو قصير جداً . كيف لي ان اتنظف وانا ازحف . اريد انصباب ماء شديداً على رأسي ، يطرق مسامع سكري ويعيدها الى مكانها...» توقف «أكنت تستمعين ، يا امرأة» .

«أراك منذ الآن ، وقد أدركك الهرم ، عجوزاً نكداً ، لا يطاق» .

«حسناً . مادمت تعرفين ماستواجهين» .

«لاخوف...» .

«والشيء الآخر الذي ستواجهينه . آمل في أنك أحببت مرآه» .

«عم تتكلم ؟» .

«عن ذلك الشيء الذي ملأك فزعاً حين فتحت الباب للتو» . وأطلق

صيحة ابتهاج عالية ، وهو يشعر ، خلف الجدار ، بصمت دهينوا الضاري .

« كيف تأتى لفتاة متحضرة مثلك ان تكون قمعية بهذه الصورة الخطرة ، لست أفهم البتة » .

« ذلك الحبل هو لتلميذات الثانوية الاميركيات ، لاتنس! » .

لا تهزئي بهن ، إنهن ، في الأقل ، لايتركن خُطّابهن يمسكون أصول افخاذهم ألماً ، بحضورهن » .

« واضح أن الأمر لايتعلق بخطابهن فقط . ام تراك خطبتهن جميعاً ؟ » .

« هكذا إذن ؟ لكن احذري . في احد الايام ستجدين نفسك وقد مضيت ابعد من اللازم ، وآنذاك سيتم اغتصابك ، يابنت . ستغتصبين بالطريقة القديمة الجيدة . فماذا ستقول أمك ؟ » .

بعد بضع لحظات ، ضحك ساجو ، مستمتعا بالفكرة ، ومتلذذاً .

« ياالهي... أكاد أسمعك الآن ، أنا حامل ، ياماما ، لكنها لم تكن غلطتي . لقد اغتصبت . وستقول امك العزيزة ، دبري رأسك بنفسك . ألم احذرك من صحبة ذلك الشمالي ؟ وبالمناسبة ، أنت لم تخبريني ، من هو هذا الشمالي المفروض أنك تخرجين معه ؟ » .

« وزير أنيق ، عنده يخت خاص » .

« كوني عاقلة . لا يمكنه أن يكون الثلاثة معاً » .

« امرأة مامن الهوسا ذات فضول ، سمعت اسمك ، فظنتك شمالياً » .

« ياليتني كنت شماليا حقاً ، حتى لاتصرعها سكتة قلبية حين نتزوج » .

« حسناً ، حسناً ، أنا لا أقول أموراً كهذه عن عائلتك » .

« مرحباً لو قلت ، يافتاتي العزيزة . أنني أكره أحشاءهم الرفيعة وأخبرهم بذلك » .

« دع امي وشأنها » .

« قولي لها ان تدعني وشأني أيضاً » .

« وما شأنها بك ؟ » .

« لقد قطعت الطريق كله ، من إيبادان إلى هنا ، كي تحتج علي . انه لتدخُلٌ مقصود . وبالمناسبة ، آمل في أنك لم تضلليها ؟ » .

« نعم . ولم أضللها ؟ » .

« حسناً . المرء لايعرف ماقد تفعلين . فربما طغت عليك تعاستها فتنازلت هذا التنازل . انت رضيعة كبرى لدموع امك... ألاتعلمين ؟ » .

وبعد ان انتظر ساجو ، يائساً ، أن تأخذ دهينوا الطعم قال : « الحق ، علي ان اتحدث الى جدتك لتتكلم معك . انها المرأة التي تستأهل العمر المديد » .

« طبعاً ، أعلم أنها المرأة التي تروقك » .

كانت الجدة ، حدقت في دهينوا تحديقا طويلا ، وهي تتفحصها باهتمام شديد .

« لم انت نحيلة هكذا ؟ كنت ممتلئة فور عودتك من بلاد البيضان » . نظرت نظرة حادة ، مخترقة عينيها ، ثم هزت رأسها بارتياح واحباط . ورددت « لا .لا أظن ذلك . ولكن ، اسمعي يابنت ؛ أنا أعرف طبعكن الجديد ، انتن الفتيات الحديثات... لاتكوني حمقاء مثلهن . ان كنت تتوقعين طفلاً ، فاحتفظي به . الطفل شيء جميل . المهم ان تعرفي اباه . نحن لم نكن لنخجل من الأطفال ، مهما قالت امك ، ثم انك لست غريرة » . تأثرت دهينوا ، واشارت الى ساجو « ياجدتي... ليس أمامه ، في الأقل » .

« ولم لا ؟ انه رجلك . أليس كذلك ؟ يجب ان يكون رجلك ، مادام قطع الطريق كله إلى ايفو . ايها الشاب ، آمل في انك اعقل منها . ان ولد لكما طفل ، فأرسل علي ، حتى آتي واباركه » . توقفت فجأة ، ونظرت اليهما معاً :

« وماذا تنتظران ؟ لم لم تتزوجا ؟ لا... لا تحاولا إبعادي عن الموضوع... أريد ان اعرف فقط . يجب ان تتزوجا ، وتهباني احفاداً... » .

خرج ساجو من الحمام ملتفاً بمنشفة ، قالت دهينوا : « طعامك جاهز » .

«آسف . لا أظنني قادراً على ابتلاعه الآن . ابقيه ساخنا ريثما أذهب لأتمشى» .

«حسناً» . قبلها ساجو على كتفها ، ومسح وجهه المبتل بعنقها ، ثم قرصها قرصة حادة . فصرخت .

«أنت أسوأ سكرتير خاص وقعت...» .

«ماذا ؟» .

«وقعت عليه عيناي... وعليك اللعنة ايها الشحيح» .

لأربعة أيام ، ظلت الشمس محتجبة .

«وكان ساجو يئن «لابأس ببعض الزنوجة... بأي شيء يدفئني» . وتذكر ان عودته من اوروبا واميركا كانت في الموسم الماطر ، وبدلا من الحرارة ، تلقى صعقة كهربائية ـ مرة بأصابع قدمه حين لامست ، صنبور الحمام ، ومرة بسبابته ، حين كان يدير رقم الهاتف . وعندما أخبر ماثياس بالقصة قال له :

«إجراء تقشفي . الحكومة تريد ان توحد ثلاث وزارات ـ الأشغال ، الكهرباء ، المواصلات» ، وانفجر مقهقهاً للفكرة .

واستخدم ساجو ، الفكرة ، في عموده الصحافي ، مقدما رهاناته : من من الوزراء الثلاثة المعنيين سيقتل الآخرين للاستيلاء على الحقيبة الوزارية الثلاثية . وقد جاءه هذا العمود بأول وفد عائلي ، احد عشر ابن عم في خليط عجيب لايكاد ساجويعرفه . وقد توسل له الوفد : ارجوك لاتجعل لك اعداء .

كان موعد جنازة سير درين يقترب . قد تكون الصلاة انتهت ، وابتدأ التشييع الكئيب . قرر ان يمشي . حتى لو تأخر على الطقوس التي تجرى بجانب القبر ، فإنه سيقف ويشاهد الدفانين يملأون اللحد بالتراب ، وربما شاركهم بحفنته . شيء ما ضربه بغتة ، يد مبللة مدت من سرواله حتى خصره جدارا صلداً من الوحل .

«أيها الجرذ! أيها الجرذ القذر!» وأحس بغضب مشروع ، اذ رأى في الأمر خديعة كبرى . كان ساجو اجتاز السيارة الخامسة المهجورة او السادسة ، وشرع ، كعادته ، يحيي المطر الماهد العظيم . كانت حافلة تلك التي رشته بالوحل . «أيها الجرذ القذر!» ، وهدأ قليلاً لفكرة ان يعدو فيلحق بالحافلة ويستقلها ، وطار مائة جندب في جمجمته ، فاستند الى عمود كهرباء كي تهدأ الجنادب . لقد جعله مرأى سرواله التالف غير مبال حين استأنف مسيره ، وهاهو ذا يخطو غير مهتم ، مخوضاً في الوحل ، دائراً بكاحله على الاحجار الغارقة . وقال ساجو انه اليوم الحقيق بالغرق . الإله في السماوات اطلق مجرى مياهه ، لينظف مرحاضه القذر . وكان ماشاهده ساجو طافيا على السيل هو من هذا القبيل . كان ثمت طبقة من الزيت ، وزيت النخيل على بركة بنية جرفت ، من قبل ، كوخ بائع طعام ، لكن ساجو قال ، انه زيت الخروع ، طبعاً .

الساعة لم تكد تبلغ الخامسة ، لكن ساجو اخذ يشاهد ، منذ الآن ، رجال الغائط . وقرر ساجو ان الغائط الى جانب الموت هو الجو الاكثر وطنية في بلدنا المحبوب . لم يمض شهر واحد على ما أخبره ماتياس من اخبار لم يكن ليصدقها . «لكن ، ياآغا ، الفم لايكفي . تعال انت لترى بنفسك» . وذهب ساجو ، مصطحباً مصوراً . لقد مر ماتياس بالمشهد ، صباحاً ، حين كان في الحافلة قاصداً عمله ، وقد انعطف سائق الحافلة انعطافه حادة مفاجئة ليتفادى البقعة . كانت البقعة حول زاوية مدرسة المنبعث الثانوية ، على مسافة بضعة ياردات من اول موقف حافلة تدخل شارع ابولي ايجيشا . رأى ساجو ، أولاً ، عربة الليل المهجورة ، والمقطورة ؛ وعلى مبعدة يسيرة كانت محتوياتها تغطي الطريق . ولاعادة الترتيب الحادث ـ كانت الكوة الضخمة انفتحت على سعتها ، ولم يكن السائق قادراً على التوقف بسرعة مناسبة .

على امتداد عشرين ياردة اكوام كبيرة من الحساء الثخين ؛ كانت عشرين ياردة من غائط صلب وسائل ، غائط عامي وسياسي ، غائط بلدي

واجنبي ، هناك ، تماما ، على الطريق المعبد . منع نوابزور ، بسبب عجيب ، نشر الصور على الصفحة ، قائلاً انها ستصدم عموم القراء . لكن ساجو قال : «لكن ذلك الغائط مايزال هناك... على الطريق الرئيس ، امام المدرسة ، وفي منطقة سكنية! » .

بعد خمسة ايام ، عاد ساجو كمن يحج ، والتقط مزيدا من الصور ليشاهدها نوابزور الذي لم يستطع اقناع نفسه بالذهاب الى هناك ، فظل في مكانه ، طاغياً ، عالياً . يمكن الاعتراف بأن الغائط قد قل ـ الكلاب لها أذواق مميزة ، وثمت سائقون خوضوا فيه بسبب بطء حركتهم ـ لكنه بقي في مكانه ، تيفوسياً كما كان ، موحدا في لون بني .

خلال الطرق الفرعية في يابا ، ظل نزاحو الغائط يدورون بخطاهم الناعمة حول النوافذ الصغيرة المقامة وطيئة في جدران المنازل الخلفية ، بوابين بلا وجوه ، صمتاً يعلوه غائط ، وضربات مكانس قصيرة تخفق من الغسق حتى الفجر ، رافعة رايات هواء مختمر . وغرق ساجو في رؤياه ، رؤيا السيردرين وهو يمضي الى قبره تحت قوس من المكانس القصيرة ، لكن هذه الرؤيا عبرت حين فكر ساجو بأن منظر هؤلاء الرجال يدنس الإفراغية الأصلية .

المطر ينث رذاذاً ، من جديد . شعر ساجو فجأة بالتعب ، وأوقف سيارة أجرة . كان بدأ يستريح للتو ، حين وقعت عيناه على مرأى عنق سائق سيارة الأجرة ، كانت عضلات العنق تلتمع بالماء ، متضامّة مثل امراس البريد والهاتف في عوازلها المزيته . لأي حزب ترى هذا السائق يقتل في الأوقات التي لايقود فيها سيارته ؟ امتدت يدا ساجو ، في هاجس مفاجىء ، إلى جيبه . لا حافظة نقود . وتذكّر الآن أنه رآها على مِزْيَنِة دهينوا ، وأنه كان ينوي أخذها . حاول ألا يُظهر الأمر ، وتحسس جيوبه ، الواحد بعد الآخر . لا نقود . حتى ولا قرش واحد .

«إلى أين ، يا سيد ؟» .

«إلى مركز الشرطة» .

إنه يعرف سائقي سيارات الأجرة ، المفردين هؤلاء . فهم يفضلون تسوية الأمور شخصياً ، على التوقف عند أول شرطي وتقديم شكوى . التفت السائق بحدة الى وراء ، وتولّد لديه تصورُ خاطىء . وعلى الفور صار مزاجه متذللا متملقاً :

« يا آغا... إذن ، حتى الشرطة النايجيرية لا تستطيع القبض على هذا المطر الأحمق » .

للحظة ، كاد ساجو يفضح نفسه . لكنه فهم وكف عن القلق . وبرنة تهديد خفيفة قال : « ما بال ماسحة زجاجك ؟ » .

وتأكدت المسألة .

« تقصدت الماسحة ، يا سيدي ؟ » .

لم يتنازل ساجو ليعيد سؤاله .

« هذه الشركات الحمقاء . اليوم ، اليوم فقط ، ذهبت بسيارتي الى التنظيف والخدمة ، وانظر ماذا فعل المطر . الماسحة لا توافق على ان تشتغل » .

« أيضاً ، ليس لديك عداد سرعة » .

« ياسيدي . أنت ترى بنفسك ما أعاني . دفعت ستة عشر باوناً اليوم للتنظيف والخدمة . مالم نتول ، نحن الافارقة ، هذه الشركات ، فإن... » .

« قف! » .

« اقلت يجب أن أقف ياسيدي ؟ » .

« قلت... قف! قف! » .

« أتوسل إليك ياسيدي ، ماتزال أمامي دعوى انني كنت اقود السيارة بضوء واحد... » .

« أأنت اصم ؟ قف هنا تماماً! » .

توقف الرجل ، وقد تحول الى قطعة هلامية الآن ، واقتنع أيضاً بأنه قد فقد الأمل في العفو بسبب تأخره في اطاعة الضابط . انه منبطح داخل السيارة ،

وهويفرك يديه متوسلاً . كان في الاقل متأكداً من علامة خارج الطريق . ان هؤلاء الشرطة أبناء الكلب يحملون العشرات من هذه العلامة .

خرج ساجو . وظل واقفاً لوقت طويل وهو ينظر إلى السائق المتضرع بصورة مضحكة داخل السيارة . ثم استدار ، ومضى بدون كلمة . انتظر السائق قليلاً ، ثم ابتعد ، وكأنه شهد معجزة . وفي يده مازالت ورقة الشلنات الخمسة المدعوكة التي كان مستعدا لتقديمها في حركة من حركات اليد الخبيرة .

عند الزاوية كان مخزن الخزانات الذي استلفت نظره حين مرقت السيارة . كان المخزن لصق مقبرة الغوميجي المهجورة ، ولا يفصل بين المخزن والمقبرة سوى طريق غير معبد . صانعو خزانات ، بموافقة من صاحبة السمو الخرقاء دهينوا ، السكرتيرة الخاصة ، الخ ، الخ . على هذا قرر ساجو ان يراهن بماله . على مقابض خزانة الملابس كانت الزهرة المتحجرة ذاتها .

« نعم ، ياصديقي ؟ » .

« لا .لا . لا أريد شراء أي شيء » .

« لدينا كل شيء . أثاث من كل نوع . ونحن مستعدون للصنع حسب الطلب » .

« أريد أن أرى ، فقط » .

جنباً الى جنب ، مع خزانات الملابس ، والطاولات ، والدواليب ، كانت التوابيت ، بعضها مسطح على عوارض خشب ، وبعضها بارز السطح ، يظهر زخارف برونز على الغطاء . نظر الى المقبرة ، حيث كانت باقات زجاج ، متشققة او كسيرة ، داخل كتل كونكريت ، ثم عاد لينظر الى خزانات الملابس ومقابضها الزجاج ذات الزهرة الميتة داخلها ، وعرف الآن من أين استلهم النجارون مااستلهموا... واحس بنوع من التعويذ والتطهير ، ومع هذا ، سجل ملحوظة ذهنية تتعلق بذوق دهينوا .

كان ساجو قطع جسر كارتر بأكمله ، دون ان يدري ، لقد زال تعبه نهائياً .

ليس اليوم ، بحيرة بطاقة البريد وشعر نات كنج كول وفقاقعه المشحمة ، ليس الآن ، النخل المتحجر والشاطىء المتقد . البحيرة كانت اكواخ صراصير من سيقان الآكو تحيط بحوافي الماء وتقضمها قضماً قلقاً . لاحظ بارتياح ان الجسر مهجور ، وفكر ثانية ، كيف ان هذا اليوم هو يوم مثالي للغرق ، بينما كان ينظر غريزياً إلى الماء ، وهو يكاد يتوقع رؤية جسد طاف ، ممتلىء بالماء بحيث لايمكن انقاذه .

فجأة ، صحت السماء ، كأن معجزة حدثت . ام تراه المطر توقف منذ امد طويل في الجزيرة نفسها . لكنه حين قطع الجسر صار الهواء خفيفاً ، وتفتحت السماء في غروب سياحي ، تفتحت صائحة هادرة للموت كي يداهم ساجو مثل طفل خشن ، تدلى لسانه المتخشب .

وعندما توقف ينظر الى قسم الخمور في واجهة المخزن الفرنسي ، مستغربا من هدوئه وهو يشاهد هذا العرض السخي ، شاهدت عيناه ، في الزجاج ، صورة للموت ، فاستدار هاتفا : «أية فكاهة ؟» .

سيارة مقضقضة ـ تبدو مثل فوكسهول ١٩٤٥ـ كانت تتقدم ببطء ، حتى ليكاد أقرب تابعيها يصدمون رجليهما بمصدها الخلفي . كانت أعظم مهزلة ترتكب أمام الموت . كانت ذات صندوق مفتوح ، اما الروث الطالع من الصندوق فلم يكن سوى التابوت . اما الموكب ـ وكان معنيا بعدّهم ـ فليس سوى احد عشر . كانوا يتّسمون بالخرق ، ويبدون حزانى حقاً . امر لايمكن تصديقه ـ مادام الأحد عشر رجلاً كلهم ـ لكن باستطاعتك القسم انهم كانوا جميعا يذرفون الدمع ، والواقع ان قلة منهم مازالت تفعل ذلك . الرجلان اللذان كانا يقودان الموكب مرتبكان بشكل غير ضروري ، ولاتكاد سيقانهما تفارق المصد . كانوا يسيرون الى جانبي التابوت الناتىء . وهو تابوت خشن ، مبتذل الصنع ، اسوأ مما شاهده قبلا في معامل خزانات الغوميجي ، كان مذهباً أردأ تذهيب ، لامعاً بطلاء شمع احمر قان . كان يبدو مثل لسان مدمن من مدمني جوزة الكولا . ظل ساجو يتمتم ، حمقى... ، لم لم تربطوا التابوت ، في

الأقل ، على سقف السيارة ؟ الامر لايعني ، كثيراً ، الميت ، لكن... أكنتم بحاجة الى ان تجعلوا الموت شائناً هكذا ؟ بسترة وسراويل زرقاء ، كانت كل قطعة من هذه لاتناسب الأخرى . والمشيعون ذوو احذية التنس الفاقدة خيوطها ، والياقات الغائرة وحدها ، كان كل واحد منهم يبدو ذاهلاً ، مذنباً ، يحس بجريرة أنه كان ينبغي القيام بأكثر مما تم لأجل المتوفى كانوا ينطقون بهذا لأنفسهم ، وهم ماضون نحو مقبرة ايكويي ، بينما المتوفى يمد لهم لسانه ، ويترنح ، ويتحدى المشيعين ليدعوه يسقط . حدق ساجو بشدة . بدا أن رجلاً أبيض يمسك بالمقود . ناغم خطوته ، وهو لايكاد يفكر ، مع الرجل المضحك في آخر الموكب ، وتحرك الجميع اسفل شارع جسرمولونيي ، باتجاه الجسر القصير ، وهو جسر شبه رمزي ، بسبب وضعه ، وكونه يفصل الأحياء عن الموتى . ومع الموتى ، يضع ساجو أحياء الضواحي في ايكويي ، حيث يعيش بقايا البيض ، والجدد السود ، في خواءٍ كولونيالي .

دقيقة اخرى فقط ، ويتبدد موكبه المتبنى . قعقعة عجلات حادة ، ووقع الف قدم ، جعلت الأرض تهتز ، حتى لقد شعرت قدما ساجو بهذا ، فتساءل ان كان الآخرون أحسوا بمثل ما أحس . وبخاصة ، السائق الممسك بالمقود ، والذي كان يقود السيارة جدّ جنائزي . وفكر ساجو بأن يتقدم اليه ويحذره من القطار الآخر ، حاثاً اياه على الاسراع . لم يفعل ساجو شيئاً ، وفضل مراقبة ما سيحدث لو التقى الاثنان على الجسر ، وقد التقى الاثنان . وبالاحترام الاوتوماتيكي الذي يكنه الفقير للغني ، توقف موكب ساجو ، بينما مر الموكب الآخر بطيئاً ، قطارا طوله ميل من السيارات والبشر المشيعين . اربعون سيارة في الاقل ، كانت تتبع النعش المسحوب باليد ، والسيارات جميعها كانت مثقلة عاليا بأضاميم الزهور الملطخة بالدم . النعش نفسه كان مكسوا بالأكاليل ، والمشيعون يحملون الاكاليل الباقية على اذرعهم . قال ساجو حمدا لله على جنازاتنا الفاجرة . لو حدث له وصار صحافيا حرا لعرف اين يذهب أيام الشدة . حفلات الزفاف ايضاً ، نعم ، تسمية الاطفال ،

والخطوبات ، وحفلات الكوكتيل ، لكن الجناز ، بيقظة الليل كله ، وخروجه والأيام الأربعين لتقليب الجسد ، والصلاة لراحة الميت بعد بضعة اسابيع ، ثم التقليب الثاني للجسد ، وأعياد ذكراه المفاجئة غير المعقولة ـ هذ الجناز ، باستطاعة المرء ان يمضي حياته كلها محتفلاً بشخص ميت . والعديد فعلوا ذلك .

في إحدى سيارات المقدمة ، كان وجه مغضن في تركيز مؤلم على حزمة أوراق انه خطيب الجناز ، بلا شك . وأحس ساجو ، ثانية ، بأن مشيعي تابوته المشاة قد خذلوه . إن كانوا بدوا حمقى سابقاً ، فإنهم الآن يبدون حزانى . كانوا مستغرقين في حزنهم بلا شك ، لكن الامر يتطلب اكثر من ذلك كي يظل المرء صامتا بينما يمر موكب الاميال الخمسة بسرعة اربعة اميال في الساعة ، في مجد يكرر نفسه . فشلوا في أن يظلوا غير مبالين بالأبهة العابرة امامهم ، وكان ارتباكهم يدل على ضيقهم ، وشغل كل واحد نفسه بمراقبة كعب الحذاء الرياضي لمن امامه . اما المصد الملتوي فقد نفع الاثنين اللذين في المقدمة .

لكن مسرحية الأقنعة الاخرى . الاتاوة الاخيرة للسير درينولا على ابناء بلده ، لم تجرؤ على تحويل نظره عن زجاج السيارة المتقدم ، او عن تفكيرهم بما يأملونه من جنازتهم في أن تكون قريبة من مجد هذا الابن الشامخ من ابناء وطنهم . فإن كان المرور قد انقطع لمدة ثلاث ساعات بسبب تشييع السير درينولا ، فإنهم قد يدّعون بست ساعات . مر نصف موكب السير درين قبل أن يأتي شرطي لإنقاذ المشيعين المشاة ، فيوقف الحشد ، ويسمح لخيطهم الرفيع بالانسلال عبر الجسر الأخير . وفي المقبرة ، تقبل الجسدان ، المفصولان بمائة قبر أو أكثر ، مصيرهما المشترك ، ومضيا الى الشطب النهائي .

انضم ساجو الى موكب السير درين ، وشق طريقه بعزم ، حتى بلغ الأكاليل المكدسة . وبكل صراحة ، اخذ اكليلاً زجاجياً ، وإكليلين طريين ، وهو يغمغم... إكليل الزجاج للروح القدس ، والبقية للابن والأب... أنت مدين لي بذلك ، في الأقل ، ياسير مشرحة... أنا متأكد أنك لاتهتم بهذا .

وبصعوبة ، شق طريقه ثانية ، خارج الموكب ، في الوقت المناسب ليرى رجالاً آخرين يصارعون كي يخرجوا التابوت من الصندوق . قدم ساجو ، الأكاليل ، إلى أقربهم بدون أن يقول شيئاً . آنذاك فقط عرف أن السائق لم يكن رجلاً أبيض ، وإنما كان أمهق . بقي هناك بضع دقائق ، ثم امتلأ باستنكار مفاجىء لدوره ـ فالآن فقط وثبت في ذهنه فكرة أنه انضم الى هؤلاء لسبب واحد هو أنه رأى فيهم قصة صالحة لصفحته ـ استدار وتركهم ، تماماً في الوقت الذي تقدم فيه الأمهق ناحيته ، ربما ليشكره على الأكاليل .

مشى سريعاً ، في شبه هرولة ، خارجاً من المقبرة . في رأسه تقرع الكلمات ثقيلة من مكبرات الصوت في كل مكان ، وكأن الخطيب يقرأ مدائحه لألف مشيع ثقيل . هرب ساجو ، متبوعاً بالصمت الذي لايخلف في العالم سوى ضجات من مثل .

... حياته إلهامنا ، مثاليته آمالنا ، خلاص روحه بيننا أمل نايجيريا المستقبل ، في الكمال الخلقي والتجدد الوطني...

٨

اركض يا زنجياً مسكيناً ، اركض ـ انها لازمة لقصيدة بائسة حقا كان ساجو قرأها في احدى صحف «البحث عن الهوية» ونسيها منذ زمن ، هذه اللازمة تركض الآن في رأسه ، وتبعث دقات لهستيريا تجمعت تحت شرفة فندق اكسلسيور . بدأ الأمر ، تماما خلف سوق أوينجبو حيث لاذ محترفو البطالة ، لوقت قصير ، اتقاء المطر ، كي يخرجوا بعد ذلك ، متغلغلين في البضاعة غير الحذرة ، ملتقطين مايقيم الأود . الصيد يلتقطهم في طريقه . ثم ينضم مستطلعو انباء السباق . باعة الساعات الجوالون يحشرون آلات مشكوكاً فيها ذات سبعة عشر حجراً ، عميقاً في الجيوب ، ويزيدون في الهاربين ـ اركض يا زنجياً مسكيناً ، اركض ـ ناظم الشعر هذا برأ من هاربه مسيحاً ، وحثالة أوينجبو ليست بديلاً رديئاً . بيلاطس البنطي تردد لحظة واحدة فقط أمام واجبه الدقيق ، لكن إحساسه بالواجب انتصر . أدار مؤخرة منشاة وظل يغسل يديه في مجرى السيارات . هكذا جاءالحشد عبره ، وتدفق في ساحة وقوف السيارات انزلق على القطران الرطب ، ونهض موحلاً متهللاً ، واختطف حقيبة يدوية أو اثنتين في فرصة سانحة ، وسود الأرض أمام المجثم المكتل الذي كان يدعى فندق اكسلسيور .

قفز ساجو من الحافلة ، وانضم إلى الحشد ـ اركض يا باراباس ، اركض ـ اركض ، أيها اللص الصغير وإلا أجاز اللصوص الكبار قانوناً ضد وجودك

باعتبارك تهديداً للمجتمع . تبعهم ساجو... . اركض ، يابارابا س ، من الحشد نفسه الذي سينصلح غداً ، ويهتف للص الأكبر العائد من مهمته الاقتصادية العشرين ، ويرفع ـ في حكمة الكلاب ـ بأسنانه ، قطاره من الوحل .

الشاب اختار بالاكراه ، وأطلق بيتاً واحداً عنيفاً لأمان البحيرة المشكوك فيه .

أولي! أولي ـ ي ـ ي ـ ي!

تقدم لاغوس مثل هذه المطاردات يومياً ، النشال سيئ الطالع ، والجمهور الضجر . انه استعراض معنوي ، أما الحافز فهو الأمل في الضرب المبرح بلاتمييز .

الولد الرجل ، الذي هو بالكاد هذا أو ذاك ، بدا كأنه يتكلم . لقد حاول مراراً أن يتكلم . لكنه كلما سيطر على فراره ، نجم نبت جديد تحت قدميه ، فاستحثه الخوف كي يمضي قدما . وها هو ذا الآن يصيح بالحيرة .

« لكني لم آخذ شيئاً... . أقسم أنني لم آخذ شيئاً... . »

كان ، بصورة مضللة ، رمز النقاء ذلك الصباح ــ فمع احتجاب الشمس ، كان قميصه الدانسيكي الحرير الناعم ، وسرواله مستدق الطرف ، يخفقان ، أبيضين بشكل موجع ، على مسقط الصباح الرمادي . ثم انه كان جميل المحيا . وحين عادوا به ، عارياً إلا من سرواله التحتاني الأسود ، كان له ، حقاً ، جذع أحد معذبي الاحتضار ، غير المقدسين القداسة كلها . لم يمض ساجو ، أبعد ، في المقارنة . لقد كان وهو يرتدي قميصه الدانسيكي الأبيض ، فوق الشكوك ، مع أية جماعة ، أما وهو هارب فقد كان يمثل المشهد المخجل للظلم . كان ، مع هذا ، مرتبكاً ، بل لم يكن حتى عداء ظافراً ، أم تراه الخوف... .

لكن التعويض كان هناك ، في بولات الحرير الأبيض المدومة حول إبطيه ، والتي تستحث ساقيه النحيلتين ، اسرع ، نحو ملاذ متخيل . حتى عودته لم تكن مخزاة .

لقد فقد حريره لكنه كان صامتاً ، وقد غاب الخوف عن وجهه ، ووبخت خفته الشخص الثقيل الذي كان مخلبه الأشعر يمسك ، على نحو أخرق ، سروال صياد السمك القصير الذي كان يرتديه اللص .

كان يمكن أن يراق الدم في المطاردة المفتوحة . باراباس كان يسبق مطارديه في البداية ، واشترك سائق سيارة في مطاردة الهارب . التركيز المكفهر في وجه السائق لم يترك أي شك ، إطلاقاً ، في أنه كان يريد أن يسحق ساقي اللص ، حين جاء هذا بمحاذاة مقدمة السيارة . باراباس وثب\اتهديد جديد في ضجة المحرك اخترق انتشار رعبه آنذاك .

صرخ ساجو لا إرادياً : « ذاك السائق أراد أن يقتله! » .

صاح رجل بجانبه « اقتل النغل! » .

لم يكن الأمر مجرد أنه أراد أن يتعلم الحشد درساً ـ ثمة شك في أنهم كانوا قادرين على ذلك ـ لكنه صار معتادا على تفكير يتطلب تركيزا حاداً عنيفا على المشكلات الساكنة . مثل هذه البربرية العابرة لهذا الحشد ، وغدره بأولئك الذين كانوا ، للحظة ، دونه في الانحطاط اليومي .

دخل الفندق راكضاً ، وارتقى السلم واثباً حتى ولج الشرفة . انه الآن يستطيع ان يشاهد أعلى من رؤوس المطاردين ، يشاهد باراباس وهويتفادى ، للتو ، مهاجما انطرح لوقت وجيز ، ظهره على الارض ، وساقاه متباعدتان . هتف ساجو ، لكن بالرغم مما في المشهد من رياضة ، فإن الحشد لم يبدد هتافاته على مراوغة اللص . فقدت ساقا باراباس كل شك . ومثل جن الرمل في اوجبوجو اودي ، تمثل الرعاع في كل خطوة ، وكل وخزة حجر أصابه ، أو لفحة ريح من حجر أخطأه... وأخذ يتمنى خلاصاً رحيماً .

« ولكن ماذا فعلت... ايه... ماذا فعلت ؟ » .

بعد محاولته هذه عرض قضيته ، استسلم لحكم معذبيه ، واتجه نحو البحر . الحشد يحجب الآن الرؤية عن ساجو وهو في هذا العلو ، وتذكر حديقة السطح .

استرد انفاسه بعد ان ارتقى ، لاهثاً ، متمعجاً ، اربع مجموعات سلالم .

انه الآن في الطابق المستوي . كان ثمت رجل ، يريح يديه على الحاجز . لكن ما ادهش ساجو هو ان الرجل كان وقف على مبعدة يسيرة منه في الطابق الأدنى .ماكان باستطاعته ان يخطئه ؛ ليس فقط لأنه امهق ؛ لم يكن ساجو ليخطئ القفطان والطربوش والنظارتين السوداوين . من الأسفل... «لا تدعوه يذهب الى الماء... لاتدعوه يذهب الى الماء...» .

اللص ، اللص الاعتيادي ، هو سوبرمان . بمقدوره القفز من الطابق السادس لعمارة ؛ وقطع نفسه وهو يقطع البحيرة ، بطولها ، سابحاً ، لذا لم يشك احد انه سوف ينجو اذا مابلغ الماء .

ألقى باراباس بنفسه ، اسفل المنحدر المتآكل ، نحو الماء ، وانزلقت الأقدام القليلة الباقية ، على عجيزته ،انزلاقا سمجاً . نهض بسرعة ، دائراً بالبحيرة حيث تكون الأرض متدلية اسفل الضفة بحيث لا يمكن أن يراه أحد لمسافة عشر ياردات . اتجهت العيون نحو الضفة الاخرى حيث المفترض ان يظهر ثانية . عندما ظهر ، انتصب ، وخلع ، بهدوء ، ثيابه ، ثياب الشهيد .

جزيرة صغيرة لاتكاد تسع انساناً واحداً ، طلعت من الماء ، بعيدة قليلاً عن الضفة . وباراباس ، الذي حمل ملابسه على رأسه ، اتجه نحوها ، فبلغها ، وجلس هناك ، بعيداً عن المتناول . كان المعنى واضحاً . عند أول اشارة خطر ، سيقفز في الماء .

«في الواقع ، يمكن ان يكون الفتى بريئاً» .

كان الصوت جد قريب منه ، بحيث كاد ساجو يخرج عن جلده . لقد اقترب الرجل الغريب ، وهاهو ذا يقف بجانبه . تردد ساجو ، واعتزم أن يكون مهذباً .

«لا أظن ذلك» .

صمت الأمهق ، دقائق ، ثم قال «كأنك لا تتذكرني!» .

نظر ساجو إليه ، ثم هز رأسه اخيراً . كان الأمهق ينظر الى المشهد عند

البحيرة « كلنا سيخاف حين يتهم خطأ . قد يحدث هذا لأي شخص . أليست هذه حقيقة ممكنة ينبغي أن نأخذها بنظر الاعتبار ؟ » .

« العادة أن الحشد لايخطئون في الرجل ، لكنه قد يكون بريئاً » .

كان الحشد يفسح الطريق لرجل . قال الأمهق « ربما كان شرطياً . اللص يتمنى ذلك . وإلا تعذرت عليه مغادرة المكان » .

قال ساجو ، المنزعج الآن ، بسبب الحضور المستمر للرجل « يبدو انك على دراية بعادات اللصوص » .

قال الأمهق « أوه ، نعم » .

يبدو أن مساومة كانت تجري بين القادم الجديد واللص . ثم صاح الرجل بالناس المحتشدين ، وقال لهم ان يذهبوا لشؤونهم . كان ثمت غماغم امتعاض وهم يتراجعون قليلاً . للحظات راقب باراباس المناورة . وبعد ان تأكد من سلطة الرجل ، ترك مجثمه ، وتسلق بثقة ، ليكون في حمايته .

أفسح الحشد مجالاً لهما . كانت يد الرجل ناشبة في السروال القصير للفتى ، الممسك القوي الوحيد في جسم ينز عرقاً .

لكأن مطارديه السابقين فقدوا اهتمامهم . كانت ثمت جيوب لاطلاق استنكار ، الا انها لم تنل التشجيع . وتحولت تهديدات المطاردة المبكرة الى فضول خافت ، يعني لدى معظمهم لمحة اللص الأولى .

ماكان بمقدور ساجو ان ينسى وجه السائق ساحق ـ الساق ، وقد تبينه الآن بين الحشد ، واضح الخذلان ، وإن كان غير قادر على الاعتراف بفشل تعطشه للدم . شق الرجل طريقه الى امام ، وانتصب في موضع سيمر به باراباس مباشرة . وحين جاء الاثنان صرخ شاتماً ، واهوى بهراوة على وجهه .

نسي الحشد ضبط أعصابهم ، وانتزع باراباس من حاميه ، وسقط تحت تلهف مئات الضربات الخرقاء . استدار ساجو ، بدون تفكير ، وهرع الى السلالم آملا بطريقة غامضة في أن يفعل شيئا لانقاذ الفتى . آنذاك ، فقط ، عرف ان الأمهق اختفى . أسفل السلم الأول توقف ساجو . كان لديه إحساس

مباغت بالثقة ، ليس له تفسير ، وعاد الى حديقة السقف ، منتظرا عودة الأمهق الى الظهور ثانية بين الحشد .

« ضربته! ها ، يا... ضربة جيدة ، تماماً على وجهه... » .

« أرأيت ؟ بالضبط على معدته الجشعة ، والله... » .

« ... فقط ، اعرني عصاك... » .

في لحظة ، عاد الأمهق الى الظهور وامسك بالفتى . وقام ، مع رجل آخر بحمايته من الحشد ، وكانت وسيلة الأمهق ، بخاصة ، سيلا من الشتائم المقذعة لايوفر أحداً . كما أن خصومه لم يكونوا ساكتين .

« ياأبا الوطاويط! » .

« اللصوص دائما يتساندون » .

« أأنت تستحي ؟ انزع نظارتيك لنعرف وجهك » .

كل شتيمة كانت مصحوبة بقهقهة هادرة ساخرة ، لكن احداً منهم لم يتقدم للإمساك به... « أكانوا بلا حطب في البيت ؟ لقد نسيت امك ان تخبزك جيداً... » .

دفع باراباس داخل المصعد ، وصفق الأبواب عن رأيه في حرفة أمهاتهم ، وامراضهم الجنسية التي انتقلت اليهم ، كما قال من أخواتهم . حاول الشرطي المهزوم ، محاولة اخيرة ، كي يمسك باراباس ، لكن المصعد انطلق .

هبط ساجو مسرعا الى البهو ، ووقف امام المصعد ، كي يعرف اين سيأخذون الفتى . خارج الفندق ظل الحشد يعوي مستنكرا . لكنهم سرعان ما يتفرقون ، اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، يتسكعون ضجرين في الأسواق ، حتى تسنح مناسبة أخرى ، موكب زفاف ، أو حادث سيارة .

وقف جانباً حين توقف المصعد وخرج منه الرجال . تردد ساجو ثانية ، مستعيداً محاولة الأمهق فرض صحبته عليه . خرج الرجل وبادره « إنني أشعر بالعقوق إذ لم أشكرك ،على هديتك لأخينا الراحل » .

« لا أتذكر... » .

«في المقبرة ، قبل اسبوعين . جئت بأكاليل لدفنه» .

طبعا . الأمهق وراء المقود .

«أردت أن أشكرك ، لكنك كنت غادرت سريعاً» .

«أنت تتذكر الوجوه جيداً» .

«ليس هكذا . لقد رأيت صورتك في عمودك الصحافي . عرفتك ذلك اليوم» .

«آه ، طبعاً» .

«أكان صديقك ؟ أقصد أخانا الميت... .» .

«لا . لم أكن لأعرفه قط» .

دهش الرجل «لم تعرفه ؟ لكن... .» .

«ارجوك ، لا تستنتج شيئاً . لقد اخذت الاكاليل من الموكب الآخر الذي كان مكتظا بها» .

«هكذا... إذن أنت من رجال الله» .

«أنا ؟» .

«نعم . والآن ، يا سيد ساجو ، هل أستطيع المجيء الى مكتبك والتحدث معك ؟» .

«أي وقت تشاء . أتعرف أين يقع ؟» .

«نعم . أريد أن أعقد معك محادثات هامة» .

صافحه الرجل ، ومضى ، وتساءل ساجو ، ماذا يظن ؟ انه لم يبتسم حتى مرة واحدة منذ لقيه اولاً ، كما انه لم يكشف الآن شيئاً من خلال نظارتيه السوداوين . من هم ، اذن ، اخوة الفوكسهول المضعضعة والجثة الناتئة ؟ اما دور الأمهق في انقاذ اللص ، فقد كان يتسم بكفاءة باردة جعلت اعصاب ساجو تثلج قليلاً .

كان للأمهقين ، دوماً ، تأثير مقلق ، لدى ساجو ، ويبدون كمن لا يشاركونه اتساقا طبيعيا عاديا... راقب ساجو ، الرجل ينسحب في البهو ،

ويختار هو ركناً معتماً بالغريزة ، حتى يكون بمقدوره ، ان يرى اللحم الابيض فقط في مؤخرة عنق الأمهق ، الذي كان ، حينها ، يسحب كرسياً . اندفع الكرسي إلى أمام ، واستقر على مسند الظهر ، بينما كان يرفرف وهو يتكلم ، وطواطاً شاحباً في عتمة الركن .

أوقف ساجو ، بحدة ، تخيلاته ، وقرر نسيان الرجل ، الى ان يبحث هو عنه .

٩

كان اجبو يرى في المنزل بانديلي مطمأناً ومعنى ، بحيث تحولت الأوسا ، لديه ، دائماً ، الى حج غير ذي معنى ، لكنه ضروري . ففي متناوله حضور أصوات باعث للثقة في جو تطلب منه الأقل ، الأقل من المنابع التي ينبغي على المرء ان يحفرها في مخاطرة مثل بئر نفط يمكن أن يظهر جافا في وقت يكون فيه افتراضه بأمس الحاجة الى البئر . ثمت انتشار اكبر ، مثلاً ، في الغرامافون الزاعق الذي يحاذي طريقه الى الدائرة ، وفي الأبواق المجنونة لسيارات الاجرة ، وفي لعنات البائع العنيد والمشتري المساوم ، وفي النسخة البيروقراطية لهذا كله ، ملفات ، ودقائق ، ورطانة دبلوماسية .

صدقات فاترة لـ «اتحاد ابناء الأوساء»... رسائل بين الشيخ وبينه... هذه كلها أقامت وشائج مستسرة... وفودٌ ايضا لتتحقق منه ، مرسلة من لدن اجبو أونوسا كما عرف ذلك جيدا ـ المصير ، انهم يرددون دائماً : مقدر لك أن... كل هذه واكثر... حاجته الساحقة الى الحفاظ على تلك العلاقة بوجودٍ ما خارج الطريق المرسومة... والغبطة الخفية لفكرة ان ثمت مملكة تنتظره حين يحتاجها ، مملكة من خلال ابنتها التي لم يستطع ان يتذكر وجهها البتة ، والتي ظل يتساءل ان كانت تشبه عمته قليلاً... ريح قلقة بذرتها الخلجان... ارتجافة كامنة للسلطة . لم ينفعه هذا كله شيئاً . انه لم يكد يلامس اللب حتى شعر بأن اللب يراوغه . ولم يكن هذا ، الآن ، مسألة ضمير ، بل هو طريق

الحكمة ، وبالنسبة لرجل بذاته ، مجرد مسألة غرق ، يكمن حلها ، لدى اجبو ، فقط في اختيار الغرق... مثل عتمة الغيضة ، ثم الماء الآخر ، ماء الجسر المعلق ، وهو يرى في لحظة لمّاحة ، الماء ، معلقا حقاً ، جسرا من مياه معلقة سلسبيل . وهو لم يفعل الا معاودة الغطس ، فقط ،في الكذبة الخارقة العتيقة لرسومات ساكنة ، مغمغماً : إلام يظل الموتى الحسودون بيننا!

« لم أنتم مستمرون في التفقيس ؟ » ، بانديلي عرف دائماً ، وتماماً ، متى يجلد تفكيره بقرار الأوسا . « لقد اوصلت نفسك الى نقطة الاختيار ، وهذا ينبغي ان يحدث كما تعرف » .

« حتى ذلك الاختيار هو اجراء تسلط وطغيان . إن هبة الانسان الحياة يجب ان تكون منفصلة ، شيئاً غير ذي علاقة . كل اختيار يجب ان ينبع من داخله ، وليس من تلقينات ماضية » .

« انت تظل تتحدث عن الماضي وكأن لامكان له بيننا » .

« يجب ان يموت . وأنا لا أعني الانطفاء الجسدي ، حسب . لا . إن ما أقصده هو المستحجر الكائن في المجتمع ، اقصد الأغصان الميتة في الشجرة الحية ، المخاط الميت على الجذع . حين يموت الناس ، بمعنى أو بآخر ، فينبغي الا يهمنا ماذا كانوا يعنون لنا . انهم مدينون للأحياء بواجب ان ينسوا نسياناً سريعا ، نافعاً . صدقني يجب الا يكون للموتى وجوه » .

قال كولا : « أنت وساجو متفقان ، إذن » .

« إنه سياسي » .

« ماذا تعني ؟ اخبرني عن الافريقي الذي لايقي سياسة الآن » .

« أترى ؟ أنت لاتعلم حتى ماأتكلم عنه . ألاتستطيع أن تدخل في رأسك أن سياستك الدولية أو القومية لاتساوي شيئاً إن لم تكن شديدا على بنية الماضي ونسيجه » .

وتساءل كولا « إذن ، مم تشكو ؟ » .

« لاشيء . لاشيء مادام رأسي موجوداً » .

« وإلا... ؟ » .

صاح اجبو ، نافد الصبر ، الآن : « أمستحيل إلى هذا الحد ، ختم الماضي ، وإبقاؤه وحده ؟ دعه يظل في وعاء مفارقته التاريخية ، بحيث نستطيع أن ننغمس فيه حين نشاء ، ونتركه بدون التزامات ، بدون أعباء! المرء يحتاج هذا ، خاصة وأن الحاضر ، المماثل في لاجدواه ، يميز نفسه فقط بنقص فادح في الشجاعة ، بالأخص » .

تدخل بانديلي بهدوء : « مما يعود بنا الى الأوسا ، أليس كذلك ؟ » .

« أنا أتكلم الآن بصورة عامة » .

« بكل تأكيد ، بكل تأكيد » ، قالها ، وضحك ، ناهضاً ليجيب الطرق المتواصل على الباب .

عاد بعد لحظات ، ملوحا بعدة اوراق فولسكاب : « كما ترون ، هدية من طلبتي . أمس ، كان آخر موعد ، لكن هذا هو اول مقال يصلني . كل واحد يريد أن يرتب الكون ليناسب اهواءه ، لكن كيف يوصلني هذا الى الانسان الآخر ؟ » .

قال كولا : « أنا لم أمض بنا في جولة مونغو بارك حتى خليج أكلة لحوم البشر » .

قال اجبو : « أنا لم اقل الا بوجوب ابعاد الموتى . يجب الا نتدخل بشؤونهم ، والا فإنهم سينبعثون ليقحموا على الاحياء معضلات مخيفة . ليس لهم الحق في فرض اعباء علينا » .

« لكن ، لم تكن ثمت مسألة اعباء » .

« وأنا اكرر ، انه كانت . ان يدفع بك نحو اختيار ـ مهما كانت القوى أو الظروف ، مهما كانت ضعيفة تلك القوى... » .

قاطعه كولا : « إنك ترمي بامتعاضك ، عامداً ، الى الريح ، ارمه الى رأسك اياه حيث معاده » .

قاطعهم طالب آخر يطرق الباب ، فتأوه بانديلي « مزيد من المقالات ، كما أظن . وبالمناسبة . الأفضل ان نتحرك قبل ان نتأخر على مسألة جو » .

«متى يفترض أن تكون ؟» .

«التاسعة . هل سيأتي الشيخ ؟» .

«الشيخ ؟» .

نظر اجبو حوله ليكتشف سيكوني جالسا بدون حراك قرب جهاز الاسطوانات ، «أتدري ، ياشيخ ، إنك أحيانا الشخص الأكثر لاموجودية في العالم» .

«كم الساعة الآن ؟» .

«التاسعة» .

«لنذهب . بإمكاننا الاستمرار في النقاش ، أثناء الاستراحة» .

لكن سيكوني كان يحتدم ، وانفجر في جهد مفاجىء تحت تهديد إنهاء الموضوع :

«في قبـ... ـبة الكون ، هناك وحدة تـ... تـ... تامة للحياة .

الحياة هي مثل رأس الإله . تـ... تـ... تعددية تجلياتها ليست غير وهم . رأس الإله واحد . كذلك الحياة ، او الموت ، كلاهما محتوى في قبـ...ـبـ... ـبة الوجود الواحدة...» .

توقف ليلتقط انفاسه ، فوقف كولا : «تعال ياشيخ ، لنكمل النقاش في الطريق» .

صاح اجبو : «لا . لا . إنه لم يكمل» .

«سيبدأ الإنشاد إن أبطأنا» .

عاد بانديلي ، ورمى بعدة مقالات اخرى على الطاولة .

«أنحن ذاهبون ؟ ماذا نفعل بشأن سيمي ؟» .

قال اجبو : «سانتظرها هنا» .

«هذا يعني أنك ستتأخر» .

ضحك اجبو : «حسناً ، هذا يعتمد على وقت مجيء سيمي . أليس كذلك ؟» .

« وأنت ؟ اعتقد انك ستكون صامداً كالمجنون » .

« أنا ، عملياً ، هكذا . لم أقترب من امرأة لأسابيع » .

ذكره بانديلي بلطف « وماذا عن أووليبي البرتقالتين ؟ كان ذلك منذ أسبوعين فقط » .

اعترف اجبو« لقد نسيتُها » .

صاح كولا « نسيتَها بالفعل ؟ تلك التي كانت ضفتاها عاريتين... » .

« أوه... اخرج » .

« ربما وجد اجبو انها ليست امرأة اطلاقاً » .

« نعم ، أعتقد الآن انك لم تشر اليها ثانية » .

« أنت على حق . لم تكن امرأة ، كانت رمز امومة فقط... والآن هل نذهب ؟ » .

« حاول في الأقل ان تدرك النصف الثاني . جو يغني دائماً (احيانا اشعر بأني طفل يتيم) في أواخر إنشاده » .

« بانديلي ، ألاتخرج هذا الفنان الخامل من هنا ، قبل أن... » .

« أنا ذاهب ، تأكد من مجيئك » .

« أنا افعل ذلك دائماً » .

أووليبي ؟ واحد من حوادث عديدة ، كما ان زيارة مسقط رأسه قد ذهبت بالأمر تماماً من ذهنه . لكن هذا لم يكن شأن سيمي . لقد شك اجبو إن كان وقت افاقة حين كانت سيمي غائبة تماما عن ذهنه . ذلك لأن فقدانه (عذرية اليتيم) ـ هكذا كان يضع المسألة بمعزل عن فقدان البراءة المعتاد ـ ياامرأة ، لقد اخذت عذرية يتمي ، فماذا تريدين أكثر! ـ هذا الفقدان جاء مع وعيه الأول وخوفه من الخطيئة . والخوف . فكر أنه قد بدّد الخوف نفسه بين السحب في تحليقه الأول ، ولم تعد معرفة الخوف ، ثانية ، الا تلك الليلة ، في غرفة نوم سيمي ، عندما شعر برعب الحواس ، وهو لايجرؤ على ان يعيد البوح بتلك الليلة ، ذلك لأن جسده في تلك اللحظة كان بين السماء والأرض ،

وأحس بدفق الحياة من داخل شهوته كأنه هبة من السماء ، واحتدام في قلب الأرض . ليس من حق رجل واحد ان يحس كما أحس ، ان يتحكم بتمردات الكون المأمور ، في ذبول مده المكابر وسط العليق المرشوش بمسحوق الطلق . وهو ، بعد هذا كله ، تلميذ مدرسة ، لم تكد اظافره تنظف من تراب المزرعة المدرسية...

تحرك اجبو ، في منامه ، وإن لم يكن نام الا قليلاً .

« عزيزي... » .

فزّ اجبو ، فجأة ، وسأل « من لمسني ؟ » .

قالت سيمي : « أنت ولد عجيب جداً » .

« عجيب ؟ أتؤمنين بالله ؟ » .

لم يكن اجبو بقادر عن التحكم بتطواف لسانه . لقد مضى ، مدركاً ذلك ، نحو الجسارة الكبرى المحتومة للحياة ، جسورا حتى وهو ينكمش ويتضاءل ، جسوراً بثأره الإلهي المجدف المتعمد ، من جزمه ، في الساعة الماضية .

سألته سيمي : « لِمَ تسأل اسئلة كهذه ؟ » .

« أتؤمنين بالله ؟ » .

« طبعاً ، ألا يفعل الجميع ذلك ؟ » .

« بعضهم لايفعل . وكدت اكون هكذا في سنتي المدرسية الاخيرة . لكني وجدت آنذاك أنني كلما احتجت الى شيء حاجة ماسة ، تملكني خوف حقيقي من ان هذه القوة قد تحبطني » .

« هل أصررت على ما أردت ؟ » .

« أوه ، نعم . وهكذا جئت هنا » .

فهمت سيمي بعد برهة ، وأخذت تداعب عنقه بلطف متزايد .

«لكن ما أريد قوله لك هو هذا... لقد ذهبت مني بعض الطيبة... وأنا أستحق الآن أن يسلط الله علي غضبه ويهلكني» .

«ولكن... لماذا ؟» .

«لماذا ؟ أتعنين انك لاتعرفين من قال ذلك ؟» .

«من ؟» .

«لا . لا تدعيني أجرّك الى هذا . مع اني اعتقد ان هذا لايهم . لقد خطرت الكلمات في ذهني على اي حال ، والنية ذنب كالفعل . الإفصاح عن النية اقل جرما ، اليس هذا ماعلموك ؟» .

«لاأعرف» .

في تلك اللحظة كان كل ما أراده اجبو ، العودة الى مضيفه . لم يكن لديه شك في مناطق حواس كهذه ، وماكان قادرا على التفكير بمعرفة هذا الرعب ثانية ، أن يصل الى الخلجان التي فتحت تحت قدميه التهديد بالتصعيد .

كانت الرغبة شيئا غريباً لم يتمكن اجبو من تذكر وجوده . نظر ثانية باتجاه لاغوس . الى الغرفة المستأجرة الوحيدة ، إلى دفاتر حسابات الدائرة ، الى الكعك العطن المشترى على مرتب آخر الشهر .والأفضل من تلك كلها ، ركوب الدراجة الخطر ، ذو المطبات ، نحو الدائرة ، مروراً بجسر كارتر .

«ماذا تفعل ؟» .

«ارتدي ملابسي» .

«لكن... لماذا ؟» .

«لماذا ؟ لأعود الى مضيفي طبعا» .

خفت صوته ، فجأة ، حين اخذت منه الملابس «تعنين... أنك ، تتوقعين مني أن أمضي الليلة كلها ، هنا ؟» .

«لو كنت أردت المنام وحيدة ، فما سبب مجيئي بك إلى هنا ؟» .

لامزيد من الوعيد ، كان اجبو يتوسل الرحمة .

«لكني منهك» .

« قلت لك ، لاتتعب نفسك اكثر من اللازم » .

« حسناً . الأمر جد متأخر الآن . يجب أن آخذ شيئا من الراحة » .

كان صوت سيمي ناعماً في استهزائه « مابك ؟ كانت تلك البداية فقط . مازال علينا ان نعرف بعضنا . لدينا الليل كله ، والغد . وليس عليك المغادرة الى لاغوس حتى العصر » .

« من لديه مثل هذا الوقت ؟ لكن... أتتوقعين مني المزيد فعلاً ؟ ومن أين تظنين أني سآتي بالقوة ؟ » .

« أنت شخص عجيب حقاً . أتظن انك تنام مع امرأة ، مرة واحدة ، ثم تتركها هكذا ؟ ألاتعرف أنها البداية فقط ، بالنسبة لها ؟ » .

« أو... و... و... ه ، إذن ، أنت تريدين قتلي بالكامل » .

« أوه ، أين حقيبتي الممتلئة على مطار واري ، ايه ؟ إذن ، انت لاتعرف شيئا... تعال ، دعني اريك... هكذا... انت لاتعرف شيئا اطلاقا... يجب ان تترك نفسك بين يدي » .

اجبو ، المندهش لجسده ، ماكان ليصدق انه سينبثق من مكان مافيه ، وثانية ، برج الطاقة الجديد ، في الليلة نفسها ، بعد ساعتين فقط من دخوله الأول . وبعد هذا ، في المرة الثانية ، احس اجبو انه مثل مقلع الحجر في ابيوكوتا ، حين تفجر الغرانيت كله ، ولم يتبق سوى مياه المطر الموحلة لتملأ الكهوف الضخمة تحت الأرض .

تشبث اجبو برحلة القطار الطويلة البطيئة الى لاغوس ، باعتبارها الامل في ترميمه ؛ فقد اختل توازن ما في حياته ، وحين استقل القطار عصر ذلك الأحد كان يشعر بأنه خاو ، ضعيف ، عصبي المزاج ، قلق . يجب ان يعرف أحد ما . يجب ان يكون احد ماشهد ليلة الفانطازيا ، حين أخذته الساحرة سيمي من يده وقادته الى ممرات النشوة ومساربها . وكان اجبو ينظر في وجوه المسافرين واحداً واحداً ، متسائلاً من منهم احس بما طرأ عليه من تحول . لكنهم كانوا يبادلونه النظر ، حسب ، وظلت امرأة ذات اربعة اطفال

يرتدون زي مدرسة الاحد ، ظلت تمطره باليام والذرة المسلوقين ، وظل وهو يعتذر في مجاملة متناقصة . جاء مفتش التذاكر ، وطلب تذكرته ، حتى مفتش التذاكر لم يبد عليه انه عارف ماجرى .

مالنفك اجبو يستثار بالقعقعة الداكنة للعجلات حين يمر القطار على جسر اولوكيمجي ، ناظراً الى الصخور التي اجتاحها نهر اوجون . ان الجسر يمتد عبر اوجون حيث الجلاميد تبدو مثل شيوخ الاجبا الغابرين وهم في اجتماع سري . ان تلك الجلاميد هي الاصابع الممتدة لقدمي الاله الصارم ، اولومو ، اسحم الاجبا .

كان اجبو يرى دائماً ان الاله تمدد عبر الغابة ، من عرشه في أكيريكو ، وان قدمه الهائلة اخترقت بطن الارض الرخوة ، ذلك لانه أراد ان يستريح ، فاستسلمت قدمه لمسيل مياه اوجون ، هذا المسيل الملطف المريح . هبط اجبو من القطار من اولوكيمجي ، وكانت رائحة دخان الفحم العذبة الثقيلة تثقل الشراب الغامق قد أسكرته ، وكانت لاغوس بعيدة ، والمكاتب عطنة ، وغير ذات مكان في هذه التناسبات الجديدة للحياة .

اليوم سوف يسمع ذلك الهدير من تحت الجسر ، فذلك ماأراده . سار قدما بمحاذاة السكة ، بينما كان القطار يتزود بالماء لينطلق هادراً . انزلق على المنحدر الى ضفة النهر ، تتبعه الاحجار المقتلعة والطحالب وأعباء معرفة الخسارة والربح ، موهنا بأسرار الاحتفال . من يدري ، ربما استطاعت سيمي ان تبكي اخيراً ، ذلك لان المياه المترعة نوراً في البرك الصخر كانت عيني سيمي . هكذا استلقى اجبو على الصخر وانتظر ان يمر القطار فوقه بذلك الهدير العميق الذي يكون له ، هنا ، في الاسفل ، صوت ضحكة الآلهة ، او وعيدهم الغائر . وكان في نعاسه يؤكد لنفسه في غماغم متقطعة انه مازال باستطاعته ان يركب شاحنة فيدرك القطار في محطة تالية ، أو يبلغ لاغوس ذاتها . لم يكن القطار لعبة ، في الليل بخاصة ، والحق انه قرر اكمال بقية الرحلة في شاحنة...

نفض عن جفنيه النوم ، وخلع ملابسه . حسن ان يستحم في دموع سيمي مادام هذا بمقدوره الآن ، ذلك لأن عينيها تبدوان عينين لم تبكيا البتة . سبح فترة قصيرة ، إذ وجد انه منهك الى حد لم يعرفه من قبل ، فجّر نفسه جراً الى الصخرة ، وتمدد لينشف . وسرعان مامر القطار فوقه ، لكن الرعد المشوش لعجلات القطار المرتطم من صخرة الى صخرة ، ومن عارضة الى عارضة ، والارتجافات المثيرة في برك احزان سيمي ، كانت بعضا من أحلام وحشية اخذت تتلاطم به على الصخور .

اختفى القطار في البعيد ، وترك اجبو وحيدا بين الصخور والغابة المطبقة ، عارياً في العتمة المقتربة .

استفاق في منتصف الليل ، ولم يعرف في اي مضطرب هو . في منتصف الليل ، يخبط بلا هدى ، ولانجوم ، ولايراعات مضيئة ، والضفة الأخرى أوقفت مجرى المياه المتلألئة المندفعة ، حين تحولت سوداء كالقدور الغاطسة عميقا للنسوة صبّاغات الثياب ، وكقَطرِ الصبغة النيل من الثياب المعلقة لتجف ، قَطْرٍ يتنزّلُ كالدم في اوريكي أوجون ، توتو توتوتو . وحيث كان نور بشرة سيمي وحيث كانت البرقوقات في قاع النهر ، وحيث كانت حبات الضوء في مسامير اولومو الخشنة .

وهكذا ، وللمرة الاولى ، منذ صعوده الى مملكة الآلهة ، ايام طفولته ، عرف اجبو الخوف ، واعترف به ، ووقف ، عارياً ، امام مقتحمه الجديد... هذا المكان ليس مرتبع بشر ، ومايكون هو سوى ثمرة ناضجة للأنواع ، اختفت مؤخراً بتحرير الانسان...

وكان يتذكر الصرخات الرنانة لمضاجعته الآن... في الظلمة دعني أرقد... وها هوذا يضحك الآن ، في تثاؤب الأرض العظيم هدأ النهر ، وصار لساناً اسود خانقاً ، ضحك ، فالكلمات لم تجف بعد على لسانه... في الظلمة دعني أرقد... أبكي أيضاً... في الظلمة أبكي ؛ ألم يقل معلمه دائماً ، ان ما يبكي الولد يضحكه ؟

لقد أحب الظلمة ، الانكماش الصامت ، لكن ليس هدير الموات هذا ،

وعمى الممر . اتراه نام طويلاً في كهوف داخل المنازل المعتمة لإله منتقم ؟

من قدر له هذا ؟ حورية من سرقت ملمس نسائم التسنين!

وهاهو يمسي شجاعاً إزاء الخوف ، غاضباً ، حنقاً حقاً . أية خدعة سافلة كانت هذه ؟ ضحكة من هذه المتسترة بالظلمة ، المتلصصة على ورطته!

وتصاعد غضبه ، بحيث لم يعد يرى إلا ابتزاز الخوف .

لو أن هذه خطيئة ؟ وقد عرف ان ضعفه متأت من هذه ، فأنهاه . لو أن هذه خطيئة - أذن - لتأت العافية .

الموت!

تمدد ، ثانية ، على الصخور ، ونام .

وطلع الصباح ، كاشفاً عروقاً في الصخر ، واصلاً ملعباً في البعد . كان قوس قزح من الفولاذ الكابي المسوّى ، وعوارض صخر ترتفع على اعمدة من تجاويف الارض . نهض اجبو ، ونظر فيما حوله ، سابحاً ، مندهشاً للحياة ، اذ بدا له انه وُلد من جديد ، واحس بالليل الآن رحماً للآلهة ومعبراً للمسافرين... تذكر عهدك وميثاقك ، وصلى ، تذكر عهدك وميثاقك ، ذلك لأنني نجوت من هذه الليلة . تذكر مخاوفي الليلية .

غادر ، وهو يحمل على جسده هبةً لم يستطع تحديدها . فأي مسافر تحدى الآلهة في مكمنها ، وغادر بدون عطية سماوية... سماها معرفة ، سماها قوة للجمال غالباً ، ادراكاً قاده بصورة خطرة نحو بسيشة من ملح الصخر ، مفترسا للطبيعة .

قال اجبو : «تعالي لأريك عجباً» .

كان وحده في البيت ، اذ خرج بانديلي لمحاضراته ، وتمت فتاة خجول واقفة بالباب . ربما كانت في التاسعة عشرة ، تحمل اوراق فولسكاب مخططة ، مكسوة بخط أنثوي عريض . بدون أن يأخذ الموضوع منها ،

استغرب اجبو ، كيف يكتب مخلوق رقيق ، يكاد يكون هشا ، مثل هذا الخط المريع .

«جئت فقط لأسلم موضوعي» .

«صادف انني اعرف بالامر . كان ينبغي ان تقدميه امس ، أليس كذلك ؟» .

«ألاأستطيع ان أتركه على الطاولة ، رجاءً ؟» .

«أستاذك ، ليس هنا» .

«أعلم ذلك» .

«آها... اذاً ، انتظرت حتى يخرج» .

حاولت الفتاة ان تدخل البيت ، متحاشية اياه ، لكن اجبو سد المدخل بجسمه .

«حسناً ، ان لم يكن باستطاعتي الدخول ، أفلا تأخذه ، إذن ؟» .

«لا . وشكراً . لن أساعد طالبة كسولاً» .

«صديقك ليس أفضل منك . فهو لن يعيد لنا هذه الا في نهاية الفصل» .

«آه... طالبة غير مطيعة ؟ كيف تجرئين على التحدث عن استاذك هكذا ؟ سأطلب منه أن يسقطك» .

«أخبره . هو يعرف انها الحقيقة . لو استطاع لجاء بسريره الى الصفوف ، وقدم محاضراته مستلقياً» .

انحنى اجبو بوقار «يجب القول إنني أقرّ بهذه الملحوظة عن صديقي» .

«والآن ، هل بمقدوري ترك موضوعي ؟» .

«بعد الملحوظة ؟ نعم» .

راقبها إجبو ، وهي تضع موضوعها على الطاولة . انتظر حتى عادت الى مدخل البيت ، فقال لها : «امكثي ، وتحدثي معي» .

توقفت عابسة .

«أم تراك غير مسموح لك بهذا ؟» .

« ليست المسألة مسألة سماح . لكني لا أستطيع المكث . شكراً جزيلاً » .

« لم لا ؟ أنا أشرب وحدي . بل انا وحيد ، وهذا اسوأ » .

« لاتجرب هذا ، معي ، فهو لن ينفعك » .

الفتاة كبرت فجأة .

« ياالهي! هل الطلبة بمثل هذه الحدة ؟ » .

« لسنا حمقى بالكامل ، انت تعرف » .

« حسناً . حسناً » .

لوحت له بمرح : « وداعاً ، إذن . تمتع بشربك ، لكن لاتسكر » .

راقبها اجبو ، وهي تخرج . غمره ، فجأة ، احساس هائل بالحرمان .

قد كان نام ، وهو نصف سكران ، لأن سيمي لم تأت في النهاية ، ثم استيقظ ، متسائلا ان كانت سيمي اشبعت رغباته النامية ، إن لم تتغير سيمي بينما هو... ترك السرير ، ونظر الى ذقنه وقد نما شعر لحيته . ثمت غصون في جبينه الآن ، ومنذ شهر فقط انتزعت سيمي خمس شعرات بيض من رأسه . أثر فيه الامر تأثيراً شديداً ، وبسط الشعرات الخمس على ورقة كاربون . كيف هرم سريعاً ؟ ثمان وعشرون سنة ، وشعرات بيض في رأسه ؟

هرع اجبو خلف الفتاة .

« أتعلمين ، انك لم تسأليني ، قط ، عن العجب ، ماهو ؟ » .

« أي عجب ؟ » .

نظرت اليه باستمتاع بعيد .

« الا تتذكرين ؟ عندما فتحت الباب... ورأيتك واقفة هناك... » .

توقفت . « أوه . نعم . قلت لي تعالي لأريك عجباً... او شيئا كذلك » .

« ولم تسألي ، البتة ، عما قصدت » .

« ظننت ، للوهلة الأولى ، انك مجنون » .

«هكذا ، إذن ؟» .

«أو إنك تلقي أبياتاً تحفظها» .

«هذا اكثر إحسانا . والآن ، هل تأتين معي لتري ما العجب ؟» .

«شكراً . ماذا تظنني ؟» .

«مصادفة» .

عبست : «ماذا يمكن ان تعني ؟» .

«ببساطة ، كنت افكر في ان أعود الى مزار من صنعي . ومنذ أفقت صباحاً كان الأمر شغلي الشاغل . وقد مضى زمن على قيامي بالرحلة» .

«حسناً ، وكيف ذلك ؟»

«انتظري ، ياطفلتي ، سأقول لك» .

«ومن أنت ، لتدعوني طفلة ؟» .

«أرجوك... لاتقاطعيني الآن . أنت ترين انني كنت ، للتو ، ارغب في أن أذهب الى هناك مع شخص ما ، وكنت ، حتى الآن ، أذهب هناك ، وحدي ، دائما . اعتبريها غيرة . قبل اسبوع كانت الفكرة تبدو تدنيسا للمزار ، أما الآن... حسناً ، لاأستطيع ان اشرح الامر هكذا . اعرف ، فقط ، انني كنت أود ، قبل ان تأتي ، أن آخذ أحداً معي» .

«لماذا أنا ؟» .

«لم لا تكونين انت ؟ ستقومين تماما مقام الشخص الآخر» .

«أوه ؟» .

انحنت انحناءة ساخرة : «شكرا لهذا التشريف» .

«حسناً ، أنذهب ؟ علي ان أخرج السيارة» .

«أوه ، جولة بالسيارة . أمفترض ان هذا سيؤثر في ؟» .

«اللعنة عليك ، يابنت ،وعلى أجوبتك الجاهزة» .

«شكراً ، أيها الذئب ، وشكراً لخططك الفورية» .

توقف اجبو ، عاجزاً عن استيعاب ابتهاجه «لقد أبديت ، بالتأكيد ،

روحاً جيدة . والحق ، أعتقد أنك شخص مبهج . أغلب الطلبة الذين أعرفهم ليسوا كذلك » .

شرعت الفتاة تنجة ، ثانية ، نحو المباني الدراسية .

« حسناً ، هل أنت آتية ؟ » .

« لدي عمل يجب أن أقوم به . اختباراتنا وشيكة » .

« اختبارات نهائية ؟ » .

لا . ليس الآن . لكنها هامة بدرجة مساوية . بالنسبة لي » .

« أنت شابة جدية حقاً » .

« ينبغي أن يكون المرء هكذا في هذا المحيط » .

« تعالي ، للجولة ، على أي حال . أعدك بأنك لن تتأخري » .

اكتسبت ملامحها جدية واضحة . وبدا انها تفكر في أمورأخرى ، ليست هو إطلاقاً ،وكانت قلقة .

« قد لاتثقين بي » .

وبدون أن تنظر إليه ، هزت رأسها « لا ، ليس الأمر ذلك » .

الحاجة الى ارتكاب التدنيس ـ فوق كل شيء ، كان اجبو مدركا ذلك .

ربما ، في السر ، ولوقت طويل ، كان يتشوق الى ان يرى شخصا ما ملتجأه ، وقفته الاخيرة في ذلك الدخول ، أن يشارك حنانا بشريا ليلته تلك تحت الجسر . ولم يكن لسيمي ان تكون ذلك الشخص . ومع ان سيمي كانت السبب المباشر ، الا انها لم تبد ، ولامرة واحدة ، وطوال ذلك الوقت ، الشخص الذي يشكل بعضا من الملتجأ . ستكون استجابتها ممتهنة ، ولن ترى شيئا في المراحل المختلفة لطبيعة الملتجأ ، من الماء المتلألىء المتدفق ، الى مدافن الآلهة ، تلك الشواهد الغرانيتية الضخمة فوق الممرات المائية الزرقاء الرمادية . لقد ادهشته مرة ، ثم فهم ، متعلماً ان يترك سيمي في محيطها ، حيث هي المعصومة ، والملكة ، اليوم ، والى الابد . لن ترى سيمي سوى جدران أربعة ، غرامافون ، سجادة كردية ثخينة...

كيف لسيمي ان ترى ابر الصنوبرالمتساقطة الى جانب طوابير النمل السميكة تحت صفير الريح خلل اشجار الصنوبر الملتمة على نفسها مخروطا مخروطا ، والكؤوس الرطبة العالية من الاشجار الممطورة تفرز بلورات صمغ بنية ذهبية . مرة صنع لسيمي عقدا من هذه البلورات الجافة ، فلم تزد على القول : « أنت ولد عجيب » .

كانت الفتاة تسأله « ماعملك ؟ » .

« وزارة الخارجية ، وهم لايستخدمون إلا رجالأمن الطراز الأول » .

« وما الطراز الأول ؟ » .

« حسناً . الأمر معقد قليلاً . الا انه يقترب من هذا ـ باستطاعتك قضاء لياليك في مبغى مادام المبغى بلدياً ، لكن ليس بامكانك التحدث مع ابنة سفير اجنبي » .

مضيا في مسافة الاثني عشر ميلا الى ايلوجون في طريق يلتف ، وينبسط ، على نفسه ، وكرر اجبو لنفسه ، سوف أريها الملتجأ ، باعتبارها غريبة ، لكنها لن تكون هناك ، ثانية ، على الاطلاق . واعترف ايضا ، ليس غريبا علي ان احتاج الى الصحبة ، وأن اكون بلا خطط ، حقاً . وكان هذا ما أرادته ايضا ، صحبة مندفعة . كانت مستقلة تماما بإرادتها . وظلت تردد « اشترط عليك... لاتكلمني فيما بعد » .

« طبعاً ، لا » . نظرت اليه بسرعة ، غير مصدقة موافقته .

« عليك الا تستخف بالأمر . وعلى اي حال كيف اتوقع ذلك منك ؟ لقد نلت شهادتك ، وسيان لديك ، أحرقت وقتي ام لم احرقه » .

« لست عادلة تماماً » .

« لقد حدث هذا لصديقاتي . انا اعرف ما أتحدث عنه » .

« حسنا . حسنا . لك ماتشائين » .

توقفا عند ايلوجون ، واشترى اجبو صيداً طازجاً مشوياً على نار صغيرة .

من اسفل مقعده ، خرج رفيقه الدائم ، وهو برميل فارغ : شرع اجبو يدب ، ناظراً الى هذه الناحية وتلك من الدغل .

« أهناك شخص ينتظرنا ؟ » .

« نعم . لكنه لايعرف . فقط ننتظر هبوطه » .

« هبوطه... من أين ؟ » .

« من رقبة الاله . رب الضلع اللولب . النخلة » .

سُرّتْ حتى لم تكد تتوقف عن الضحك . حذرها اجبو « خير لك الا تضحكي في وجهه ، الا اذا اعتزمت الا تشربي من حليبه! » .

« هو أنت... ذو البرميل » .

« استعدي ، استعدي دوما لهبوط الاله . عبر هذه المسالك لايعرفون ما الماء . خمر النخيل هو مايتحدر من الشجرة . في المدن ، اخترعوا الماء ، وفي القرى ايضاً ، مع الاسف ، لكن مستنزف خمر النخيل في هذه المفازات ينتصب وحيداً ، لايفصل بينه وبين الهه سوى الهواء . وهو لايجرؤ ان يمزج مقدسه بالماء » .

صفقت : « محاضرة مدهشة ، ملهمة جداً... توقف ، توقف ، هذا واحد » .

« زق خمر ، وشواء ، وكتاب غامض انت بجنبي في خلائي... » .

« أتحب عمر الخيام ؟ » .

« اعرفه ، واحبه ، إلا ذلك الرابع ـ الاسم ، اليس كذلك ؟ » .

« لكن ، ماذا تعني ، غامض » .

« لوعرفت ذاك ، لما دعوتك به » .

كاد الممر يختفي ، لكن اجبو كان يبعد الشجيرات والنبات المتسلق ، وبرميله الثقيل يترجح من جهة الى اخرى .

« سيفيدك تماماً ، لو أفلت من يدك وانكسر » .

« خمر النخيل لايخذل أهله ، صدقيني » .

توقف . « انظري » .

« أنحن قريبان من النهر ؟ » .

« ذلك على مبعدة بضع ياردات من هنا .ثمت شيء أريد أن تريه » .

كان كمن يقيس المسافة من إحدى الأشجار ، وبعد أن اكتفى بقياسه ، فَرّع الشجيرة في نقطة معينه « اتبعيني . بحذر هذه المرة . لا أريد أن أترك الممر » .

« ماالأمر ؟ » .

« دقيقة واحدة » . دائماً كان يحسّ بذنب الأنانية هذا . أحس مائة مرة ، يجب أن آتي بسيكوني كي يرى الأعجوبة ، ووعد ، سآتي به المرة القادمة . بلغا منطقة من الدغل كأنْ لم تعرف نفس إنسان ، وهناك أراها الكاتدرائيات المهجورة ، التي نسيها الآن ، النمل المكتنز المبيض الذي شيدها . ثمت كاتدارئيات جديدة تنهض من الأرض ، وكان البناء يقوم أمام أعينهما ، مكتظاً بمئات النبضات البيض الناعمة التي تفرز تلالأ حية صغيرة . قالت « مثل عدد من الرهبان المنشغلين » .

« تبدو بلا معنى ، مادام النمل يهجرها في النهاية . تعالي من هنا سأريك أهم شيء » .

فرّق الأوراق لمسافة ما ووقف ، منتظراً موافقها ، كأنه كشف للعالم عن عمل من إبداعه . سألها بقلق : « أليس... . أليس الأم والطفل ؟ » .

شكل كُفُرّى مشيد ، قلنسوة عريضة تقولبت شخصين ، عجيبين في واقعيتهما ، مثل وجهين يسيلان في السماء ؛ الريح وضعت عليهما لمساتها الأخيرة ، خشنة محببة ، والشكل يرتفع ضريحاً بنياً وسط خضرة ندية . القلنسوة شكلت فجوة ، في داخلها الأم والطفل . شجرة دلب ثالثة ترتفع وراءهما كليهما ، مسلّةً ، طويلة ، إزاء الذوائب المهتزة في أخفت نسمة .

« الآن ، وقد آتي بالشيخ » .

« تأتي بمن ؟ » .

« الشيخ . اسمه الحقيقي سيكوني . إنه ينحت » .

« أجل . يجب أن تأتي به » .

« إن لم تكوني خائفة ، فبمقدورك البقاء حتى تطول الظلال ، كي تري كيف تعتم وراء الاثنين ، وتكسبهما عمقاً أعظم داخل الفجوة » .

ثم سارا نحو النهر ، مخوضين في البرك الصخرية ، ليبلغا موضعاً ممهداً هو سرير إجبو المفضل .

نظر إجبو إلى حيث جلس أولومو ، مختفياً وراء عشرين ميلاً من غابة ملتفة . قال « لا تحرك إصبع قدمك اللعينة ، فلدي ضيف » .

إنهما يأكلان الآن ، كشرت وقالت « اللحم غير مشوي جيداً » . أخذ إجبو جرعات كبيرة من الخمرة ، وأمسك لها بالزق لتنساب الخمرة في حلقها . حذرها « قليلاً ، قليلاً ، فهذه الخمرة لم تمسها يد أو مياه » . راقبت الخمرة تسيل على حنكها ، وفي صدرها ، ملصقة ثوبها على جلدها ، ونظر إجبو نظرة خاطفة إلى نهديها الصغيرين ، وأحس بارتعاشة في قلبه .

« لم أشرب خمرة نخل لها هذا المذاق »

« لن تجديها وأنت جالسة في المكتبة » .

عادت إلى جديتها « لو قال لي أحد ، أمس ، لا ، بل هذا الصباح إنني سوف أجلس وسط أوجون واحتسي خمرة نخيل وآكل لحماً نصف مشوي... . » .

نظر اليها إجبو طويلاً قبل أن تسأله « وكيف حدث لك أن وجدت هذا المكان ؟ » فأخبرها إجبو عن ليلة الرعب التي أمضاها تحت الجسر .

جلست ، وهي تحرّك ماء البركة بقدميها ، منحنية الرأس ، بينما الكلمات تنصبُّ منه ، وعاش ثانيةً ممرَّ ظلمته .

« وأنت لم تأت بأحد هنا ؟ حتى بالمرأة ، سيمي ؟ » .

« لا . كانت... ليلة كشوفات ، قمت بها وحدي . مثل أن أستيقظ صباحاً ، فأحس بهبةٍ عظمى لديّ أتقبلُها ، بدون البحث عن تفسير . أنا آتي

إلى هنا ، غالباً ، كي أجتذب تلك الهِبة ويُغفرَ لي . أحس بأني محتاج إلى هذا المكان أكثر من أصدقائي كلهم ، ذلك لأنهم مشغولون بعمل شيء ما ، أما أنا هنا ، فإنني أكتشف ، وفي هذا كفايتي . أنا آتي هنا ، كي أنال التبرئة ، مرة ، ومرة ، وأخرى وفي يوم ما ، سأجد أن تبرئةً واحدة تكفي » .

« وماذا حدث الآن ، كي تحتاج هذه... » .

« التبرئة ؟ لا ، مازال الحديث عن ذلك مبكراً » .

« ألاتظننَّ إني لاأفهم . بعض الرجال يلجأ الى الآخر كي يطمئن » .

« هذا هو ، الى حد ما . ان نتوءهم اكبر مني » .

« لست ناتئاً » .

« طبعك لطيف ، لكنك مخطئة . من يجرؤ ان يكون مناسباً ؟ » .

« بإمكان المرء ذلك . من الضروري أن يكون » .

« حتى لو نلت مرتبة الشرف الأولى ، حتى لو استقرت مهارتك المفترضة وأصبحت جزءاً منك » .

« في الأقل أكون آنذاك كاملة الاعتماد على الذات » .

« نعم ، اعتقد إنني أحس بذلك فيك ، مثل خروجك معي . لقد اخترت راغبةً ، مستبعدة ريبتك الطبيعية وتضايقك » .

« لا . لا . عليك ألاّ تصدق اشياء كهذه » .

« لإنها ليست حقيقية ؟ أوه... إنها سمة الوحيدين » .

« أرجوك ، لاتدعنا نتكلم اكثر . انا لااحب طريقتك في بسط الأمور » .

« رمية موفقة أخرى . غريزتك تفيدك جيداً . ان نستمر كما بدأنا ، يعني ان ننتهي بمكاشفات اكثر مما ينبغي » .

« نعم . كما تشاء . لكن يجب أن نتحدث عن شيء آخر . حدثني عن وزارة الخارجية ، عن ملفاتك الدبلوماسية ، عن أي شيء ، أي شيء... » .

« جذبها اجبو اليه . كانت الصلابة قشرة خارجية ، حسبُ ، الجلد العنيدَ للحفاظ على النفس ، وقد ارتخى لملمس يديه المتلهفتين . تدفق الوسط دماً

أحمر طازجاً ، سال على اصابع قدمي الإله . فيما بعد ، غسل لها هذا الدم ، في النهر ، وهي تحتج في استحياء .

واعترف اجبو بأنه منذ ليلة سيمي ، لم يكن في مثل هذه العصبية وخوف المخاطرة . قالت «اختباراتي في الشهرالمقبل . يجب الا تحاول رؤيتي ثانية» .

١٠

توقف بانديلي ، ومفتاحُ السقاطة في يده . «نسيت أن أحذرك . لديّ ضيفٌ قد لاتودّه» .

قال ساجو «لأجل النجاة من لاغوس أتقبّلُ أي عذاب . من هو ؟» .

«صحافي مايطوف أفريقيا متطفلاً على السيارات . لديه أفضل مجموعة تصوير فوتوغرافي وقعت عيني عليها .»

«إنجليزي ؟» .

«لا . بل المانيّ ، لكنه يعتقد أنه أميركي» .

«أوه ؟» .

«قد تجده غيرمحتمَلٍ . أنا أجده هكذا» .

«في أسوأ الأحوال ، بمقدوري الذهاب ، والبقاء عند كولا» .

«لاأنصحك بهذا . لقد غدا مجنوناً بالبانثيون . إنه لايطاق كحيوان اجتماعي» .

سُمعَ وقعُ فيلةٍ مندفعة على السلّم ، وصرخة (أهو أنت ياباندیلي ؟» ، وشعروا بقفزة من الدرجة الخامسة إلى أسفل ، وبارتطام خارج الباب بالضبط . بضعُ ثوانٍ من المحاولة مع المقبض ، ضاجة بأصوات تطلب منهم الصبر . ليس سوى دقيقة ، مابال هذا الباب اللعين ، لكن الباب انفتح فجأة ، وأشرق عليهم ، ضاحكاً ، وجه بيضوي متورد ، وعصرت أيديهم يدٌ متوردةٌ

شَعراء ، وصفعت أقفيتهم ـ أين كنت ياابن الـ... ـ وانتزعت الحقائب من أيديهم ـ أهذا هو صديقك من وزارة الخارجية ؟ ـ ودفعتهم إلى غرفة الجلوس ، وفي يد كل منهم قنينة بيرة .

ثم اندفعت حديقة الحيوان ذاتُها ، تصعد السلالم ، صائحة « بدأت أفكر انك لن تعود الليلة كيف لايتكلم صديقك الأميركي إلى الشاب مباشرةً هل بلغت شيكاغو ؟ » .

سأله ساجو « أهي مزحة عملية ؟ » .

« لاأدري ؟ » .

« ماذا تعني بـ : لاأدري ؟ » .

لم يزد بانديلي على هزِّ كتفيه واحتساء بيرته . « حسناً . إنه بيتك . أليس كذلك ؟ لديك الآن مضحكٌ خاص » .

« لقيته في المجمّع مع جو غولدر » .

« ومن يكون جو غولدر بحق الجحيم ؟ » .

« آسف . محاضر أميركي ، تاريخ . ستصادفه يوماً . على أي حال ، الأمر الآخر الذي عرفته هو أن جو غولدر هرب وترك ذلك المهرج بين يديّ » .

« أنت دعوته للبقاء معك ؟ » .

هزّ بانديلي رأسه بأسى « لا اتذكر انني فعلت ذلك ، لكن ها هوذا هنا » .

هبط بيترثانية بالطريقة السالفة إياها . وقدم نفسه هذه المرة تقديماً رسمياً « أنا بيرر . هاي! » .

« أأنت أميركي ؟ » . سأله ساجو . لم يكن لديه خيارٌ غير البقاء جالساً ، فقد وضع بيتر يديه كلتيهما على ذراعي الكرسي ودفع وجهه تماماً في وجه ساجو .

ثم أشغل نفسه بخلط مختلف اللهجات .

« ياه . حسناً . ليس تماماً . أنا الماني ، لكني استخدم جواز سفر أميركياً . سآخذ شراباً . أنا جد آسف لعدم استطاعتي النزول الى لاغوس مع

الآخرين ، لأن لي موعداًمع وزير . أنا صحافي ، كما تعرف ، أظن باندیلي أخبرك . هل رسمت المدينة حمراء البارحة ؟ شخص أسطرري وزيرك ، شخص حقيقي . دعاني لقضاء نهايةأسبوع في منزله الريفي » .

« أذاهب أنت ؟ » استمتع ساجو كثيراًبعدم اهتمام باندیلي .

« أكيداً . أتشرف حقاً » .

« سأله ساجو« أي وزير ؟ » .

« يمكن أن يكون أي وزير . شيء من الدعاوة في الخارج . مجاناً » .

« حتى النتيجة . ثم يقولون ان كلامهم قد جرى تحريفه » .

« وبعدهاــ أطردوهم أطردوهم ماذا يظنون أنفسكم كيف يجرؤون على الاساءة إلى سيادتنا بالتشويه النيكولونيالي النيو رأسمالي الرجعي أطردوا أبناء الزنا نايجيريا نحييك...... » .

ارتجفت الثلاجة بعنف غير معهود ، وتذكر ساجو أن بيتر ما يزال معهم .

« صديقك شخص لطيف . بمَ كان يصرخ للتو ؟ » .

قال ساجو بخفوت « بأنك تبدو لي عسلوج خواء على حثالة من البهيمية الآرية المسحوقة » .

كان بيتر يضحك « أنت أولاً تصرخ بحيث يهتز المنزل كله ، ثم تهمس بحيث لا يمكن أن يسمع أحدٌ منك حتى كلمة واحدة » .

اعترف ساجو « إنها طبيعتي » .

« كيف الحياة في وزارة الخارجية ؟ » .

« لاجواسيس مؤخراً ، وماذا عنك ؟ » .

ذكّره بيتر ، نوعاً ما ، بالزعيم ونسالا ، بطريقة ضحكه . « باندیلي ، إن صديقك أغرب شخص رأيته في أفريقيا . أتظنني جاسوساً ياباندیلي ؟ » .

« لا . لاأظنك جاسوساً يابيتر » .

« إنه ليس مثلك . باندیلي رزين جداً . لكن صديقك مثل شاربي الهر . لا يمكن أن يحزر أحد أنه في الخدمة الدبلوماسية » .

« تعجبني فطنتك . أنا لاأعمل بوزارة الخارجية » .

« باندیلي ، ماالأمر ؟ أليس هو الـ.... » .

« لقد اخطأت يابيتر . هذا هو ساجو ، وهو يعمل في صحيفة » .

« لكني كنت أظنك تتوقع مقدم صديقك الذي بوزارة الخارجية » .

« وصلت طائرته متأخرة . سيأتي فيما بعد » .

احتار ساجو . نظر إلى باندیلي لكن هذا أسكته بإشارة منه تعد بتفسير ما فيما بعد .

« إذن ، أنت في الصنعة! » سار إليه وشد على يده « حسناً ، لأعترف أنني الآن في بيتي حقاً » .

أجفل باندیلي .

« اللعنة على تورطك الفوري بهذه الألفة » .

تمتم ساجو ، وقد اشاح بوجهه عندما تلقى الرشاش كله من فم بيتر « سأصعد كي أغتسل » .

« كيف سنقضي الليل ، ياباندیلي ؟ لنذهب فنحتفل بمعرفة صديقك باعتباره زميلاً صحافياً » .

« الواقع ، أنا مدعوّ لحفلة ما » .

« ممتاز . نذهب جميعاً » .

كان منظر باندیلي محزناً جداً « آه ، أنت لاتعرف عوائلنا هنا . والحفل شأنٌ عائلي حقاً » .

« إذن ستأخذني ، هيه ؟ أنا أحد أفراد العائلة . شأعرُ بأنني نايجيريّ . أشعر حقاً أنني في بيتي ، أتعرف هذا ؟ لاأشعرأنني مختلف عن أي أحد . لقد كونت لي فعلاً أصدقاء عديدين من أهل الشوارع ، وأنا آكل في السقائف التي بجانب الطريق مثل أي نايجيريّ » .

توقف عن الكلام حين رأى ساجو يخرج من الباب الخلفي « إلى أين يذهب صديقك ؟ هيه! إن هذا ليس الطريق الى الحمّام . تريد الصعود » .

شرح له بانديلي الأمر بوضوح «لابأس . إنه يستعمل مِرَشّة الإغتسال فقط ، في مسكن الخادم» .

«يالصديقك من شاب حقيقي . شاب حقيقي . أتعرف إنني أود شاباً مثله لايهتم بالمظاهر . ها! بانديلي! لديّ فكرة . أولا نذهب إلى الحفلة ، ثم إلى خمّارة ، ونبحث عن عاهرات ، مارأيك ؟» .

«أكيد... يابيتر» .

بعد أن جرب بيتر الأشربة بأنواعها ، استقر على الويسكي ، ودفع القنينة في فمه «هذا ما أحبه عند الأميركيين . أتعرف إنني حين أكون في ناد ليلي هنا أجد الناس ينظرون إليّ بسبب شربي من القنينة . الأميركيون لايضيعون وقتاً في الكؤوس ، إنهم يشربون جميعاً من القنينة» .

تأوه بانديلي ، شاطباً في ذهنه ، القنينة ، ذلك لأنه لن يقدم ماتبقى منها لأي شخص يعتبره صديقاً . كان ساجو عاد إلى البيت متمتماً «هذا الأحمق المنكود لم يدعني آخذ صابونة ومنشفة» .

قبل ان يبلغ أعلى السلّم كان بيتر وراءه . حاول ساجو ، متأخراً ، أن يغلق على نفسه الحمّام ، لكن المفتاح كان سقط الأرض ، ونظراً لأن هيكل بيتر كان يملأ الباب ، استدار ساجو ، يائساً ، نحو الرف ، وتظاهر بأنه اخذ يحلق . أعملَ الرغوة في لحيته وشفته العليا ، متعجلاً ، كي لايفتح فمه ، متسائلاً عما قد يكون الأحمق . سمعه منه .

«أقول ، ظننتك تريد جرعة وأنت تحلق . ألاتريد جرعة ؟» .

هز ساجو رأسه .

«ماهذا ؟ آ... غَسولُ مابعد الحلاقة . ها ، ها ، والويسكي أفضل كثيراً لحكّ البشرة ، ألاتريد أن تشرب ؟ ماالأمر ؟ دعنا نسكر . أنا أسكر دائماً قبل أن التقي عائلتي . العائلة مواجّهة دائمة» .

«ألاتبعد هذه القنينة عن وجهي!» .

ضحك بانديلي بخفوت ، واستعد لنزول بيتر .

« أقول ، إن صديقك شخص حساس . مابه ؟ » .

« سله » .

« لاأدري سبب ضيقه . ماالأمر ؟ لم أفعل سوى إنني قدمت له شراباً » .
وتجرّع جرعة أخرى « أتشرب ياباندیلي ؟ » .

هز باندیلي رأسه .

« هلمّ يارجل ، دعنا نسكر أنت أنا » .

« أنا شرعت أحتسي البيرة » .

« هذا جيد . اشرب شيئاً من الويسكي ، وأتبعه بالبيرة . هلمّ يارجل ، ما بالكم جميعاً ؟ » .

دفع بالقنينة إلى يد باندیلي ، وتناولها باندیلي ولكن ليس بإحكام . سقطت الزجاجة على الأرض وانكسرت ، فعاد باندیلي بكل هدوء إلى بيرته .

هبّ بيتر على الفور ، اختطف المقشة ووقف في مدخل الحمّام وقتاً كافياً ليقول « صديقك يتصرف بكل تأكيد تصرفاً جنونياً . ماذا جرى له حتى يبدد شراباً ثميناً ؟ » كان يبدو عليه حزنٌ حقيقي . وشرع ينشف الشراب ، وهو غير منقطع عن أفكاره في أن يرسم المدينة أولاً ، ثم الليل ذاته ، بالأحمر .

في المرآب توقّف باندیلي « امتأكدُ أنت من رغبتك في الذهاب إلى الحفلة ؟ » .

« أي شيء ، للفرار من بيتر . ياإلهي ، لقد حولني ذلك الشخص في خمس دقائق إلى قطعة هلام » .

« حسناً . لنمض » .

« ماذا تراه يقول ، حين يجدنا ذهبنا ؟ » .

« أوه ، سيجد لنا عذراً . انه ذو جلدٍ سميك جداً » .

وماذا عن تلك الطائرات ؟ » .

« فقط لأتخلص منه . قلت ان لي صديقاً كان يعمل دبلوماسياً في كندا ، وأنه عائدُ مع عائلته ، وسيسكن عندي » .

أسيأتي اجبو ؟ » .

« انه لايكاد يغادر المكان الآن . انه متعلقٌ تماماً بفتاة صغيرة » .

« لااصدق ذلك » .

« سترى بنفسك » .

« لا . لن أصدق » .

الطريق الخاصة كانت مختنقة بالسيارات عند الحفلة الكبرى ، وقال ساجو « لنُعِد السيارة ، ونَعُدْ ماشيين » .

هزّ بانديلي رأسه « ستنبحنا الكلاب ، أو تعضنّا حين تعتقد أننا مُضيفون » .

« صحيح . أظن أنها متنفجة . ماذا تفعل لأصحاب الدراجات ؟ » .

« هذا يعتمد . المضيفون يمرون . نبحتان قصيرتان للمحاضرين ؛ هذا يعني ـ شيوعيون » .

« أنا متأثر » .

في بريق لوحة قياس السيارة ، كان وجه بانديلي جافاً صادقاً . « ليس هذا بشيء . إن كنت تقود إحدى السيارات الفارهة فإن الكلاب تتمدد على الطريق وتدعُكَ تقتلها » . طنينٌ من فطنةٍ ، وضحك مشذّب ، وذبح انموذجي ، رحّب بهما من الطريق الخاصة ، فدخلا منزل الأموات . من ناحية البُنش جاء صوت حاد ـ كان لهجة غريبة من إحدى القبائل البريطانية ـ « ثم صار لها اهتمامُ مفاجيء بمجموعة المتزوجين ، ولهذا قال جون ، الأفضل أن نرى مايجري » . ضحك عام مكتوم ، ثم صوت عميق يترنم « أعتقد أن رحيلها إلى لندن كان جدّ مفاجيء » ، ومرة أخرى ، وبالنبرة ذاتها ، ضحكات محسوبة .

« أتظن أننا سنشق طريقنا نحو القناني ؟ » .

« ليس علينا إلا أن ندفعهم قليلاً كي ينسحبوا » .

« انتظر دقيقة . أرى وجوهاً سوداً ـ أهم نايجيريون ؟ » .

« المظاهر خدّاعة ، تعال » .

بين طاسات النُّقل ـ الفول السوداني ، والبقول المجففة ، واللحم بالأعواد ، والزيتون الحتميّ ، رأى ساجو طاساً مليئاً بالفاكهة الطازجة فمضى إليه هاتفاً « لتذهب الوطنية إلى الجحيم ، ياباندلي ، لافاكهة في العالم تنافس التفاحة الأوروبية » .

قال باندلي « أنت مخدوع ، ولكن اذهب لتتحقق بنفسك » . عاد ساجو حانقاً « ترى ، ماحاجة أي شخص في البلاد إلى الفواكه البلاستيكية... هي... هي... انتظر دقيقة ياباندلي ، انتظر دقيقة... » انه الآن يرى فقط ديكور الغرفة ، وشرع لسانه يلقلق وهو يدور بطيئاً حول نفسه .

« مابك ؟ أما زلت مهتماً بالفواكه ؟ » .

« لأستعمل تعبير ماثياس المفضل أو ـ كو ـ كو ـ كو! » .

من السقف تتدلى معنقدات ليمون على اسلاك غير مرئية . رقاقة برّاقة لدفء الحياة والنضارة تروي الحكاية ، كانت معنقدات الليمون زائفة كالتفاح . ثمت أصص زهور على الجدران ، ولبلابٌ يتدلى منها ليهبط على صورة سياج . كل هذا بلاستيك . السقف أيضاً مكسو بأشنات بلاستيك . مرّ ساجو ، ولاحظ الآن مجموعة خاصة للعرض مكونة من برتقالة واحدة ، وإجّاصتين ، وعذق موز ، مجموعة وصلت مباشرة وللتو من معامل الشمع الأوروبية .

« أشعر كأني تائه في الغابة المتحجرة . مابالُ هؤلاء الذين يعيشون فيها ؟ » .

« لاشيء » .

« الديهم امخاخٌ متحجرة ايضاً ؟ » .

من منطقة الكمأة ، « أقول لك كان يجب أن أقطع إجازتي بسببها . ان نفريتيتيس ببساطة لاتطيق الأفارقة . إنها قطة شديدة الحساسية . من سيعتني بها ؟ » .

ابعد بانديلي ، بلطف ، اصابع ساجو عن ذراعه « لقد سمعت . ولستُ بحاجة الى مرقأة » .

« لكن هل سمعت أنت ؟ أعني هل حقاً ماسمعت ؟ » .

« نعم . نعم . تماماً أمام طاولة الأشربة » .

« لكن من كان الأسود الأحمق الذي ينصت بكل التعاطف . من كان الخادم بملابس السهرة ؟ » .

« لاترفع صوتك . انه الاستاذ الجديد . وهي حفلته » .

« ... أقول لك بكل تأكيد ان نوبات هيجان تنتابها . إنها ، ببساطة ، ذات حساسية إزاء الأفارقة . أوه... أنها قطة حبيـ... بةٌ حقاً » . وثانيةً ، أومأ الأستاذ برأسه متفهماً .

« لكن لوكانت تتكلم مع أبيض لكنت فهمتُ... » .

أحس ساجو باهتياج غريب يتصاعد ، تدريجاً ، بادئاً بأنامله . ثمت إحساس يزحف على جلده ، احساس مريبٌ خطرٌ .

تقدمت امرأة . بدأ بانديلي « هنا ، اعتقد أنك ستدفع ثمن ما شربتَ . كان عليك أن تلبس ربطة عنق » .

« ماذا تقصد ؟ » .

« المضيفة صاحبة الدعوة تقترب . حظاً سعيداً » .

قالت المرأة : « مساء الخير ياباندليلي ، لم أرك تدخل » .

وازداد اهتياج ساجو حتى شعر بحاجة الى التبول .

« أخشى انني جئت جد متأخر . عدتُ للتو من لاغوس » .

« تعني أنك قدت سيارتك ليلاً في ذلك الطريق ؟ انه خطر جداً ، أنت تعرف أولئك المجانين . أنا أجعل زوجي دائماً يأخذ السائق إذا أراد السفر ليلاً » .

قال بانديلي : « كنت مصمماً على الا تفوتني حفلتك » .

كاد شراب ساجو يسقط من يده .

« أليس جميلاً منك أن تقول هذا ؟ من هو صديقك ؟ » .

استبقهما ساجو بصورة حادة « التقينا فقط على عتبات المنزل ، ولم يكن لديّ وقت لأقدم نفسي . اسمي ادوارد اكينسولا ، يجب أن تكوني صاحبة الدعوة » وكان يترنم في سره... اجراسٌ على اصابعها ، ساعة بيغ بن على اصابع قدميها ، ولديها ب . وبالرغم من وردتها...

مدت إليه يداً ـ مُقَفَّزةً . مُقَفَّزةً حتى المرفق « كيف حالك ؟ نحن لم نلتق سابقاً ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم . لاأظن ذلك » . أخذ ساجو القفاز « ... ماذا لديك داخله ، ياامرأة ؟ سمكة زلقة ؟ » .

« أنت جديد في الكلية ، طبعاً » .

« وصلتُ للتو من أميركا » .

« آه... الولايات . هذا يفسر الأمر بالطبع » نظر إليها ساجو ، وانتظرها كي تشرح مايشرح الأمر ، فتفضلت عليه « الأميركيون غير رسميين . اليسوا هكذا ؟ » .

اختل توازن ساجو ، وشعر بالغضب . لكنها حولت الحديث فسألته « أبدأت تلقي محاضراتك ؟ » .

« لا . كنت أقوم ببحث ما »... وفي البداية ، ابحثي لي عن السبب في أن سُرَّتك المكّورة تفتحت عن وردة اصطناعية...

« نسيت . لقد انتهت المحاضرات في الحقيقة . والآن في الغالب ، اختبارات وأشياء » .

قال ساجو « بالفعل ، اختبارات وأشياء » .

ابتسمت بعذوبة « على أي حال ، أنت تحتاج وقتاً لتدبير شؤونك أولاً . شيء صعب دائماً أن يدبر المرء شؤونه بعد أيام دراسته ، أنا متأكدة . وأنا اعتقد ، دائماً ، أن دفع الطلبة مباشرة إلى القاء الدروس مسألة مرعبة . صعبٌ جداً أن يكيف الطالب نفسه . بانديلي ، تعال معه الينا ، للشاي » .

« بمنتهى السرور ، ياسيدة أوغازور » .

« هل دبرتما تناول شيء من الطعام ، بالمناسبة ؟ انه عشاء بوفيه فقط . لو اسرعتما فقد تظفران بشيء » .

... كانت التفاحة البلاستيك لذيذة شكراً.. لكن ساجو كان يغلي صامتاً ، ومما زاد الأمر سوءاً أن بانديلي كان يضحك ضحكاً خافتاً حين استدارت عنهما المرأة ومضت . انفجر ساجو « علام تضحك ؟ » .

« عليك » .

« لاأرى أي سبب » .

« لاتتكدر . أنت دبرتها بشكل ما ، فقط عليك أن تتهيأ لأناس كهذه » .

قرقٌ مركّز في أحد زوايا الغرفة ، عند السلّم بالضبط . لقد اجتمعت النساء كلهن بطريقة ما ، ووقفن ينتظرن شيئاً . التفت ساجو إلى بانديلي مستفسراً إن كانت الحفلة انتهت ، وفي هذا الوقت كان الاستاذ أوغازور نفسه يقترب منهما .

« ظننت كارولين كانت هنا » .

« كانت هنا منذ لحظة » .

« أوه... السيدات ينتظرنها » .

وسرعان مانجمتْ السيدة أوغازور ذاتها من مجموعة وجاءت إلى الاستاذ .

« عزيزتي كارولين ، السيدات ينتظرنك» .

« أعرف ذلك . كنت فقط أبحث عنك لأخبرك أننا يجب أن ننتقل إلى الطابق الأعلى . هل ستتولى الأمور من هذه الناحية ؟ » .

« طبعاً ، ياعزيزتي » .

« آه ، ها انتذا التقيت المحاضر الجديد » ـ وادرك ساجو بغريزته تبادُلَ التفاهم ـ

« طلبتُ من بانديلي أن يأتي به للشاي ، انه لم يعتدْ بعدُ ، الاشياء ، هنا » .

انحنى الأستاذ كأنه دمية متحركة من صفحات الفيكتور يانا . كانت زراية طبعه جاهزة تماما لأي غلط ؛ وبصعوبة كبيرة منع ساجو نفسه من النظر إلى أسفل كي يرى ان كانت فتحة سرواله مزررة أم لا .

أخذ البروفسور بيد سيدته الطيبة « تعالي ياعزيزتي ، علينا ألا نترك السيدات ينتظرن » .

تفضلت كارولين على بانديلي بابتسامة ملعقة شاي أخرى ، وتابعاها وهي تتضاءل في هفهفات صغيرة .

« قلت لك يجب أن ترتدي ربطة عنق » .

« هل جلبت لك الخزي والعار ؟ » .

« نعم ، كان يمكن أن يحدث هذا إلى حدٍ يصعب ترميمه . لكنك نسيت أنك اخبرت السيدة بأني لاأعرفك» .

« بالطبع . مع هذا . عندي حاسة سادسة لهذه الأشياء . إلاأن الأفضل ألا أخاطر بسمعتك» .

« لاتقلق ، سمعتي رديئة بالفعل . والمجاملة هي أقصى مايستطيعون تدبيره لي » .

« لمَ تكلف نفسك ، إذن ، فتحضر حفلتهم ؟ » .

لكن ، ألا تستمتع بمراقبة الناس أحياناً ، وخاصة حين تعرف أنهم لا يطيقون مرآك ؟ » .

« ذوقٌ غريب » .

« ليس غريباًمثلهم . لماذا دعوني ؟ » .

« بإمكاني افتراض أنه لا يوجد توترُ بينهم وبينك » .

« هذا مايسمونه التحضرُ . نحن مخاليق متحضره هنا » .

كانت القاعة خالية . النساء متجمهرات أسفل السلّم بانتظار دعوة الصعود . والرجال المدرّبون تدريباً بيتياً لايحتمل الخطأ أوجدوا ركن رجالٍ في النهاية المقابلة من الغرفة . قليلون استلزموا مناورات الأستاذ ، لكن اقتراحاته

كانت غير مفهومة . جاءت القهوة وقدمت السجائر . وبتفاهم خفيّ ، استدبروا السلّم لوقت يتيح للسيدات أن يختفين نهائياً . لقد دُبّر الأمربصورة لبقة جعلت ساجو في منتهى الاعجاب . كان الأستاذ يهمس لهم أن مرحاض الطابق الارضي لهم وحدهم ، لكن ساجو وجد الامر جدّ مبكر . لقد أطلق فيه الاهتياج بولاً متقطعاً قصيراً ، مثل الكلب ، وأحس باهتياجه يتعاظم الى حد ينبغي أن يحدث فيه شيء ما ، وإلا فإنه سيموت بسكتة قلبية . استغرقت حركة السلّم وقتاً أطول من الضروري ، بسبب جهود فتاة وسط القاعة كانت تشرح ، بكل أناةٍ ، نقطة خلافٍ ، لقفّازين يلوّحان بوحشية . قبل لحظات كانت مشغولة بحديث حيوي مع ضيوفٍ رجال ، لكنهم غادروا بصورة لبقة حين ظهرت السيدة أوغازور وتنحنحت وراءهم ـ لم تكن ثمة حاجة إلى كلمة أخرى . لكن الفتاة كانت تتجاهل الإشارات . وعندما شرحت السيدة أوغازور النقطة أخيراً ، كان جوابها .

« أوه... ربما فيما بعد ، شكراً ياسيدة أوغازور » .

غدا الفاصل مبعثة للضبق ، قبل ان يلتقط ساجو من الاثنتين ، أولى الكلمات . كانت الفتاة تقول « لكني لاأشعر برغبة في الذهاب » .

أما صاحبة الدعوة ، وقد انحلّت عذوبتها ، ببطء ، في وجهها ، فقد اجابت :

« ياسيدة فاسيي ، أنت تجعلين الآخرين ينتظرون » .

ظل صوت الفتاة همساً صبوراً « أؤكد لك ، أنا لاأريدالصعود » .

« ياعزيزتي . أنت في وضع حرجٍ للغاية . السيدات كلهن ينسحبن إلى الطابق الأعلى ، كي يرتحن ، في هذا الوقت . انهن ينتظرنك » .

« لكني لاأريد الذهاب » .

« تفاصيل الأتيكيت المألوفة هذه ، لايمكن أن تكون غريبة حقاً عليك . فإن كانت غريبة ، فليس عليك إلا مراقبة الآخرين لكي تفعلي مايفعلون » .

صارت أكثر إحكاماً .

« لقد استعملت مرحاض الطابق الأرضي قبل حوالي عشر دقائق ، ولست بحاجة الى استعمال المرحاض ثانية ، في هذه السرعة » .

« المسألة ليست أن تذهبي أولا... » ارتفع صوتها فجأة ، فضبطت نفسها ، والتفتت حولها بسرعة . الرجال القليلون الذين التفتوا بسرعة حجبوا رؤيتهم بنفثات ضخمة من الدخان . تخلّى ساجو عن أي إحساس باللياقة واقترب كي يستمع ، بينما ادارت النسوة ظهورهن عن عار الفتاة . جرّبت السيدة أوغازور النعومة ، ثانيةً « ياعزيزتي ، المسألة أن السيدات كلهن يجب أن يصعدن إلى الطابق الأعلى . ربما كنت بحاجة إلى ترتيب ماكياجك او... » .

« لكني لاأستعمل الماكياج » .

« أكيدُ أنك تريدين أن تنتعشي ياسيدة فاسيي . وعلى أي حال ، إن لم تذهبي ، فسوف تُتركين وحدك مع الرجال » .

« لايهمني هذا » .

« أنت صعبة المراس ياسيدة فاسيي . ولست أفهم لماذا اخترت أن تزعجي الجميع بهذا السلوك » .

انفتحت عيناها واسعتين « هل ازعجتُ أحداً ؟ » .

« تعالي الآن ، تلك فتاة جيدة » إنها الآن آمرة ، أمسكت بذراعها « تعالي معي الآن » .

أوقفت الفتاة اندفاعها بأن وضعت يداً رفيقةً على كتف كارولين « أنت خذي الأخريات . لكن لاتتركيني وحدي وقتاً طويلاً » .

كان يمكن أن تكون هذه هي النهاية . وكان يمكن ان يحدث هذا قبل أيام قليلة .

لكن هذه الحفلة هي امسيتها الاجتماعية الأولى باعتبارها زوجة الأستاذ ، والمشهد ـ لم يعد بالإمكان اخفاؤه ـ صار مفضوحاً . وهي ، من الطراز النادر ، سيدة استاذ سوداء ، يواجهها التحدي من شابة ، ربة بيت عادية ،

أدنى من فتاة ، وفي بيتها ، وبصورة علنية... بينما أصول الأتيكيت إلى جانبها هي ، السيدة أوغازور!

قالت كارولين «ستأتين معي حالاً ، وإلا لا تتوقعي أن تُدعَي إلى بيتي ثانيةً» .

وقالت الفتاة ببساطة «أوه... أنا أفهم ذلك» .

النساء هن اللواتي جئن لإنقاذ الموقف . السيدة اوغازور كانت مستعدة الآن للمغادرة ، لكن القاعة قد استطالت في الوقت نفسه ، والمسافة الى حيث جُمِعْنَ كالقطيع عارية وبلا نهاية . عبر هذه الصحراء جاء الانقاذ ، جاءت السيدة داريفرن الهزيلة ، زوجة الطبيب المختص بالأمراض النسائية .

«اعتقد أننا انتظرنا بما فيه الكفاية ، ياسيدة أوغازور» . امسكت بالمرأة الممتنّة من قفازها ، وألقت نظرة استنكار على الصعلوكة ، وقامت بقيادة أربعين مؤيِّدة الى الملاذ الاجباري لنساءٍ تعشّين .

قال ساجو «هل زوج الفتاة هنا ؟» وحين أومأ بانديلي برأسه ايجاباً ، سأل

«أتراهن أنني سألتقطه ؟» .

«لا . لايمكنك أن تحزر» .

كان العرق يتفصد غزيراً على عنق أحد الأزواج . ولم يكن ليبقيه على وجه الأرض إلا الرغبة المستميتة في أن تنشق الأرض وتبتلعه . كانت حركاته مثل من أصيب بالشلل الرعّاش ، وانطبقت راحتاه على سيجارة حتى خنقتاها .

قال ساجو «سينطلق . الأرض لن تبتلعه ، ولهذا سينطلق ، على أجنحة فراشة عنقه» .

«لقد صاغ اعتذاره منذ الآن . أنا أعرف آيو» .

ثم سمعا كأسه يرنّ على الطاولة . وعدّل السيد فاسيي من قامته ، واستدار ليكشف عزم رجل في محنة على التنصل من سلوك زوجة ، وذلك بدفع تعويض فوريّ .

في الوقت نفسه ، اتجه بانديلي وساجو نحو وسط القاعة .

« عليك أنت أن تعيش معهم . الأفضل ألا تتدخل » ، ودفع بانديلي حازماً إلى الخلف .

لكن حتى ساجو كان جد متأخر .كان كولا قادما للتو مع اجبو حين بدأ المشهد ، وظل يراقب عند الباب . رأوه يسير بخفّة إلى الفتاة التي كانت تقف معزولة بصورة صارخة ، ويتحدث اليها ، ثم يشرع يرقص بجنون مطبق رقصة هاي لايف بطيئة على موسيقى الباليه المنبعثة ، ناعمةً ، من مكبرات صوت خفيّة . استعاد ساجو كأسه ، وهو يقول باحتقار ساخر « هذا المكان يعجّ بأمثال السير جالاهاد » .

كانت الأسطوانة (قطع شعبية من الباليهات الشهيرة) وامتزج الاثنان في هاي لايف بطيئة بمساعدة بحيرة البجع . في الزواية كان فاسيي يتفصد عرقاً . وهو مبعدٌ ، مرتبك . كان هذا الزوج قادراً على الانتظار ، لكنّ شدّ الظهر حذره من استاذ دقيق للمراقبة ، فخطا إلى أمام .

« فاش! » وتوقّف . التفت ، فتهلل حين وجد أن المتكلم هو بانديلي « آه ، هلو ، آسف . أنا منصرف الآن » .

« والرقص قد بدأ للتو ؟ » ثم رتّب بانديلي موجته الذهنية « أم تراك ذاهباً لتغلق على الأولاد ؟ » .

« ايه ، آسف ، أنا... ماذا قلت ؟ » .

« لاتكن مدّعياً . الكل يعرف أنك حصلت على وظيفة مراقب في قاعة شيهو » .

« ايه ، ماهذا ؟ ايه ؟ اين سمعت ؟ » تحول إلى كلب دوّار ، إلى عظمة رطبة في طرفي الصّفرة « تقصد... إنك سمعت شيئاً ؟ » .

« أوه . أترك الموضوع ، يافاش » توقفت الاسطوانة . والأستاذ نحّى الغرامافون جانباً ، بدون أن يضيع نظرة على وقاحة الراقصين .

لم يكن ساجو سكران . لكنه أحس ، ثانية ، بذلك الاهتياج . كان

الأستاذ يعود الى المجموعة ، فقد استعيدت كرامة منزله ، المصونة بدرع الاستقامة .

ارتفع صوت ساجو مفاجئاً في الصمت« جميلٌ جداً . دعونا نرقص الجوجو أو التويست بدلاً » .

أوقف الصوت خطوات الاستاذ ، وصمتَ ركنُ الرجال امتعاضاً . وظلت الكؤوس معلقة في الهواء ، كأن مقترح النخب قد سقط منبطحاً على وجهه .

كان صمتاً كالذي يلي شيكاً مرفوضاً ، صمت إفراغٍ متعجلٍ ـ كما شعر ساجو .

تحرك الاستاذ أخيراً ، متجهم الوجه الى حد اخذ فيه كل ضيف يسأل جاره « آمل أنك لست أنت الذي اتيت به » ، وتأوه ، مستاءً من أن المرشح لم يخسر فرصة تسميته لإحدى اللجان .

لكن كل المظاهر توحي بأن ج .د . أوغازور كان يستبعد الفصل كله من ذهنه ، فالأستاذية الجديدة تدعو الى فضائل جديدة ، مثل ـ الشهامة . كان وجهه يتوسل الهدوء ، والكرامة ، وضبط النفس ، بمواجهة الاستفزاز البربري . استجابت الجماعة ، واستؤنفت الثرثرة . انضم اجبو الى كولا في القاعة والتحق بهما ساجو على الفور تقريباً ، لكن الزوج سحب بانديلي إلى الوراء ، وأخذ يسأله عن المراقبية . اصرّ بانديلي أن الأمر مجرد شائعات ، لكنها شائعات من أوساط هامة .

أخيراً ، دعا بانديلي الى الغداء .

المحاضر من الدرجة الثالثة ، اديورا ، استطاع ان يكتشف اين تناول رئيس غينيا غذاءه حين زار الجامعة ، ثم تذكر حديثا خاصا جرى بينهما بُعيد ذلك الغداء « نعم . نعم . تغدّى معي . الشخص الاعظم » .

نوجيكوي ، سأل الاستاذ نصيحة ابوية عن الموعد الذي يجب ان يأخذ فيه أجازته السنوية ، ثم امتدح الثريات النحاس على الجدران الأربعة . وتساءل الاستاذ « ثريات ؟ » ، ولأنه خائف من ان يبدو جاهلاً ، اخفق في

ادراك الفخ «أوه . أوه . نعم . غاليةٌ جداً لكن كارولين ارادتهما تماماً» .

وسحبه نوجيكوي اكثر ، ثم عاد الى مجموعته ليذيع آخر أنباء اوغازور .

من الدكتور لوموبي ، «... مسألة سرية حقاً ، كما تعلم ، لكن اتدري ان احدى الفتيات حاملٌ ؟ شهقات رعب . «طالبة في السنة الثانية . جاءت إلى عيادتي تسألني المساعدة . يارجل ، أنا لن أفعل ذلك الشيء ، هذا ما اخبرتها . نصحتُها بأن تنتظر الأسابيع الباقية وتعود إلى أهلها ، ليتولى والدها الأمر» .

«هذا آخر ما تفكر به . معظمهن لايتوقعن أي عطف من عوائلهن» .

«حسناً ، انها لن تتلقى مني ذلك النوع من العطف . أنا لن اخاطر بسبع سنوات من اجل متعة شخص آخر . لو أني تذوقت بنفسي ، لأمكنني أن أقدم شيئاً...» .

وتعالت الضحكة مهذبةً على فقاقع الشمبانيا .

كان الاستاذ سنجر يلعب بمنفضة سجائر . قال له أوغازور «أتريدها ؟» .

«لطيفة . نعم ، حقاً ، لطيفة» .

«حصلت عليها بمناسبة عيد ميلاد زوجتي . ستٌّ منها . والثريات على الحائط» .

«آسف... ماذا قلتَ ؟» .

«البرونزيات... اشياء مفيدة في البيت . أنا رجلٌ عمليّ في الهدايا . وكارولين مغرمة بالثريات» .

وأمضى الأستاذ سنجر بقية الأمسية وهو يحاول تعيين مكان الثريات البرونز على الجدران .

في بيت الأموات حيث تحجرت الأدمغة لمقابض خزانة ثياب دهينوا ، نظر ساجو ثانيةً واكتشف عناقيد عنب أبيض وأسود ، مدلاّة من حوامل على الحائط ، متلألئة بالخضرة الدائمة لأوراق البلاستيك .

انكر الدكتور اجيلو انه ادخل عاهرات الى بيته . اقسم انه لم يأخذهن أبعد من المرآب ، لكن أوغازور كان خلفه تماماً ، ولم يكن هذا مبعث سرور له .

« موسيقى الغزل تلك . أرضية مفيدة ، كما تعلم ، وإذا بالزوج يشكّ في التمارين الاخيرة... » .

« يقال ان السيد أوديدو لايستطيع ان يدفع حتى قوائم كهربائه . ترى ، ماذا يفعل بنقوده ؟ » .

« مع من ترى سالوبي هذه الأيام ؟ أقول لك ان هذا الولد فاسدٌ اخلاقياً . انه غير قادر حتى على ضبط الطلبة » .

كان أوغازور يقول « في أحد الأيام سيتهمه المجلس بالإفساد المعنوي » .

رجل كالغاع القى بنفسه على بانديلي ، فوجد نفسه وحيداً مع ساجو . قال بانديلي وقد ذاب فجأة في الحشد «أبعدهُ ان استطعت » ، كان ساجو في غمرة اهتياجه . لقد حقق حالة انعدام الوزن للافراغي الحقيقي بعد حقنة شرجية ـ كان الجمع خروعاً لبسيشه افراغية .

حيّاه ساجو « يجب ان تكون لفتاً » .

« معذرة ؟ » .

« اللفت . اللفت مفقود . لقد رأيت تفاحاً وإجاصاً . حتى هذا لاً بلاستيكياً ، مع أني لم أرد أبداً أن أنظر هكذا لو وجدت كارولين تقف تحته . أتريد أنت ؟ » .

« معذرة ؟ » .

« قلت إنك اللفت » .

« من أنت ؟ لاأظن أنني أفهمك » .

« لاتفهمني ؟ الا تتكلم الانجليزية ؟ » .

« ها ، ها . وددت لو فهمتك . الانجليزية على طول الخط ولستُ خجلاً منها » .

« في هذه الحال ، أرجوعفوك . الشخص الخطأ » .
« هذا حسن . فكرتُ أن الأمر كله غريب . اسمي بنكشور » .
« بنكشول ؟ » .
« لا . بنكشور ، ها ،ها . أأنت جديد في الكلية ؟ » .
« نعم ، ولا . أنا ابن زوجة الأستاذ » .

شعر ساجو بأن واجبه انتهى ، فقد اختفى بانديلي بسلام ، كما أنه لم يعد مهتماً بالرجل . لكن بدا أن بنكشور قد تبناه ، فشرع يقتفيه خطوةً خطوةً حول القاعة .

لأول وهلة ظن أنه اكتسب قيمة رعاية باعتباره ابن زوجة الاستاذ ، لكنه كان على خطأ . إذ أن بنكشور يعرف كل شيء عن الاساتذة والعمداء والمسجّلين والمستشارين ، ومستشاري المجلس ، ورئيسه ، وعوائلهم حتى ادق تفصيل ، وهو يعرف الحقيقة البسيطة وهي ان للاستاذ أوغازور ثلاثة أبناء ، وبنتاً واحدة فقط ، وأن البنت سببت له اسىً واذى كبيرين ، إذا استولدها من خادمة المنزل ، وتمّ ابعاد البنت المسكينة إلى مدرسة خاصة في ايسلنجتون ، والحق انها كانت الطفلة المفضلة لدى أوغازور والتفاحة البلاستيك لعينه... لذا كان واضحا عند بنكشور ان ساجو شخص مدّع جاء ليسرق الفضة ، كما أن من الحسن أن يقدم خدمات صغيرة لهذه النخبة الجديدة السوداء التي يحتقرها سراً ، لكن ماالعمل إن كان هؤلاء الحمير يحبون التزلف والملق... لنعطهم ، ولنأخذ منهم مانستطيع مادامت الأمور ماشية .

هكذا التصق بنكشور بساجو ، ولم يعد بالإمكان التخلص منه . لقد صار كابوساً بالفعل ، وفكّر ساجو بأكثر الخطط سادّيةً للتخلص من الطاعون .

وفجأة ، بدأ بنكشور يذوي . انطلق من حلقه ضجيج حيواني ، وجحظت عيناه فزعاً . تراجع ثلاث خطوات سريعة ، مرتطماً بمجموعة صغيرة ، فاستجمع ساجو ذهنه وفهم السبب في هذا التصرف . في يده كانت حبة أخرى من التفاحات ، وكانت يده مرتدة الى وراء ليرميها على اخيه . واستعاد بصورة

غامضة أن يده مرت بحركة مماثلة في الماضي... لكن الزمن الآن منصهر بالنسبة له ـ انه لايستطيع أن يتذكر البداية الفعلية لعملية القذف . انكساران لامعان اشارا الى طيران نظارتي بنكشور ، وقد تقوس الشول ليلتقطهما . قبل ان يستقيم في وقفته كانت التفاحة تخترق النافذة ، وتناول ساجو اجّاصة من طاس الفاكهة التالي على الحائط . ترنح بنكشور ، سكران بالاندهاش ، شأن ساجو السكران بالويسكي والخفّة .

« ماذا... ماذا تظنك فاعلاً بحق الشيطان ؟ » .

« اطعمُ الكلب » .

« اتحاول أن تكون مضحكاً ؟ أنت ترمي مايملكه الأستاذ من النافذة » .

قذف ساجو بالاجاصة .

« أأنت مجنون ؟ أي حق لك في رمي هذه الأشياء ؟ » .

« أي أشياء ؟ » .

« الزينات . ولاتتظاهر بأنك لاتعرف عمّ اتحدث » .

« إنها فاكهة ، وليست زينات » ، ورمى بعذق الموز .

اتجه بنكشور نحوه « توقّف ، وإلا أخبرت الاستاذ » .

« لو اقتربت استدعيتُ الكلب » .

« لاتحاول أن تخرج من القضية بالتهريج » .

« مهرج ؟ هذا ، إذن ، كل مايبدو لك . انظر إن شئت . فقط حافظ على ارنبة انفك ، انه متوحش » . قرر ان يرمي الطاس ايضاً . لكن صاحبة الدعوة جاءته الآن . عجّلَ بها إلى الكلمات الأولى ، وربح .

« قبل انتهاء الحفلة ، يسرني أن أقدم تهانيَّ لك لمناسبة تعيين زوجك في منصب الاستاذية » .

« هذا لطفٌ منك ، لكن... اتستطيع ان تخبرني بـ... ؟ » .

« اعرف الآن لماذا كان الحفل ذا ملابس رسمية .ان حدثاً كهذا لا يستحق إلا ملابس حدادٍ » .

«اخبرني فقط من أنت ، ولماذا كنت ترمي الزينات من النافذة ؟ » .

«لكني أخبرتك ، يامدام ، انني خبير اليونسكو في التخطيط المعماري» .

«العبث لايعجبني » ونظرت اليه نظرة شزراء .

قال بنكشور «يجب أن يكون سكران » .

«أنت تكذب ايها الملاك الهزيل» .

«في أي قسمٍ أنت ، ياسيدي ؟ » .

«المعمار» .

ردّت بحدّة «ليس في الجامعة قسمٌ للمعمار» .

«لستُ مندهشاً على الإطلاق ، مدام . فقط انظري إلى المباني ، ايه ؟ عمل هواة! » .

«من فضلك هل لك أن... » .

«طبعاً ، منزلك مبهج جداً . واضحٌ أنه شغلٌ خارجي » .

استدارت سريعاً ، وعرف ساجو انها تبحث عن زوجها . بالنسبة لبنكشور كان الاخفاق واضحاً ، ووضعٌ كهذا يبدو مخصصا له . ركز هيئته غير المحددة امام ساجو وبدأ «انظر ياصديقي . اعتقد انك محطمُ أبوابٍ» .

قالت وقد استدارت ناحيته «بالطبع ، هو هكذا » .

فجأة سألها ساجو « هل تربّون قنافذ ؟ » .

تراجع بنكشور خائفاً «لأن » ـ وكانت ابتسامته رقيقة «رقبتي توجعني اشواك مسمومة» . نظر الى الضيوف متفحصاً ، وهو يومىء برأسه عند كل اكتشاف . همس بنكشور «الأفضل أن نطلب المساعدة ياسيدة أوغازور ، فأنا اعتقد أنه مجنون! » .

«ها! أنت تظن هذا ، ايه ؟ » كانت صيحته جنونية ، مباشرة من الطلقة الاخيرة لأفلام الطابق السادس والأربعين . صرخ بنكشور صرخة عالية ،

فاستدار خمسون رأساً نحوه . شاهد ساجو ، البروفسور ، وهو يشق طريقه معتذراً ، عبر الزجاج والدخان ، وأخذ ساجو يفكر بالتراجع .

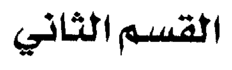
« بعد ان فكرت ثانيةً ، ياسيدتي ، سوف أعيد اليك قرن الوفرة البلاستيكي . إن كان خادمك هذا مصيباً ، وكانت تلك زينات ، لما لمسها الكلب » .

« إنه كلب يحسن الاختيار حقا » . وقبل ان تحزر السيدة اوغازور نيته ، رفع يدها إليه وقبّلها . في ذلك الوقت بالضبط وصل اوغازور . قال ساجو متزلفاً « تهانّي ، ياastاذ ، لتكن لهذا اليوم عوداتٌ سعيدة عديدة » . تردد ساجو ، ثم قرر أن مضيفه ليس بمرتبة وزير ، ولهذا لن يقبل يده . اكتفى بأن عصر يد اوغازور عصرتين قويتين ، وانحنى بسرعة ادهشته ، وشمَّ الوردة البلاستيك التي تزيّن سرّة السيدة أوغازور ، ووثب ثانيةً ممسكاً بأنفه إلى السماء في انتشاءٍ بالعطر .

« كالوردة الحقيقية ، ياكارو ، كالوردة الحقيقية » ثم اندفع خارج الحجرة كالمجنون . سار مسرعاً ، نصف متوقعٍ نوعاً من المطاردة ، التي لا يعرف لها سبباً . شرع كلب بالجوار ينبح ، فتوقف . كان قلبه يخفق ، ولم يهدأ اهتياجه . بدأ يترسم آثار خطاه ، بدون أية مقاومة للجنون الذي يستحثه . كان خلف المنزل ، متغلغلاً بين الشجيرات التي تسيج منزل اوغازور . زلق فجأة لكنه استعاد توازنه ، ونظر الى اسفل فرأى السبب . كانت واحدة من ليمونات البلاستيك التي رماها . تناولها ساجو . طاف حول البيت ، منحنياً في الظلال حتى وجد النافذة . كانوا جميعاً هناك ، ولاشك أنهم كانوا يتباحثون في أمره . وكان بنكشور يميل بين وقت وآخر ليرى ان كانت فاكهة ما ، ماتزال في الحديقة . اغمض ساجو عينيه قائلاً : يابنكشور ، يجب ألاتغريني حقاً . وعدّ إلى الخمسة ليمنح نفسه ما سمّاه فرصة رياضية . لكن بنكشور وقف هناك ، ساكناً ، مائلاً قليلاً الى جهة ، وهو يقول شيئاً للزوجين أوغازور . كانت الفاكهة خفيفة ، وزحف ساجو

أقرب ، قائلاً ، اهدأي ياارياح..وقذف الليمونة . اصابت بنكشور في فمه تماماً ، ناعمةً ، رطبة من العشب ، ومباغتةً . دماغ دائخ الدوران . حلول فورية . رعب غامض ـ يراعه سحر ، ذرق وطواط ، قتل ، نبّوت ، موت ، أفريقيا في الليل...

بنكشور ، الجاهل بالحقيقة ، استوى مع مهاجمه ، بأن أغمي عليه ، فسقط على مُضيفيه .


القسم الثاني

١١

في تموز صارت امطار أيار شرايين ذبيحةً للثور الأضحية ، مليون خرم نازف من الثور السماوي المخبأ في روابي غيم متشنجة ، أسود ، متخماً لهذه المناسبة ، مغتذياً في أعالي الأفق بارتفاعٍ مصطفى لايُحَدُّ ، بعيد عن متناول الزرافة .

في الأسفل يجري سباق ، حينما تذعن الجسور وتلين لشاحنات موسوقة حتى قَدَمَيّاتها ، والقطران الرطب يغزل تهاويل سراب من حدود ـ لاسرعةٍ لسياراتٍ بطوليةٍ تجد حمولاتُها ملاذاً آمناً في الهاوية . ويمتزج دم آهلي الأرض بالسيول الناصلة للثور المخادع ، وتتدفق تيارات تجري تحت الأرض الى الأبد . انصدعت القبة على رأس سيكوني قصير النظر في ليلة ملتبسة . رأى ، متأخراً جداً ، جنون شاحنة متوقفة في طريقه ، صارت الانعطافة انزلاقة ، ورسمت الإطارات . زخرفة عربية . كومة معدن عاجزة ، وجسد سيكوني يمتد مندهشا عبر الباب المفتوح ، ورذاذٌ من هشيم الزجاج يحيط به ، ولحيته كتلة صلبة من الدم والتراب والرطب .

لم ينفع اجبو البتة ، أنه فرّ إلى الصخور عند الجسر حتى انتهت الجنازة ، حيث كان يذرف ، بدون أن يراه أحد ، دموعاً مريرة مغتاظة ، أو ساجو انه سجن نفسه بالبيرة والقيء اسبوعا بينما تكافح دهينوا ، يائسةً من درجة حرارته ، كي تبقيه هادئاً ، وهو يولول انك تبللينني بدموعك اللعينة . ولم

يرتح الا حين وافقت على ان تسترد (كتب التنوير) ، وتقرأ له من صفحة ما ، أية صفحة .

« ... أتذكرُ في هذه الفترة من طفولتي ، وفي باب خندقنا الكبير الممتد المضمون الى الأبد ، أتذكرُ صورة بالالوان لكائنين خارقين ، أثيريين ، من وجود آخر ، يلبسان تيجاناً وحلياً ، وملابس مطرزة ذات حواش ، فراءً ، وذهباً ، ومخملاً ، وفرو قاقم ، ولهما صلبانٌ وصولجانات . ووراءهما عرشان مذهبان . هذه الصورة في عيني الطفل ، أنا ، و ـ مخافة أن تضفي أهمية ايديولوجية على موضع الصورة ، كانت هذه الصورة ماثلة أيضاً في غرفة الاستقبال وغرف النوم . ذلك لأن أهلي كانوا ملكيين متشددين ـ في عين الطفل ، أنا ، كان هذان الكائنان لايمكن ان يكونا ادنى من ملائكة ، أو من الله وزوجته . كانت مرحلة حرجة في استبطاني . ولو بقيت في هذه البلاد ، حيث كل التسهيلات موجودة ، لتخرجت مصاباً بالفُصام إصابة كاملة . لقد صارت حدود هذين الزوجين اللطيفين ، غير الحقيقيين ، هاجساً عندي . أيفعلانها أم لا ؟ وكما في جلسة روحية جاء الحل ببساطة باهرة . في جلسة ذات طبيعة افراغية خالصة ادركت اخيرا التقسيم الموقفي في هذه الوظيفة البشرية . سيكونان إفراغيين ، ولكن ، ياللمسيح لن يكونا الآخر أبداً .

الخرء بشري ، الإفراغ الهي .

هذا كان الميلاد ، الصياغة الملموسة للإفراغية... » .

وقعت على بانديلي المهمة المؤلمة ، مهمة تعزية الحاج سيكوني . لقد بَطُلَ قَسَمُهُ إلى الأبد ، والكفارة تدس خلاصها الغامض في حزنه المنعقد ، وانه ليجلس مشوشاً ، جد مشوش ، وهو يراقب ذهنه يتلاشى حول نوايا الكفارة ، كفارة مبتغاة ، كفارة لازمة ، وهو عاجز عن معرفة ماتكون ، حتى جاءت هذه ، فكان الفقدان هو الكفّارة . لكن الحاج سيكوني غير قادر على ان يقول أو يشعر...

وفرشاة كولا رفعت نفسها ، المرة تلو المرة ، اضطربت ، وعملت بعمًى ، في تشنجات حزن وإنكار...

اجبو العائد من النهر متأخراً في الليل ، التقى بانديلي جالساً في العتمة ، والبدلة التي ارتداها بجانب القبر مازال يرتديها . بوغت بشبح الموت الساكن في غرفة كان يظنها فارغة .اتجه ناحية زر الكهرباء ، لكن صوت بانديلي أوقفه .

« أنا هنا . لاتفتح الضوء » .

« بانديلي ؟ » .

« نعم » .

« أوه ، أنا آسف » .

« ثمت ورقة لك على الطاولة ، جاءت بها فتاة » .

تناول اجبو الورقة ، ومضى إلى غرفته ماراً ببانديلي ، تاركاً إياه يجلس كالصخرة في العتمة . الورقة من الفتاة الغربية . كتبت « أتذكرُ أنك تحدثت عن صديق لك نحّات اسمه سيكوني ، أنا آسفة لموته ، كنتُ سآتي لو فكرتُ بأنك تحتاجني ، لكني متأكدة أن الأفضل أن تكون مع نفسك . أنا آسفة جداً جداً » .

الورقة موقّعة لكنه لم يستطع قراءة الاسم . وخطر له ، للمرة الاولى ، انه لم يعرف اسمها .

التقوا جميعاً بعد اسبوعين من الجنازة ، ينصتون زائغين الى فرقة اخرى من العازفين المتجولين ، وإلى العويل المديد لرباب ، وجوزة .

عبر القاعة ، جلس رجل أمهق ، مائلاً ، مثل شؤبوب مجذوم من القمر ، مفتقدِ النعومة . والنمش على وجهه مثل ذرات غبار مسمومة ، قشرات جربٍ ، وهي تطفو على فوسفور البشرة الخالص . كولا المنكبّ على مناديله الورقية المستمرة ، طمس التفاصيل ، مذوّباً قطرات دهن الدجاج في الأعماق الضحلة لخدي الرجل ومحجريه .

وفي النهاية نقله إلى لطخة ساكنة في ملهى يضج بالزاعقين وآكلي النيران .

صار قرع الطبول خفيفاً على قاعة استعراض ، إنه القرع المألوف الذي يعلن الدخول الحلقي للطبيب الساحر في الأفلام الأجنبية عن أفريقيا .

قال كولا «لم أتوصل البتة إلى حل لغز هذه الشّعيرة» .

«أكلُ النيران يبدو مقنعاً بالتأكيد» .

رمقت دهينوا ، الأمهق ، بنظرة متفحصة أخرى .

«من تراه يعرف هنا ؟ لمَ يظل ينظر هذه الناحية ؟» .

وبدون ان يلتفت الى وراء ، سألها ساجو «أتعنين الأمهق ؟» .

«أرأيته أنت أيضاً ؟» .

«انا من يريد . لست أدري كيف اكتشف مَظَنّي» .

«أنت ؟ ماذا يريد منك ؟» .

«وددتُ لو عرفتُ أيضاً . لكني لست في مزاج مناسب» .

... أوييكوكو مونيران... أوييكوكو مونيران... أوييروبا ، أوييروبا...

قال ساجو «في الولايات المتحدة ، كانت فرقة تسمي نفسها (عذارى الكوبرا الأصليات من كوكوكابورا) . ولو لم أنظر إلى وراء لظننتها الفرقة ذاتها . صيحات الحرب نفسها . البربرة . التهريج . الفرق الوحيد هو في الزي ، ففي الولايات المتحدة يذهبون ، بالفعل ، إلى البلدة» .

... أويي يي يي مونيران... إياووو!

اطلق اجبو دعاء «أود لوهطل المطر ثانيةً وأطفأ النار» .

على أخمصي قدميه الجاسيتين ، وذراعيه البراقتين ، وعلى جسده الصبيغ للحرب ، أطلقَ ألسنة اللهب ، وتركها تتوانى .

والآن كان يتناول المشعل ويطوف به ليبيّن وقدته . مرّ بالأمهق ، فحجب الرجل عينيه متضايقاً ، وفي الوقت نفسه دُوِّمَ المشعل ، والتُقِط وقُذِفَ به بغتةً ، نحوه . هتف كولا «انظروا إليه ، بسرعة!» لكن المشعل كان في الطاولة التالية وأشعل رجلٌ سيجارته منه .

« ماالأمر ؟ » .

« فات الأوان ، الآن ، كان ينبغي أن ترى الأمهق إزاء اللهب » .

كان الرجل تمالك نفسه ، وعاد سيرته الأولى ممتقعاً مثل نيون الشارع . جلس مثل جثة غريقة ، منحنياً كأنه يصارع الجاذبية .

ولاحظ كولا « ليس فيه مايشبه أوسايي ، أوسايي ناعمة ، جميلة في الواقع وحتى لو بلغت السبعين فإنها ستظل لاتبدو مثل هذا الأمهق » .

« لكنها صدّتك في أول الأمر ، كما قلتُ » .

« قليلاً فقط ، وسرعان ماانتهى ذلك . انها من طينة أخرى تماماً . انها شيء متماسك بصورة مدهشة ، ولم أستطع تذليلها اطلاقاً ، لكن ذلك الرجل يبدو مثل لحاء أصفر منقوع أبدياً في الآجبو ومغليّ حتى جسا وجفّ » .

آكل النار الراقص على اصابع قدمه ، وثب ، بغتةً ، زلق من الحدّ وهبط في بركة صغيرة بجانب اجمة موز ، أسرع تابعوه لمساعدته وإنهاضه من كبوته ، وكان مشعله خرقة مبتلة بائسة ، تطلق دخاناً أسود ، ورائحة كيروسين . أصباغ جسده كانت تسيل ، زخارف ربما استنسخها من فيلم عن مغامرات طرزان مع عذارى الكوبرا الأصليات من كوكوكابورا . وأعلن اجبو « البائع الجوال لملهى سانجو التجأ الى آلهة مائية أكثر » .

لكنهم جميعاً شعروا بشيء من هذا ، من الانطفاء . لقد خلفّهم موت سيكوني ، مبللين ، كلهم ، موحلين ، والصبغ يسيل منحدراً على تقبُّلِهم حياةً ظنوا صورتها مكتملة ، يسيل متحدراً رقُعاً قبيحة . أحسوا أنهم ذوو أقدام مسحاء ، وأن هذا السر قد انكشف . وفكّر كولا أنهم لم ينتهوا كما انتهت ليلتهم هذه ، بل انهم مثل خمسة شخوص في (بانثيونـ) ـي ، نهضوا من حوض تربنتين .

دهينوا وحدها كانت واثقة من الأمر ـ كان ينبغي ألا يجيئوا هنا . يجب أن تتغير العادات حين تغدو الذكرى لاتطاق . وكان سيكوني بعضاً من اتحاد اعتبروه مسلّماً به ، وهذه كانت الوقائع المحسوسة ، لامنجاة منها ، مثل

الالتقاء في الكامبانا كل اسبوعين تقريباً ، وفي المايومي بإيبادان في الأسبوعين التاليين . كانت مصادفات تحولت إلى عادات ثابتة ، تُذكر ، مع أشياء عديدة ، بسيكوني ، الذي هو الآن أشدُّ وطأةً ، من تأتأته المتوترة وكثافتها .

هسهست دهينوا بين أسنانها « إنه آتٍ» . استدار ساجو وقابلَ الأمهق بمرح زائف . ترى ، ماذا يريد الرجل ؟ « حسناً حسناً ، لم أكن متأكداً تماماً منك . إذن ، عثرتَ عليّ أخيراً ؟ إيه ؟ » .

« لم يكن الأمر سهلاً ، لكنني وجدت مُراسلك في النهاية... » .

« ماثياس ؟ » .

« نعم . هذا هو الاسم الذي أعطاه . لقد أخبرني أن هذا هو مكانك المفضل لتمضية الليل » .

« اجلس . اجلس . خذ كرسيي . لابأس . سآتي بكرسي آخر » .

انكمشت دهينوا ، بدون أن تدري ، حين احتل الأمهق الكرسي المجاور لها .

عاد ساجو بكرسي ، وشرع الرجل يتكلم على الفور ، في لهجة تمزج الاهتمام بدرجة عالية من التأكد « ياسيد ساجو ، لن أزعجك أكثر من اللازم ، لكنك قادر على مساعدتي ، باعتبارك صحافياً » .

نقّب في جيوب قفطانه ، وأخرج محفظة استلّ منها مظروف بلاستيك في داخله مقتطَعٌ قديمٌ ناصلٌ من صحيفة . ومن خلال البلاستيك الذي تحول لونه الى بني ، كان واضحاً أن المقتطَع ربما أقام طويلاً بين طيات كتاب . إذ كان المقتطع حاد الحواشي . حين وجد مالك الوثيقة أن وثيقته الهامة هشة إلى هذا الحد ، قادته حكمته ألى أن يأتي بمظروف بلاستيك ، والآن ، يغدو بالإمكان معاينتها وقراءتها ، بدون خطر اهتراء الحواشي أو محو الكلمات الثمينة .

رفعها ساجو الى الضوء وقرأ . نظر ثانية إلى الأمهق وناول بانديلي المظروف . قرأوه كلهم ، على التوالي ، بدون تعليق ، ناظرين فقط الى الرجل

أمامهم بمزيج من الدهشة والشك . انتظروا كلهم ان يتولى ساجو التعامل مع هذا . فالغريب ، على اي حال . رجُلُه هو .

أخذ ساجو ، المتقطَعَ ، من دهينوا ، وأعاده إليه «منذ متى كان هذا ؟» .

«منذ حوالي ست سنين» .

«ربما كان عليّ أن أسألك أولاً ، لماذا أردت أن تراني ؟» .

«لماذا ؟ باعتبارك صحافياً ومن اهل الله ، تستطيع مساعدتنا نحن» .

«نحن ؟» .

«نعم ، كنيستي . حين وقع الحدث العظيم ، وعُدتُ حياً بعد موتي ، لم تعد حياتي ملكاً لي ، إذ وهبتُها لله» .

قال باندِيلي بهدوء «المقتطَعُ لايقول كثيراً ، هلاّ أخبرتنا بالمزيد ؟» .

«بلى . أنا أعرف . ليس في المقتطع سوى خبر صغير . وماذا يمكن أن يكون أكثر حقاً ، سوى بيني وبين الله . سقطت ميتاً في شوارع قرية غريبة . الناس الطيبون دفنوني اليوم التالي ، فقط ، حين كانوا ينزلون التابوت في القبر ، استيقظت وأخذت أدق الغطاء . هذا كل ماهو متاح لعيون الشهود الفانين» .

وجد اجبو أنه كان يحاول تخمين عمر الأمهق ، لكن ذلك كان مستحيلاً .

لاسونوون كان يفكر كيف أن هذا يحدث يومياً . ولم لا ؟ أمس فقط استيقظ رجلٌ يائسٌ في مشرحة... إلى أي حد يمكن أن يكون هؤلاء الأطباء مهملين ، ياللمسيح! أيةِ فكرة مفزعة .

أما كولا المفعم ذهنه بالفانطازيا فكان يتساءل في سره ـ ماذا يفهم المرء من التوقيت العجيب لهذا الشخص الغريب... مباشرةً بعد موت سيكوني ؟... نعم . نعم . الأطباء الآن يتحدثون حتى عن موت «واضح» ، إذن ماذا يعنون ؟ موت أولا موت ، مثلاً ، حين أنزل سيكوني إلى القبر ، تخيّلْ أن

الناس سمعوا دقةً مفاجئةً ، وتمتمةً من سيكوني ، ددد... دعوني أخرج ، ددد... دعوني أخرج...

ووجد كولا أنه كان يحدّق في وجه الرجل كأنه فكّر أن يرى وجه الشيخ وقد أعيد تحوله من وجه الأمهق... من وجه جذرٍ أصفر ممضوغٍ استُنزِف كل عصيره الحيّ...

حنّت دهينوا إلى ذراع ساجو كي تتشبث بها ، وهي تفكر ، عرفت أن ثمت شيئاً غير طبيعي فيه... كأنْ ليس فيه دمٌ طبيعي...

هبّ ساجو ، بغتةً ، كأن فكرة جديدة داهمته . نظر بحدّة الى الرجل ، لكنه لم يتكلم . استمر الأمهق يتحدث .

« لا أعرف ماذا كنت قبل موتي ، أو من أين أتيت ، لكن الأمر الذي أفزع القرويين حقاً هو أنني كنت ، قبل ان يضعوني في التابوت ، أسود ، مثلك ، مثل كل أصدقائك . وحين استيقظت ، صرت هكذا » .

علّق ساجو« الورقة لاتذكر عن هذا شيئاً » .

أجاب الامهق « كيف يستطيعون ؟ أتراهم يصدقّون بالأمر ؟ أتصدق أنت ؟ أن أتحول إلى أمهق في ذلك الوقت القصير الذي قضيته في التابوت! لكنهم كلهم قالوا ذلك ، وممرضة المركز الصحي الريفي حيث أُخذت أولاً . قالت لي ذلك بملء فمها! » .

انفجر لاسونوون « أي مصير مفزع! أتدري... ينبغي أن تكون ضمانات إزاء أمور كهذه . يمكن أن يحدث هذا لأي شخص . فكّر فقط بالمسألة ، أن يُدفن المرء حياً! » .

تصلّب وجه الأمهق ، لكن ساجو فقط الجالس لصقه ، لاحظ هذا .

« لم أدفن حياً . كنت ميتاً » .

ضحك لاسونوون الآن « أكيدٌ ، أنت لاتعتقد أنك متّ فعلاً . إن أنت الآن حيٌّ ، فلا يمكن أنك قد متّ . ربما كانت غيبوبة أو مايشبهها ، ثمت تفسيرات طبية لهذا النمط من الأشياء » .

التفت الأمهق إلى ساجو « أريد أن أدعوك إلى صلاة في كنيستنا ، أود كثيراً ان تأتي ، لأنها صلاة خاصة » .

قال بانديلي « لكن هل بمقدورك أن تحكي... هل بمقدورك أن تتذكر ـ ما شعرت به ؟ أنت تفهم ، خلال تلك الفترة التي استيقظت فيها وبدأت تدقّ التابوت » .

« أنا أود أن أخبرك ، لكن لكل حادث حديثاً . عن قضية كهذه ، كيف يمكن للمرء أن يتحدث في مثل هذا المكان ، حيث تبدو الحياة رخيصة . لكن لوجئت الأحد المقبل إلى كنيستي...

عينا أجبو لم تفارقا الرجل ، البتة ؛ كانتا متّقدين بحدّةٍ مرضيّة ، تبحثان ، مثل البقية ، أن تستخلصا جوهر تجربة الرجل ، من وجهه . وقف الأمهق .

« أنا أدعو أصدقاءك أيضاً ، للمجيء ، إذ بإمكانهم كذلك مساعدتنا » .

غادر المكان ، منحنياً للمجموعة بتهذيب جمّ .

« لكن كنيستك... أين تكون ؟ » .

« آه... نسيت . أنت لاتعرف ذلك . لكن من غير الممكن أن أصفها لك . لذا سوف أرسل من يدلُّك » .

« اتعرف بيتي ؟ » .

« لا ، لكننا التقينا في مكان ما ، من قبل ، في فندق أكسليسور ، حيث كان الناس يطاردون فتىً باعتباره لصاً . أيمكن أن نلتقيك هناك ؟ » .

« حسناً ، متى ؟ » .

« صلاتنا تبدأ الثامنة صباحاً . في السابعة والنصف سيأتي من يدلُّكَ » .

« حسناً ، سأكون هناك » .

« لاتنس رجاءً ، باستطاعتك مساعدتنا ، وكذلك أصدقاؤك . لو أتيت فسيشرفني ذلك ، خدمةً للكنيسة » .

لم يكد الرجل يكون بمنأى عن السماع حتى انفجر لا سونووون « هل لا يؤمن بذلك فعلاً ، أليس كذلك ؟ أيعتقد حقاً أنه مات ؟ » .

قــال ســاجــو « كنت أفكر أن الأمــر ليس حــتى هذا . خطرَ لي أن ذلك المقتطع لا يتعلق به على الإطلاق » .

أومأ بانديلي برأسه « نعم ، هذا صحيح » .

صاح لاسونوون « كما أن مسألة تبديل الجلد جعلت الأمر أكثر مدعاة للريبة . كانت الصحف ستشير إلى ذلك بالتأكيد » .

قال كولا « نعم ، من العسير ابتلاع تلك اللقمة . والواقع أن الأمر شوكة سمكة في الحلق » .

سأل ساجو « حسناً ، ماذا تعتقد ، إذن ؟ أهو شخصٌ فاشلٌ ؟ » .

اعتــرف كـولا « لقـد جعلني أتسـاءل إن كـان نبـياً آخـر من أنبيـائنا المحليين ؟ » .

« لقيته قبل ستة أسابيع فقط أو سبعة عندما أنقذ نشالاً من حشد غوغاء عاوٍ ، وكذلك في جنازة . لكنه يمكن ان يكون احد اصحابنا الباحثين عن الشهرة . ربما رأى هذا الخبر ، في صحيفة عتيقة ، فاقتطعه ليستعمله في المستقبل . ان الدين مهنة مريحة ، في هذه الأيام » .

« سيان... حسناً ، ماذا تقول يابانديلي...أتذهب ؟ » .

تأوه بانديلي « تعني سياقة خمسمائة ميل أخرى ، الأسبوع القادم ؟ » .

« أنا سأقود السيارة » .

« لكني مازلت مرضوضاً » .

« هيا ، لاتكن كسولاً حدّ اللعنة! » .

سأله لاسونوون « لمَ تريد الذهاب إلى أمرٍ كهذا ؟ » .

« الفضول ، بين أشياء أخرى » .

« لستم سوى عصبة من المهووسين دينياً » .

قال كولا « وأنت ، لست سوى محروم من أية مخيّلة » .

« بالطبع ، لانستطيع أن نكون جميعنا فنانين » .

« عندما تحاول التهكم ، يالاسونوون ، تكون كريهاً » .

«أوه ، أنا أعرف ، أظن التهكم فناً أيضاً . نحن المحامين البؤساء عاجزون عن منافسة الفنانين» .

قال بانديلي بهدوء «كفى ، كفى . مابالكما ، أنتما الاثنين ؟» .

«فقط ، اسقمتني كبرياؤه الأبدية ، هذا كل مافي الأمر . كأن ثمت موهبة خاصة في خربشة بضعة أشكال على الورق . لامخيّلة!» .

«أوه... هذا مؤلم . حسناً . لديك مخيلة . لديك مخيلة ذات سجل سرعة مائية ، حائرة ، غير قادرة على التخيلّ» .

«وأنت مجرد مبدد للوقت ، أنت أسوأ عاطل في المجتمع ، وأنت تعلم هذا» .

قال اجبو« كن متروياً الآن يالاسونوون ، أين تضع ، إذن ، الصحافيين المتبطلين أمثال ساجو ؟» .

«ليس فيه عيب سوى مخه المرحاض» .

«د قيقة واحدة... أتشير إلى فلسفتي الإفراغية ؟» .

«هكذا سميتها ؟» .

كان بانديلي يضحك في سره «عليكم جيعاً أن تتجنبوا لاسونوون هذه الليلة ، فالرجل يتحرق للعراك» .

قال اجبو« ماذا جرى له ؟...» .

قال ساجو «لمس منه كولا منطقة رخوة» . كان قول هذه الكلمة يشبه الضغط على زر جعله يتّقد من جديد بحدّة متزايدة .

«نعم . أنا لاأنكر ذلك . كما انها ليست المرة الأولى . وعلى أي حال ، من يكون هو ليدور هنا وهناك ، مانحاً نفسه مكانة خاصة في الكون ؟ وأنا لاأعنيه هو فقط ، وإنما كل عشيرة أمثاله . انهم يفرغون أفواههم ، يومياً ، في الصحف ، عن الثقافة والفن والمخيلة . كما أن موقفهم متعال ، كأنهم يتحدثون إلى برابرة المجتمع الأميين» .

«ربما لم تفهم يالاسونوون مايقولون» .

كان لسخرية بانديلي الخفيفة وقع الفلفل على لاسونوون ، الذي قال «لم أفهم ماذا ؟ لكنهم لايقولون شيئاً . بربرة ، ليس سوى بربرة . مثل سيكوني ذاك وقبته الجهنمية...» .

وتوقف ، بعد فوات الأوان .

وثب كولا . صائحاً «أيها النغل ذو الفم القذر!» .

لكن هذا لم يكن ضرورياً ، إذ جلس لاسونوون متضائلاً ، متمنياً لو استطاع أن يسحب الكلمات ، بينما كان اجبو يفكر ، لكن لمَ لا ، لمَ لا . لماذا توقف بسبب رجل مات ؟

إنه لم يعرف ، قط ، عاطفة كهذه عند كولا .

وقف كولا ، قطرة مطر مرتجفة على افريز سطح ، ثم انهار في كرسيه ، وقد اخفى وجهه بيديه .

١٢

قال الرجل المرتدي ثياباً بيضاً ذات حواش من الدانتيلا «اسمي العازر ، لاالمسيح ، ابن الله» .

كوخ صغير على بحيرة بنية ، حجرٌ من الأغصان وصناديق البيرة ، مع جريد نخل سُوّيَ أبواباً ونوافذ ، ثمت عوارض غير مستقيمة وسقف من الأغصان . كان يمكن أن يكون طاحونة هوائية بأرضية الألواح الخشب الضيقة المبيضّة والطنين الدائم المستقر ، مثل قمح يطحن ، وكلازمات إنشادٍ ديني تتخلل الجدران ، بينما هم ينتظرون حتى انتهاء الصلاة . أخيراً ارتفع صوت العازر بعد أن سُحبت مصاطب خشنة ، فدخلوا وقد التصقت عيونهم بالرجل الماثل عند المِقرأ الفجّ . تسللوا إلى مصطبة خلفية ، لكن رجلاً أسرع إليهم ، وقادهم إلى الخارج ثانية . وقد لاحظوا الآن ماكان ينبغي أن يعلموه عند الدخول ، الصفوفَ الدقيقة للأحذية قرب الباب . «اسمي العازر ، لاالمسيح ، ابن الله» .

خلعوا أحذيتهم مضطربين بسبب ما أثاروه من انتباه إلى أنفسهم . البرودة المتغلغلة في أصابع قدمي إجبو جعلته ينظر إلى أسفل ، فرأى الأرضية اسمنتاً رقيقاً ماتزال عليه آثار العمل السريع غير المتقن . كان مايزال عليهم أن يرتكبوا شططاً ، فعندما أوشكت دهينوا على الاتجاه إلى المصطبة كي تجلس ، وجدت نفسها وقد اقتيدت باحترام الى الجانب الآخر ، فتبيَّن لهم

آنذاك أن الرجال يجلسون بمعزل عن النساء . أخلى الدليل مصطبة لها ، بإشارة من يده ، وفعل الأمر ذاته في الجانب الآخر . هكذا أُجلسوا في النهاية ، وتساءل إجبو إن كان الكشف الذي وعد به العازر ، هذا الأحد ، يستحق تضايقه المتزايد بهذا التطفل .

«صحيحٌ أن المسيح أقيمَ من الموت ، لكنه المسيح ، المسيح الأب ، المسيح الأبن ، الروح القدس . هو أقام نفسه ، لأنه الأب الذي اقام الابن ، الابن الذي اقام الروح القدس ، الروح القدس الذي أقام الاب . لكنني أنا ، الذي أعيد تعميدي باسم العازر . الإله الرحيم هو الذي اقامني من الموت» .

مبللاً من قطر الصباح المتساقط عبر سقف الاغصان ، كان العازر يبدو اشد مرضا مما رأوه ، من قبل .

«ياإخوتي ، هذا اليوم العاشر لموت أخينا ، هذا اليوم الذي نحيي فيه موته ، بموجب تقاليد كنيستنا . وهؤلاء الذين يحزنون سيسألون بالتأكيد ، ألم يَعِد الربُ يسوعُ بالبعث ؟ هذا الرجل كان أحد حواريي كنيستنا ، رجلاً يخاف الله ، لماذا هو ليس هنا اليوم ؟» .

أنا هو القيامة والحياة . من آمن بي ولو مات فسيحيا . وكل من كان حيًّا وآمن بي فلن يموت الى الأبد .

نهض رجل من بين الجلوس على مصطبة قرب المذبح ، منفصلة عن الجسم الرئيس للكنيسة . انتصب وعيناه مثبتتان على زاوية السقف ، وبدا كأنه يستظهر من الذاكرة . أكّدت إيماءة رأس العازر «أنا هو القيامة والحياة... وأنا ، العازر ، أقدم لك هذا التأكيد من الموافقة الشخصية التي وهبنيها الرب . لأن يد الله هبطت على رأسي ، ولأن نور الله صبَّ حياةً جديدة فيّ» .

«إن واجبي ، كما تعلمون جميعاً ، حين يموت فردٌ هامٌ من كنيستنا ، أن اطمئنكم...» .

فليصحّ إيمانكم ، يكن الرب معكم .

إنكم قبل أن تولدوا ، قبل أن أولد أنا ، قبل ان يولد اسلاف اسلاف اسلافنا بوقت طويل ، غلب يسوعُ المسيحُ ، الموتَ...

«تصارع مع الموت وطرحه أرضاً . قال الموت ، تعال نجرب الجيد يجبو ، فأمسك به المسيح من رقبته ، ولواها حتى صرخ الموت طالباً الرحمة . لكن الموت لن يتعلم درسه أبداً ، فمضى وجاء بقفازات ملاكمة . وعندما لكمه المسيح على ذقنه مثل دك تايجر سقطت اسنانه متناثرة من كادونا الى ايبتورو...» .

ورأوا الموت مختبئاً ، منكمشاً ، في الشمس الساطعة لضحكة المصلّين .

أما بانديلي ، المتبهج الآن لأنه جاء مع الآخرين ، فقد كان يطلق أعلى ضحكاته ، صامتاً .

«... حتى هنا ، هل تظنون الموت مستسلماً ؟ لن يفعل ذلك ، ياأصدقائي ، لن يفعل . ذهب الموت الى مزرعته ، اخذ سيفه وهاجم المسيح من وراء . تفاداه المسيح مثل لاعب أكروباتيك ، ثم أخرج سيفاً طويلاً لامعاً من الفولاذ غير القابل للصدأ ، وشَطّر سيف الشيطان شطرين ، لكنه لم يقتله بالكامل ، لذا جرحه جروحا صغيرة على طول جسده وعرضه ، فصار الموت يسير ملفوفاً بالضمادات من الرأس حتى اخمص القدم مثل اولوجوموجومو . ياأخوتي ، لقد دارت بينهما معارك اكثر ، لكن الموت يعرف سيده اليوم ، يعرف قاهره الذي يجب ان يطيعه . وهذا الرجل هو المسيح .

«وكما تعرفون جميعاً ، ان اهتمامي منذ وقت طويل كان منصباً على اننا يجب ان نبني شيئاً افضل لنمجد هذا الرجل الذي جَلَدَ الموتَ من أجلنا .

ولهذا السبب ، ذهبتُ ، بعد فترة قصيرة من موت أخينا . وهو احد حوارييننا المخلصين النشيطين ، الى بيت خطيئة وفسق . علينا ان نذهب حيثما اخذتنا امور ربنا ، حتى هناك يجب ان نذهب بلا تردد . الرجل الذي ذهبت لملاقاته هنا ، هو الآن بيننا...» .

كانوا هم الغرباء ، واستدار مائة رأس نحوهم ، تتفحصهم مليّاً .

«... بورك الرب . لقد جاء كي يساعدنا . بقوة الله سنبني هذه الكنيسة ، كي تناسب إقامة ربنا ، سنرفعها على اسس ايمان أصدقائنا وصدق نواياهم . هسهس ساجو« هذا الرجل يعاني من التفاؤلوجي » .

« حين كنت أتحدث معه ، فإن أحد أصدقائه ـ حاضرٌ هو أيضاً هنا ، بورك الرب» واستدارت الرؤوس ثانيةً ، « وهو هنا ، والآخرين ، أيضاً ، ليساعدونا في مهمتنا . لاسونوون ، المستاء ، كان مستعداً لمغادرة الكنيسة ، لذا أمسك به إجبو من رسغه هامساً « لاتكن حماراً! » .

« من كلمات هذا الأخ أريد أن أختار نصّ اليوم . أفلم يقل الرب يسوع نفسه الجملة إياها ، فقط بكلمات مختلفة ، عندما سمع بموت العازر ؟

ومن غير إبطاء ، تلا الحافظ ـ

العازر ، حبيبنا ، قد نام .

« أيها الأخ ، لنسمعها ثانيةً » .

العازر ، حبيبنا ، قد نام .

« ثانيةً ، غنِّ رسالة الأمل ؟ » .

العازر ، حبيبنا ، قد نام .

« ياأصدقائي ، صديقنا العازر نام ، لكني أمضي... » .

... لكني أذهب لأوقظه .

« الحزن ، ياأخوتي الاعزاء ، شيء طبيعي ، الحزن والأسى هما حظنا من الدنيا . حتى يسوع المسيح ، ابن الانسان ، غلبه الحزن ، عندما جاء إلى المغارة حيث وضع العازر ، وهي مغارة على مدخلها حجر كبير ، المغارة التي للعازر فيها أربعة أيام حتى ان مرثا اخت الرجل الميت أمسكت فمها بوشاح عندما طلب منها ابن الإنسان ان ترفع الحجر . تمخطت وقالت :

ياسيد ، قد أنتن ، لأن له أربعة أيام .

أجل ، ياإخوتي ، قسمة حياتنا البشرية الموت والفساد ، لكن الرب إن آمنّا به ، سينقذنا من اليأس . أيها الأخ ، ذكّرنا برسالة القيامة .

انا هو القيامة والحياة . من آمن بي ولو مات فسيحيا ، وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد .

« أريد أن أعطيكم هذه الرسالة اذن ، احزنوا لكن لاتيأسوا ابداً . إذ أن المسيح صار مثلكم ومثلي . مثل الحواريين الأحد عشر الذين حملوا أخانا الحبيب الى قبره ، لكن عليكم ان تفهموا هاتين الكلمتين من الرحمة الإلهية بكى يسوع .

« هو لم ييأس ، هو لم يفقد الأمل لكن... » .

بكى يسوع

توقف العازر .

ثم أشار ، وسحب سترة الرجل الذي بجانبه كي ينبه الحافظ من استغراقه . جلس « نعم ، مع إني أسير خلال وادي ظلال الموت... فإني في ذلك الوادي احسست بيد الله . حلمت انني كنت أسير في حقل قطن ، قطن طري بزغ للتو من الأكمام . لكن لم يكن من صوت ، كل ماحولي أكمام قطن تتفتح بنعومة ، تحت قدميّ سجادة قطن ، في الهواء ، في السماء ، أكمام قطن تتفتح بلاصوت . القطن الطري ينبثق لطيفاً ، مثل وسائد صغيرة ينبثق قطنها حين تضغط برأسك عليها . كل شيء أبيض . المعضلة انني لم اكن لاجد سبيلاً الى الخروج . بعد مدة شعرت بالخوف ، وأخذت أصيح ، منادياً زراعي القطن أن يأتوا ويدلوني على طريق الخروج . لكني لم استطع حتى سماع صوتي . شرعت أركض هنا وهناك . بدأت أبحث عن سبيل خارج هذا الشيء ، لأن القطن كان يتعاظم باستمرار ، وسرعان ماسأكون عاجزاً عن التنفس . وكنت ، بالفعل ، اجد صعوبة كبيرة في ابعاد اكمام القطن عن عيني وأنفي وفمي . فجأةً توقفتْ .

انقطعت حركتها تماماً . وصفا الهواء قليلاً .

« كنت متعباً ، وقد نشف حلقي ، ربما من الصياح ، أو ربما لأني استنشقت كثيرا من القطن ، لاأدري . كانت أعضائي تؤلمني ، ورأسي يكاد ينفجر . لذا قلت سأرتاح قليلاً . وإن بدأت الاكمام حركتها ثانيةً فسوف أستيقظ وأجري . استلقيت . كان أنعم فراش رأيته في حياتي . لكن ، بينما كنت موشكاً على النوم ، إذا برجل عجوز بالغ الهرم ، مغضن الوجه ، ذي لحية طويلة ، يظهر فجأة من لامكان ويمُثلُ أمامي محدّقاً بي . عجزت عن التحرك . ثم تناول عصاه وشرع يضربني ، وفي تلك اللحظة استعدتُ سمعي . سألني « ماذا تفعل هنا ؟ » ، قلت إنني متعبٌ أرتاحُ . ابتسم وقال « حسنٌ . حسن جداً . أنا مسرور لأنك تستعمل عينيك . لم يكن بمقدورك ان تجد مكانا للراحة أفضل من هذا . آملُ في انك مرتاح » . قلت « نعم . أستطيع النوم هنا إلى الأبد » . ابتسم الرجل العجوز ثانية ابتسامة غريبة مرعبة ، ياإخوتي . ذلك لأنني شاهدت داخل فمه ، وكان مملوءاً بالقطن الطري . لا لسان ، لاأسنان . قطن فقط . قال « لست مندهشاً من سماعك تقول هذا ، كل من يأتي هنا يظن ان باستطاعته النوم الى الأبد » ، ثم شرع يبتعد ، وتذكرت إنني لاأعرف سبيل خروجي . لكنه عاد بنفسه ، قبل أن أناديه . قال « نسيت أن أسألك ، أبوك يملك المزرعة ، أليس كذلك ؟ » قلت « لا . ليست عندي فكرة عمّن يملك المزرعة » . « أوه . ليست لديك فكرة عمن يملك المزرعة . وهل أذِنَ لك أحدٌ بالنوم هنا ؟ » . وقبل ان افتح فمي لأسأله المغفرة حتى أهوى عليّ بعصاه . جهدتُ كي أقف ، لكن قبل أن أستوي على قدميّ أهوى عليّ بضربات عديدة دون ان يهتم أين تسقط ضرباته . أخذت أركض . رأيت آثار قدميه على القطن ، وترسّمتُها ، لكن الرجل العجوز لم يجد صعوبة في أن يظل خلفي بالضبط ، وهو يضربني بعصاه ضرباً مبرّحاً .فجأة انقطعت الآثار . أمامي كانت بوابة ضخمة كان بمقدوري مشاهدة اعلاها ، لكن نهايتها ؟ كانت في لا مكان . ليست الى اليسار ، ولا إلى اليمين ، كانت في لامكان . الرجل العجوز وقف الآن ، وفمه المملوء بالقطن ، مفتوح في ضحكة كبيرة ، وهو يراقبني

ليرى ماأنا فاعل . ركضت من هنا ، ومن هناك ، وظل هو واقفاً يضحك مني ، فقط ليبيّن لي أن لامفر . وفجأة ، شرع القطن يتفتح ثانية ، وقال الرجل العجوز «أترى ماصنعت يداك ؟» . ثم أستأنف جَلدي . لم يرحمني الرجل العجوز ، والقطن انصبّ عليّ أثقل مما كان . استدرت اليه ، كي أطلب الرحمة ، لكنني تلقيت ضربة شديدة على فمي ورأسي حتى ظننت اني انتهيت . تورم فمي من الضربة حتى صار أكبر من رأسي تقريباً . وبخوف عظيم من الموت بدأت أصرخ «ليساعدني أحدٌ ، بحق الله ، ليساعدني أحد!» . ليس ثمت من عون . عدت راكضاً وحاولت القفز من أعلى البوابة ، لكن القطن الطري جعلني انزلق ، وهذا الرجل العجوز يضربني وأنا هابط «بحق الله ، ساعدني ، أو أرني سبيلاً للخروج من هذا المكان . كان صوتي يضعف ، والقطن قد استنزف قوتي ، وأوقعني ، وسرعان ماصار أعلى من ركبتي ، ومايزال هذا العجوز لايرحمني أدنى رحمة . حاولت ، مثل سحلية ، أن أتسلق هذه البوابة ، التي ليس لها موطىء قدم ، لاشرخ ، ولامسمار من أي نوع . كانت ناعمة سوداء . «أرني الطريق بحق السماء ، أنقذني بحق الله ، أنقذني من هذا المكان بحب المسيح» . صارعت القطن في فمي وأنفي . وسرعان ما غطى القطن المتساقط ، هذا الرجل تماماً ولم أعد أراه ولا عصاه لم أعد أسمع ضحكته ولاصوته ، لكن الضربات ظلت تهوي عليّ بقسوة أعظم ، وصار القطن يثقلني ، ويهبط بي ، لقد ارتفع الى عنقي ، وكل سقطة كانت تسحب ذراعيّ الى هذا الصمت المخيف . وصرخت «النجدة!» ولم يأت صوت . «نجنّي يا إلهي! نجني ياالهي! نجني ياالهي!» .

العازر ، وقد اتسعت عيناه ، كان يتصبب عرقاً . كان ممسكاً بالمِقرأ ، والعرق يتحدر على الكتاب المقدس . لقد استولى عليه الرعب من الموت ثانية ، وانتشر ، وطوّق المصلين . كانت عيناه الوحشيتان تخمشان الجدران مثل خنفساء عمياء ، ثم تستقران لتنظرا مباشرة إلى نور الشمس عبر الباب المفتوح...

« ... أجل ، كان الأمر هكذا تماماً ، مثلما أواجه هذا الباب ، نظرت فجأة إلى أعلى لأرى البوابة تلك تنفتح أمام عينيّ... » .

كان إحساس بالمعجزة يغمره . وأغلق العازر الكتاب المقدس ، قائلاً ببساطة « أيها الأخوة ، ساعدوني لأشكر الله » .

نهض رجل من المصطبة الأمامية ، وأمّ المصلين في صلاة طويلة . كانت الصلاة هي التي اعادتهم الى طبيعتهم ، ببطء... ارتفعت ترنيمة بعد ذلك ، لكن الكنيسة لم تعد الى نفسها الا في فترة متأخرة من الصلاة .

يبدو أن المصطبة الأمامية ، تضم القائمين على الأمور اثناء العبادة . نهض رجل آخر من المصطبة ذاتها ، وتحدث الى الكنيسة .

« ياإخوتي ، إنه ليومٌ رهيبٌ لنا ، نحن حواريي الرب ، الذين حَمَّلَنا كل عبء الكنيسة ومهمتها ، التعميد ، الزواج ، التثبيت ، إننا نحن الذين نتحمل أغلب عبء الموت على أكتافنا ، نجد اليوم رهيباً ، حين يأتي دورنا لنزود الموت بحمله التالي الى القبر . إنه ليحزننا أشد الحزن أن تزورنا يد الموت وتدفن واحداً منا . لكن الموت لايعبأ بالأشخاص . الطبيب في المستشفى يموت . الغني يموت . الفقير يموت . الله لايرتشي . انه لايحابي . يسوع المسيح نفسه يموت ليبرهن لنا أن علينا ألانتوقع تفضيلاً . كان الأخ عزرا اكبرنا سنًا . وعلى رأسه الحكيم كنا نعتمد في النصائح العديدة ، وفي المعضلات الكثيرة التي نريد لها حلاً . كان يقودنا جيداً في أيام الشدة . ومنذ أن أسس اخونا العازر هذه الكنيسة ، حاولنا نحن الأعضاء المؤسسين أن نسوّي كل خصام ، ونستمع إلى مشكلات أعضائنا ، ونتوق إلى أن نفعل ما باستطاعتنا ، وحسب حكمتنا الفقيرة . أمرٌ رهيبٌ لنا أن نتلفت اليوم فلا نرى الأخ عزرا معنا . لكننا نشكر الله » .

لم يقف الحافظ هذه المرة ، وإنما تكلم بذات النظرة المركزة المتجهة إلى أعلى .

الرب اعطى ، والرب اخذ . ليتبارك اسمه الى الأبد .

« نأمل في أنه ذهب إلى أرض سلام » .

آمين . من المصلين ارتفعت الآهة العميقة ،

آمين .

« نصلي كي يجلس على يمين الله » .

آمين .

« نأمل في أن يعلمنا الله الانتفاع من نور افعاله الوهاجة في الحياة » .

آمين .

« وإن الله سيقول لنا ، حين تحين ساعة موتنا ، ماالأمر ؟آه ـ آه! لاتزعجني ياصديقي ، ألا تعرف الرجل الذي كان قبلك هنا بوقت طويل ؟

اذهب ، وجد الأخ عزرا . وحيثما جلس اجلس بجانبه » .

آمين . آمين ياإلهي ، آمين ، آمين .

« أجل ، ياإخوتي ، الله يكلمنا . الله اعطانا العلامة » .

هلليلويا!

« الله وعدنا ، والانجز وعده » .

هلليلويا!

« قال الأخ العازر لله ، كيف لي أن أجد حوارياً كالرجل الذي أخذته ؟ مَن مِن رعيتي سيكون الحواري الثاني عشر في خدمتك ؟ لكن الله هز رأسه قال ، انظر خارج الكنيسة ، اذهب الى الشوارع والأزقة . وأطاع الأخُ العازرُ . أفلم يقل لنا الله .

سآتيكم مثل لص في الليل .

« وجد الأخ العازر ، من اصطفاه الرب ، وقال ، كيف لي أن أعرف انه هو ؟ وأخبره الله ثانيةً .

سآتيكم مثل لص في الليل .

« لكن الشك ظل يراود الأخ العازر . لأن المقصود شاب . شاب صغير اختاره الله . وقال الأخ العازر كيف لهذا الشاب أن ينهض بعبءالرعية ؟ كيف له أن يسلك سبيلك ؟ » .

وقدموا إليه أولاداً لكي يلمسهم . وأما التلاميذ فانتهروا الذين قدموهم .
فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ وقال لهم دعوا الأولاد يأتون إليّ ولاتمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحق أقول لكم من لايقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخل . فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم .

« وباسمه ، في خدمة الرب إلهنا ، أسألك أن تتقبل أخانا الحواريّ ، الخاطىء الذي ولد من جديد ، الخاطىء الذي اغتسل بدم المسيح ، واختار طريق الصلاح » ذهب الى الباب بجانب الطاولة التي تقوم مقام المذبح . المصلون ازدادوا فضولاً ، واستثارة ، ونفاد صبر . أزاح الستارة ، وهي أثمن شيء في تلك الكنيسة ، ستارة مطرزة تطريزاً جيداً . ومزركشة بالحرير . ومن بين صورتين حريريتين لقديسين ، بزغ شاب نحيل ، ووقف متردداً .

العازر ، المعافى الآن ، نهض والمصطبة الأمامية معه . وشرع الحافظ يتلو ودعا الاثني عشر وابتدأ يرسلهم اثنين اثنين . وأعطاهم سلطاناً على الأرواح النجسة . وأوصاهم ألا يحملوا شيئاً للطريق غير عصا فقط . لامزوداً ولاخبزاً ولانحاساً في المنطقة . بل يكونوا مشدودين بنعال ولايلبسوا ثوبين . وقال لهم حيثما دخلتهم بيتاً فأقيموا فيه حتى تخرجوا من هناك . وكل من لايقبلكم ولايسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذي تحت ارجلكم شهادة عليهم . الحق اقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة اكثر احتمالاً مما لتلك المدينة .

ذلك لأنك لست أنت الذي يتكلم ، إنما روح أبيك يتكلم فيك . ..

تقدم العازر ، وتقبَّلَ الشاب . ارتفعت من المصطبة الأخيرة شهقة حادة ، وصوت ساجو المتقلص : « لكنه... » .

« من ؟ أتعرفه ؟ » .

« اللص الذي طارده في أوينجبو » .

لم يكن منظر الفتى ، منظر لص . كان الطهر ذاته بين الحواريين الآخرين . كان يرتدي سَمَقاً أبيض يصل الى كاحليه ، جونيّةعاديةً ذات

فتحتين للذراعين ، وثالثة للرأس . جاء أحدهم بطاسة ماء ، ورفعها . وفوق الطاسة أدّى العازر صلاةً ، ثم قاد المترهبن القادم الى كلٍ من الحواريين .

« تقبّلوه ، ياإخوتي . تقبّلوه من أجل الرعية ، في خدمة الرب » .

أهوى ساجو بقبضته على رأسه « أبله! هؤلاء هم الأحد عشر رجلاً الذين ساروا وراء النعش » .

« أين ؟ » .

« في الجنازة . في ذات اليوم الذي دُفن فيه السيردرينولا » .

عانقوه كلهم ، بينما ظل ساجو غير مستقر ، مثل رجل يعذبه النمل . « لكن ماعساه فعل به ؟ أغسلَ دماغه ؟ بقي القليل من باراباس ذاك . كأن اسفنجية رطبةً قابضةً سوّتْ وجهاً من الأكزيما » .

هسهسة من دهينوا في الجانب الآخر « سكوتاً! » .

قال العازر « الحواريون هم خدمُ الرعيّة . مهماتهم الموكولة هي أفعال شديدة التواضع ، ذلك لأنهم يسلكون الطريق الذي اختاره هو لهم » .

المترهبن ركع ، وأخذ يغسل اقدام الحواريين .

قال العازر « عمّدنا نوحاً ، لأننا نخشى أن يكون الله نسي عهده مع الأرض .

انظروا الى الخارج ايها الاخوة ، انظروا وشاهدوا الطوفان . مزارعنا ، التي تأتي لخزانة كنيستنا بدخل ضئيل قد جرفها الطوفان . والكنيسة ذاتها ، يجب ان تصلح دائماً ، وقد فاضت علينا المياه مرتين . وأساس كنيستنا نفسه يهتز بسبب التآكل . ياإخوتي ، إن نسي البشر واجبهم إزاء الله ، أفليس حمقاً أن نتوقع من الله أن يتذكر عهده مع الأرض ؟ ومع هذا ، أقدمُ شكري للسماء . ففي هذا الصباح ، ولأول مرة منذ آحاد أربعة ، أشرقت الشمس على العالم إنها لعلامةٌ ، وأنا أشكر الله عليها ، فهي تعني إنه مغتبط لما نفعله . لقد جاءنا الأخ نوح بعلامة مغفرة من الله . أيها الأخوة ، ارفعوا أصواتكم ومجّدوا العليّ القدير! » .

المجد لله!

« غير قادر على سماعكم » .

المجد لله!

« قناطر السماء عالية . أنتم لم تبلغوه! » .

المجد لله!

« ولابنه في الأعالي! » .

الشكر لابنه يسوعنا!

« وللروح القدس! » .

اهبط ايها الروح القدس!

« هللوا... » .

هلليلويا!

« هللو... » .

هلليلويا!

التفت العازر إلى الحافظ ، وطلب « ياامرأة لماذا تبكين ؟ » .

ياامرأة لماذا تبكين ؟ من تطلبين ؟ اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم ، إني أصعد إلى أبي وأبيكم . وإلهي وإلهكم .

« لماذا تطلبن ؟... » .

ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً عن اليمين لابساً حلةً بيضاء فاندهشن .

فقال لهن لاتندهشن . أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب . قد قام . ليس هو ههنا .

« حسناً ، أيها الأخوة ، هل الأخ عزرا ميت ؟ » .

إنه يحيا!

« أقول ، هل الأخ عزرا ميت ؟ » .

هو يحيا في الرب . ليتمجد الرب هلليلويا!

هل سيحيا في الأخ نوح ؟

انه يسير بيننا!

«افرحوا أيها الأخوة . تقبّلوه في قلوبكم! » .

هلليلويا!

« قد اعطانا طفلاً... » .

قد أعطانا طفلاً

هللوا هللوا

قد اعطانا طفلاً

كي يبقينا نحن على دربه

هللوا هللوا

قد اعطانا نحن دليلاً .

هللوا هللوا

قد اعطانا نحن دليلاً

لينير لنا الليل

هللوا هللوا

بين أقدام تدقّ وتثب ، وتصفيق يغلي ويرعد ، كان نوح يغسل أقداماً لاتستقر ، مصحوباً طوال طريقه بالحواريين الذين ينقذفون من كل موجة انتشاء إلى مهمتهم في إفساح الطريق لنوح ، ليعودوا ثانية إلى انقذافهم ، بينما يتمايل العازر أماما ووراءً . كان مثل عازف الكمان ، غريباًفي فرقة آجيديجبو ، كأنْ لم يكن هو الذي لن يسلم جسده بالكامل إلى الفرح العام ، وكأن قوةً مأمورةً ، تبقيه منفصلاً في كبسولته الروحية الخاصة .

كان يهتف من وقت لآخر «تقبّله يارب! تقبله يارب! » .

قد أعطانا سيفاً

هللوا هللوا

قد أعطانا سيفاً

كي نكفيَهُ أعداءَهُ
هللوا هللوا .

ثمت أجراس تقرع بوحشية ، ونساء يرتدين أثواباً بيضاً بدا أن ليس لهن أية يد في تسيير الكنيسة ، لكنهن جنن أخيراً حين شئن ، وهاهنّ أولاء يجرين ، صعوداً وهبوطاً ، في كل مكان ، بأجراسهن اليدوية .

النتيجة كانت سبت ساحرات ، مقعقعاً ، عجيباً . بين حين وآخر كن يمسكن نوحاً ويرقصن معه ، والحواريون تلقوا هجمة الأجراس الضاجة على آذانهم ، وطاسة الماء تعاد الى مكانها بعد أن قلبتها مراراً الأشباحُ البيضُ الهائجة . وحتى الاطفال استغرقوا في الجو ، والأردان العريضة لمَدارع النساء تخفق بلا انقطاع ، وتحوّلهن الى يراعات مسيخةٍ حول الشمعة النحيلة الخفّاقة التي هي نوح . أطلق لاسونوون ضحكة مفاجئة وقال «لو كان في سن الحواريين الآخرين لما طاردنه كثيراً » .

قالت دهينوا « عليك الاعتراف بأن منظره ليس سيئاً . ثم ان الجميع قد اختلطوا ببعضهم ، لذا فكرت في الالتحاق بكم » .

قال ساجو « أليس من الأفضل أن تلتحقي بهم وتجربي حظك ؟ » .

«لا ياعزيزي . لن تكون لي فرصة» .

فجاةً ، وقبل أن يعرفوا ، كانت طاسة الماء بجانبهم ، وقد ركع نوح عند المصطبة .

قال لاسونوون « تجاوز الأمرُ المزاحَ » .

هذه المرة ، شكّل الحواريون حاجزاً مكيناً أمام انجذابة النسوة ، وتحدّدَ تدويمهنّ بالقسم الأعلى من الكنيسة . ليس هذا فقط ، بل إن منشفة جديدة قُدمت للزائرين ، وبتذلل آسرٍ شرع نوح يغسل قدمي دهينوا .

همس ساجو «هل استُثرتِ ، ياعزيزتي ؟ » .

وقالت «في الأقل ، يداه ألطفُ من يديك» .

ثم جاء دور ساجو ، فبانديلي ، لاسونوون كان يتميز غيظاً ، ويلعن

نفسه بسبب استجابته الحمقاء التي جاءت به الى هناك .

سأله بانديلي «ولكن ، ماالخطأ في أن تُغسلَ قدماك ؟» .

«لاأودها ، حسب . هذا كل مافي الأمر» .

قال كولا «ليس بمقدورنا الشكوى . ماذا عن المعاملة التفضيلية ؟» .

حين بلغت الطاسة ، إجبو ، توسل الحواريون واحتجوا ، لكن اجبو رفض ، بحزمٍ صامت ، أن تُغسل قدماه ، بدون أن يقدم تفسيراً ، مكتفياً بإيماءات رفض من يديه ورأسه .

أُبعدت الطاسة ، وخرج الموكب يتقدمه الحواريون .

جذب الروح امرأةً فأخذت تتنبأ ، لكن ذلك لم يزعج مثابرة نوح المندفع الآن بقوته الذاتية الظافرة . اثنان من الأنبياء بقيا معها ، أما الآخرون فاستبقوا عنفوان قدّاسٍ متهلل .

كانوا لاحظوا الصليب الضخم حين دخلوا ، أما الآن فقد رفُع هذا الصليب على كتفي نوح ، وبالأجراس والأغاني وبقوة فرح في ريح مندفعة شرعوا يطوفون بالكنيسة ، متوقفين كل مرة عند بابها ليقدموا صلاة صامتة وجيزة . وكلما بدا التعب على نوح ، أنزلَ الحواريون الصليب ، وحملوه هم في دورة واحدة ، يستعيد فيها نوح قوته . كان صليباً ثقيلاً ، وعندما كانوا واقفين خارج الكنيسة ، على مسافة ما من الباب ، قال العازر متحدثاً للمرة الأولى معهم «الصليب هذا ، من الهدايا القليلة التي عندنا ، للكنيسة الجديدة . وحين تبنى ، فسوف يعلوها . أحد أعضائنا ، وهو نجار ، صنعه للرب . وزوجته هي التي طرزت الستارة ذات صورة القديسين ـ أرأيتموها ؟» .

كانت المحطة السابعة اجتيزت ، حين جاء حواريٌّ من الكنيسة راكضاً ، وأشار إلى العازر . سمع اجبو من الداخل عذاب المرأ ة المسكونة ، صرخة الألسنة الأجنبية ، وصراعها للتنفس . ومن خلال الباب المنفرج قليلاً ، كانت قوتها متعاظمة ضد ثلاثة رجال وامرأة . لكنهم لم يكونوا إزاء امرأة ضعيفة ، كان أربعون شيطاناً يحتدمون داخلها ويتلاعبون بجسدها . حتى قبل أن

يغادروا الكنيسة ، كانت انطوت فجأة مثل جنين ، واثبةً متوترة في الهواء ، ثم مهشِّمةً نفسها على الأرض .

وفي قبضة عذابها الذي يفوق الوصف ، كانت كلها نوابض فولاذ متوترة حتى أقصاها . كانت دودة ، حشرة ، حلزوناً ، عقرباً . كان الزبَدُ يخرج من فمها في قطرات كبيرة . كانت تتلوى كالأفعى وتهاجم مثلها . اجبو ، غادرَ قبل الآخرين ، فقد رأى الكثيرات من أمثالها ، وكره المشهد . ايسو . سانجو . الآلام المماثلة في أفعوان « بوا » جريح . عذراء « إيلا » الشابة . الغضون المتغيرة لـ « أوريسا ـ نلا » . الأجسام التي صارت هامدة والجذل غير الارضي في العيون . الهمسات اللطيفة للإله ، الحضور الخارق يغمر عاطفة الوسيط ، في جلسات كهذه يشترك ، وليس في انتهاك المرأة للجسد . ظل ساجو يهز رأسه « ثمت لحظات لأعتقد فيها أن هذا هو ذلك اللص الشاب . لايمكن ان يكون اللص نفسه ، لكن ربما كان في منتهى الذعر حينذاك » .

هز العازر رأسه راضياً « أنا سعيد لأنك وجدته تغيَّرَ . كنت متلهفاً على سماع رأيك » .

قال اجبو « لااستطيع أن أودّ الحواري الجديد . انه يبدو مستسلماً ، لامفتديً . وأرى نفحة طهره ، فقط ـ نفحة هواء . ليس فيه اشعاعٌ داخليّ . وإنما انعكاسٌ من ضَرَمِ لهيبٍ متحمس » .

انصتَ العازر فاغراً فاه « أنت مخطىء . هذا الشاب قد تقبَّلَ روح قدس الله » .

قال اجبو « لاأحب الارتداد عن الدين . إن له الوجه النحاس الناعم للمرتدّ » .

دار بانديلي « ماذا كانت تلك الفكرة الملتوية ؟ » .

قال كولا « أنا أتفق مع اجبو . لو رسمته فسأرسمه كالمسيح » .

صححت دهينوا كلامه « تريد أن تقول يهوذا » .

« لا .قصدت المسيح الدجّال » .

«انتظر دقيقة . يجب ان تكون تعريفاتنا واضحة» .

قال اجبو « لاحاجة . كولا يحاول فقط .لكن لاتبدأ تعلّق نواياك عليّ . حين قلتُ : مرتدّ ، كنت أعني بشكل واضح نمط يهوذا» .

«وأنا قصدت نمط يهوذا . وهكذا بالضبط سأرسم نوحاً» .

قال بانديلي «اعتقد أننا انتظرنا طويلاً خروجكم من هنا ، قبل أن تعلنوا آراءهم التجديفية» «هل صرت منافقاً في أرذل العمر ؟ منذ متى اعترفت بالمصطلح هذا ؟» .

قال بانديلي «ليس الأمر هكذا . لكن أكان لازماً أن تبين هذا ، والعازر عند كوعك ؟» .

العازر ، الذي كان شبه مشيح عنهم ، ومنشغلاً مع ساجو بما يجري حول الكنيسة ، واجههم وقال «أرجوكم ، لاتظنوا اني أهتم . وعلى أي حال ، كل إنسان يأتي إلى الله وهو غير مؤمن . مهمتنا أن نبصّره النور» .

حواريّ آخر جاء ، وتكلم بصورة مستعجلة مع العازر ، غاب العازر معه في الكنيسة قائلاً «سأعود . هذه المرأة المصابة استلزمت حضوري» .

عندما ذهب قال ساجو «أنا أتفق مع بانديلي . كل ذلك الكلام كان بالإمكان تأجيله حتى يذهب الرجل» لكن اجبو اكتفى بأن أعاد القول «أنا لا أحب الارتداد» .

«ولا أنا . لكن ، ماذا من بعد ؟ أنا كنت في أوينجبو حين كان الفتى مطارّداً ، لكن صدقني ، حتى آنذاك لم يكن منظره يدعو للأسف كمنظره هنا .

يبدو أنه استحال طيناً رخواً في يدي العازر» .

ترجّتهم دهينوا «لنعد كلنا . لاأود هذا» .

«حسناً ، أنا لاأعرف مايريد العازر ، لكن رئيس تحريري مستعد لتقديم صفحتي الوسط في مادة عن نبي مختلف ، لطبعة الأحد» .

نظر إليه بانديلي «هل انتهيت ؟» .

التفت ساجو « ماذا تعني... هل انتهيت ؟ » .

« لاعليك . ليست هامة » .

« لا . قل . ماذا يدور برأسك ؟ » .

« لاشيء » .

لمَ لاتذهب مباشرة ، وترسمه ، ياكولا ؟ حينذاك سأستخدم رسمك في مادتي الصحافية... سيكون فيها نوع من البعد... لاأعرف كيف بالضبط ، لكن الفكرة تحلّق الآن في دماغي » .

هز كولا رأسه « لا . أنا قد أرسمه ، لكن ليس على الصليب ،أو أية مضيعة وقت أخرى . كنت أفكر فيه باعتباري ايسومار . الوسيط . المُعاهِد في الواقع .

المعاهِد المرتدّ . المعاهد الملتبس . حين سمّاه العازر نوحاً فكّرت بالأمر . إنه يمتلك ذلك الطهر التكنيكلر » .

غمغم اجبو « نعم . نعم . وهو سريع الزوال أيضاً كالتكنيكلر » .

كان بانديلي يهزأ هزءاً خفيفاً « القصة عند ساجو . كولا ملأ مساحة سماوية أخرى على لوحته ، وأنت يااجبو... ماذا تستنتج من ذلك ؟ » .

التفت إليه اجبو بغضب « معرفة الجيل الجديد من المفسرين » .

انفجر ساجو « إنك متنفجٌ إلى حد يجعل القديس مجنوناً » .

« احذر فقط . حين تخلق أسطورتك الخاصة ، لاتشجع أسطورة الآخر بلامبالاة ، فربما كانت أشد ضرراً » .

« دورُ مَن الآن ؟ » .

« العازر . لاتشجع أسطورته » .

« ماذا يعني هذا ؟ » .

قال بانديلي « أنت لم تحاول حتى التثبت . هو طلب منك ذلك هنا . أليس كذلك ؟ أفكرت لماذا ؟ أم تراك تؤمن بثور مبنى الكنيسة ذاك ، وحده ؟ » .

«ماذا يريد أيضاً ؟ الشهرة ، طبعاً . الأنبياء المحليون كلهم يريدون الشهرة . مهنة مربحة» .

هزّ بانديلي رأسه «رأيت وجهه عندما ذكر كولا رسم نوح مسيحا» .

اعترف ساجو «وأنا أيضاً . ولمَ لا ؟ إن كان يريد أن يكون صانع ملك ، بدلاً من الملك ، فإن هذا فقط دليل على ذكائه . أقول لكم إن الرجل يستحق اهتماماً أكثر» .

«لمَ لانعود الى البيت ، ياساجو...» .

«يامرأة ، لاتتدخلي... انتظري . أتعرف ،الآن فكرتُ بما تريد المراهنة عليه ، ان هؤلاء المسمَّينَ حواريون هم من أرباب السوابق أو شخصيات العالم السفلي المماثلة» .

«دماغك اهتاج ثانية» .

«لا . لا . العازر و(قيامته) . العازر يؤسس كنيسة ، يحول اللصوص حواريين ، وينتظر المجيء الثاني... هِمْ... قد لايكون الأمر هكذا... لكن اللعنة ، ان الرجل يخدعنا» .

«مثلما تخدعنا كلماتٌ متقاطعة ، أو قصة قتل» .

«أرجوك يابانديلي ، احتفظ بمواهبك هذه اللحظة . الرجل طلب مني هنا أن يستعملني ، وأن اعيش على استعمالي الآخرين . أرى الأمر مستغرقاً أسابيع ، تحقيقاً عن كل واحد من حوارييه ، وخبطةً صحافية للرجل . إنه منجم ذهب كما قلت» .

«ماذا تستنتج من تجربة موته ؟» .

«أتصدقها ؟ قل... أتصدقها ؟» .

فكّر بانديلي برهةً «لايهم إن صدقت أو لم أصدق . لكن شيئاً واحداً في الأقل كان واضحاً ، وهو أن الرجل قد مرّ فعلاً بتجربة قاسية . فإن شاء أن يفسرها بطريقة تمنحها معنًى مافي حياة الناس ، فمن تكون أنت لتشوهها وتمزقها في صفحاتك القذرة بشكوكك الرخيصة ، أو كولا... الذي» .

«ابعدْ عني... لاأدري ماذا كان يطنّ في قلنسوتك مؤخراً ، لكن ابعد عني الآن ، اللعنة ياباندلي... ماذا يحدث! لقد صرت تنتقد وتتدخل إلى حدٍ لايطاق» حدث كما لو أن باندلي كان فرس نبي يصلي طويلاً . لاذ بثقب ، موطوء المجسات مثل نملة غير حذرة ، وقال فقط «لاأحد منكم يهتم كثيرا بالعذاب الذي تسببونه» .

قال كولا «عرفت أنني يجب أن آتي . كل ماأردته هو الصلة ، وقد وجدتها هنا تماماً .

أتمنى الآن أن يقذفني صاروخ إلى إيبادان ، مع نوح» .

قال اجبو «أيعني هذا أن البانثيون اكتمل أخيراً ؟» .

«منذ اللحظة التي رأيت فيها نوحاً عرفت أنني يجب أن آخذه معي الليلة» .

«كيف تظن أنك ستدبر الأمر ؟» .

«لو أخبرت العازر أنني أريد أن أرسم قديسه الأخير ، وأقدم لوحته إلى الكنيسة ، أفتظنه معترضاً ؟ بمقدوري أن أفعل خيراً من تطريز زوجة النجار» .

قال اجبو «يجب أن تريه شيئاً ليصدق» .

«ساعة عمل . أستطيع أن أرسم شيئاً يقبله العازر ، خلال نصف ساعة» .

«وماذا عما قاله باندلي ـ تصوّرْ أنه على صواب ، وأن العازر يريده على الصليب» .

«أذن ، بمقدوره أن يرسم يسوعه اللعين» .

كان ساجو يفكر «آهٍ لو فعلها . آهٍ لو فعلها . إذن لتحققت ضربة عظيمة للصحيفة ، حين أكون حاضراً منذ الافتداء حتى نشأة مسيح جديد» .

سخرت دهينوا «سيكون الأمر مثيراً» .

«اسمعي ياامرأة ، لاتقومي بدور باندلي... أما عن العازر ، فلو وافق رئيس التحرير ، فإني أعتزم الذهاب إلى القرية التي قام فيها ، وأرى إن كانوا مازالوا يتذكرون» .

ناكدته دهينوا «لمَ أنت مهتمٌ ؟ أنت لست معنياً ، فعلاً ، بالحقيقة» .

« فقط بجوانب معينة منها . مثلاً ، لو تبيَّن لي أن العازر مزيف تماماً ، فهل مهمتي أن أخبر رعيته ؟ هذه نقطة يحتفظ حتى بانديلي إزاءها برأي مكين . فقط ، جوانب معينة من الحقيقة لها أهمية دائمة . افترضي أن نوح صار غداً مسيحاً ، وصار بمقدور العازر أن يسنده بنجاح ، فحقيقة من تستلزم مني قول الحقيقة ؟ أحقيقتي ، أم ـ كما عبّر بانديلي ـ شكي ، أم تراها طريقة خذها وإلا اتركها تسوّي الأمر ؟ » .

« مهما يكن الأمر . ماذا يهم ؟ ستظل الرعية تصدق ماتريد أن تصدق . ألم تكن صحيفتك التي حاولت مؤخراً إنزال مسيحٍ عن عرشه ؟ » .

« لااستطيع أن أتذكر . يجب أن يكون الأمر حدث قبل عودتي » .

« كان أجرأهم حتى الآن . قال انه اتى كي يمتع نفسه في مجيئه الثاني ، لا ليتعذب .وقد شنت عليه الصحف أشنع حملة » .

« هل نجا منها ؟ » .

« إنه يزدهر اكثر من السابق . شركة مواصلات كبيرة ، ومخبز ، وحريم ظل مستمراً بالرغم من إقامة دعوى الإغواء عليه مرتين » .

« وهاجموه ؟ » .

« بشناعة » .

« أترى ؟ ليس بمقدور العالم ان يطيق أنبياء الفرح . الكل مغرم بالعذاب » .

قال اجبو « لا . ليس العذاب . فقط حقيقة التضحية . القربان الديني » .

« مشكلتك أن لديك ذهنية دموية . ثم ، ما الاكثر منطقية ؟ لقد اختار الألم في المرة الأولى ، وتقبّلنا حقه في الاختيار ، إذن ، لمَ لا يختار الآن ، الفرح ، ونتقبله ؟ » .

« عليّ أن أعرف إن كان ذلك المسيح ما يزالِ صالحاً للشغل الذي تعرفه . إثارة منافسة بين الاثنين . بقاء الروث الأصلح... هذه اربع صفحات ـ بالألوان » .

وركل ساجو قطعَ ترابٍ في البحيرة .

«صفحتنا وسط أخريان . فقط صور ومقتطفات» ، ومازال يركل أطناناً من المطبوعات ويضعها فوق بعضها في البحيرة ، وبدا أن المساحة تستثيره ، فهتف «أغلق ذلك الفراغ!» وانهال ترابٌ آخر على الماء «أخبار قصيرة لإثارة شهية القراء» ، وظل ساجو يخمش سطح الماء ، وانتشر تحقيقه فقّاعاتٍ لاتنتهي حتى لهث في ألمٍ مباغِتٍ وأمسكَ بإبهامه» .

قالت دهينوا مقدمةً كتفها لتسنده بعد أن ظل على رجلٍ واحدة «جهازالصفّ توقف عن العمل ، بعد خدمة شاقة» .

بالرغم من المجموعة الصغيرة التي وقفت ، غريبة ، عند البحيرة ، فإن حقلاً ناضجاً من الذرة ظل يندفع ، مراراً ، متوقفا للصلاة عند باب الكنيسة ، متناسياً تلك المجموعة الصغيرة .

ثم يهب النسيم ثانية ، فتمتلىء به أشرعةٌ بيض وأشرعةٌ ليف خفيفة على أرض مهدت ، وترتفع مائةُ يد ، نوحٍ والصليب ، حتى تحس الكلال ، فتهبط فائضة .

قطع بانديلي صمته «لم أكن متلهفاً على سماع العازر لو لم يكن سيكوني مات مؤخراً . أحسُ ، عميقاً في داخلي ، أن هذا سبب مجيئي» .

نظر اجبو في ظلام الكنيسة المهجورة«ماذا ظننت العازر مخبراً إياك ؟»

رفع بانديلي كتفيه « كنت مستطلعاً . منحني إحساساً غريباً ، جلوسي إزاءه على تلك الطاولة ، وسماعي إدعاءه بأنه قد مات» .

«يجب أن نذهب الآن» قال اجبو ، وهو يتجه نحو السيارات .

قال له بانديلي «أنت استمر ، أنا سأودع العازر» .

لكن العازر كان آتياً اليهم ، للتو ، وقد رافقهم الى حيث السيارات متوقفة .

قال ساجو «آمل أن المرأة تنبأت لكنيستك بمحسن» .

بدا العازر اكثر وقاراً مما كان عليه حين غادرهم «لا . لم تكن لتتنبأ

اليوم . لم يكن في ماقالته شيء من المستقبل . كله كان عن الماضي . أن لديها رؤى في الماضي ، لأنها رأتني أسير مع رفيق بلا وجه ، وهي تقول انه الموت» .

قال بانديلي حين ابتعدا بالسيارة قليلاً عن الكنيسة «كنت أريد أن أسألك ، هل وصلتك أخبار من...» .

«البيت ؟ البحيرة ذكّرتك أيضاً . لا . والصحف ترعبني» ضحك اجبو ضحكة قصيرة «ظننت أني دفنته ، لكن ذلك لم يكن صحيحاً . إنني مسكون غالباً بملمس أصابع ذلك الشيخ على وجهي ، وبعينيه المطموستين ، فأفيق وأنا أجْلدُ ملاءات الفراش» .

مضى عليهما وقت في الطريق ، وقال اجبو «كثيراً مافكرت في الموضوع ، ولو حدث ثانيةً ، فلست متأكداً من أني لن أبقى هناك . كان رفضي السلطة ، بدون تروٍّ» .

«تعتقد الآن هكذا» .

«عليك ألا تخشى السلطة حين تبحث عن التحول . خذ العازر مثلاً» .

قال كولا ، متكلماً من المقعد الخلفي «لم أكن في المنطقة ، من قبل» .

«ثمت عدد من قرى البحيرات المماثلة على امتداد المكان ، وبعضها لا يمكن بلوغه إلا بالمشحوف» .

«وهذه القرى تتبع لاغوس ؟» .

«كما أظن» .

أعلن كولا «سأعود فيما بعد لأتحدث مع العازر بشأن نوح . فإن وافق أخذته معي إلى ايبادان ، الليلة» .

قال بانديلي «لن يعترض» .

«المشكلة أنني قد أضيع . فليس لدي إحساسٌ جيد بالاتجاه» .

«حسناً . إن هذا يترك فقط خطر سقوط السيارة» .

علينا أن نأتي في النهار» .

١٣

الشخص الذي كان يسير ، ظن ساجو يتسكع متلكئاً . لكن ضوءاً من المنزل هو الذي أوقفه على عتبة الباب ، منحنياً على ثقب المفتاح ، منصتاً إلى الأصوات . دار ساجو حول المنزل مدندناً « لاشيء فعلتُ سوى ذاك اللاشيء » . ربما كان بيتر نائماً ، لكن ساجو يستطيع أن يسمعه مندفعاً في هبوطه لحظة انفتاح الباب ليسأله عن صحته ، أو يقترح عليه كأساً ليلية اخيرة يتناولانها معاً . ثم فكر بمحاولة ركضةٍ سريعة من السلّم حتى الفراش ، لكن كان بمقدوره أن يرى بيتر ممسكاً به عند الباب ، وعارضاً عليه أن يقرأ قصة ماقبل النوم . كان ساجو مايزال يتمشى حين اقترب منه الرجل .

« مرحباً » ، كان وجهاً أبيض . الضوء الخافت المنبعث من المنزل يسوّر منخريه المفلطحتين .

« أأنت في مشكلة ؟ » .

« لا . ببساطة ، ليس عندي مكان أنام فيه ، هذا كل مافي الأمر » .

« ياإلهي . عجيب » .

« أهو كذلك ؟ أنا مسرورٌ لأجلك » .

« أوه... اعتقد أن الأمر ليس عجيباً حقاً . قصدتُ أنني اصطدم بهذه الجملة بين يوم وآخر » .

تهيأ ساجو « اسمع ، أنت... » ، لكن الرجل أوقفه بلطف « حقاً... أنا

اسمعها كثيراً . أنا أميركي ، كما ترى ، ويبدو أن كوني أميركياً هو لافتة المضافة المجانية لأي صعلوك اميركي في البلد » .

منذ ايام ، حتى الآن ، استنهض بنكشور كرهه الموسمي للوجوه البيض ، حتى ذكرى الهيئة المتحدية للسيدة فاسيي ، المستهينة بتضايق قومها ، وغير المهتمة بصدمة زوجها واستنكاره ، حتى السيدة فاسيي لم تستطع افتداء الوجوه البيض ، منذ تلك الحفلة . والواقع أنه بذل جهداً خارقاً في التذكر ، بحيث مزّق تهاويل سكره ، حتى صار قادراً على التفكير بها ، واعياً ، باعتبارها فتاة بيضاء .

وجد ساجو تصرف هذا الرجل وضيعاً الضعة كلها ، وملطخاً بالشحم .

« حسناً . أنا لست صعلوكاً أميركياً » .

ابتسم« مايزال عليّ أن التقي افريقياً لايشعر بالاهانة لشيء ما » .

« وكان عليّ أن التقي اميركياً يعتقد ان ضعته يجب اعتبارها خفة دم » .

« ياإلهي . حين خرجت نويت فقط ان اتمشى ـ ترى أين أخطأتُ ؟ » .

وجد ساجو نفسه يتمتم « أوه . أغرب عن وجهي ، حسب . ان وجهك لا يناسب حالة فصوص سكري » .

« آسف . لم اسمع قولك » . لم يجب ساجو ، وبدأ يتساءل إن لم تكن مخاطرة بيتر أفضل من هذه . قال الغريب « تعرف أنني أجدكم أقل الناس وداً في هذا البلد » .

« نعم أعرف . الأميركيون يتوقعون أن يكونوا محبوبين... » .

« لا . رجاء . رجاء... ليس ذاك . أي شيء إلا ذاك » .

شعر ساجو بأنه خُذل في اطلاقه ملحوظة رخيصة .

« انتبه . اسمي جو غولدر . أنا أحاضر في التاريخ الافريقي . أنا أشكو الأرق ، ولذا أنا أتمشى » .

أومأ ساجو برأسه ، وانحنى ثانيةً ، لينصت إلى الباب .

« حسناً . إن كان الباب مغلقاً في وجهك ، فتعال . تعال وتناول شراباً » .

« لا . وأشكرك . لقد بقيت الليلة صاحياً ، ولاأريد أن أفسد صحوي » .

« حسناً ، قهوة إذن . لكن تعال لنتحدث دقائق قليلة . ثمت مسافة ما ، لكني استطيع اعادتك بالسيارة » .

فكّر ساجو ، وقرر أنه بحاجة إلى التخفيف من توتره . وحين سار إلى جانبه لاحظ باندهاش أنه جد ضئيل . كان بدا أكبر . لكن كامل جسمه كان يمنحه هيئة رياضية . وكان له رأس ملتزٌّ غير مألوف على كتفي رجل أبيض .

وشعر ساجو أنه حساس أيضاً . الحمقى ، امثال جو غولدر يأتون إلى أفريقيا لينالوا الأذى .

« اللكنة الأميركية ليست واضحة عندك » .

« اكسفورد كما أظن . خمس سنوات في اكسفورد تولّت ذلك . لست آسفاً عليها . وأنا لستِ بأميركيّ جداً » .

« عليك أن تبادل المانيّا أعرفه شهادة ميلادك... » .

« ليس بيترا » .

« بلى ، اتعرفه ؟ » .

واختفى وجه جوغولدر تحت قناع جلد قاسٍ نكِدٍ « ذاك الذي تعرفه . ذاك ولاشيء إلا ذلك دوماً . ولأنني أميركي ، فكلّ مهرج يأتي هنا بلكنة أميركية أو جواز سفر أميركي يتوجه الى بيتي . لقد غيرت سكني ست مرات في العامين اللذين امضيتهما هنا . يقال لهم أن لدينا محاضراً أميركياً ، وسرعان ما أجدهم على عتبة الباب ، أو حتى في غرفة الجلوس ، مستعدين لنصب خيامهم . اتركُ البيت لهم ، أرسلهم إلى القنصلية . لافائدة . غداً مايزال ولدُ مكتنز آخر ـ وحتى بنت ـ ينتظرني بعد الدرس . اتعلم ، أنني أبغض البشر . لا أحب الناس . أريد أن أبقى وحيداً ، ماالضير في ذلك ؟ » .

لم يعد بقدرة ساجو إلا أن يتمتم « قلة من الناس هكذا » .

« بعضهم يعتقد انه يسدي إلي معروفاً . أحدهم ، قال أنه طالب علم نفس من اريزونا ، جاء ليكمل الدكتوراه . جلس في شقتي حتى الثالثة صباحاً وهو

لم يقرر بعد ، هل سيبقى أم يحجز في الفندق . قال لي مع الأسف ليس لديك هاتف . فأنا بحاجة إلى تعيين مواعيد كثيرة... وعندما يبقون ، لا يعود بيتك هو بيتك . تدخل شقتك لتجد شخصاً غريباً هناك ، نسيت كل شيء عنه . اتفهم ؟ أنا لست مبغضاً للبشر ، لكني لاأريد أن أعتبر أمراً مُسَلْماً به » .

ظل ساجو لبعض الوقت يمنح اللقاء كل انتباهه . لكنه قرر أن يمضي مع الجولة .

لهذا قال الآن « لكن لم لاتقول لهم ببساطة ، أن يذهبوا ، ولايزعجوك ؟ » .

« اعرفُ بأنني أحب مساعدة الناس ، ولهذا السبب بالضبط اكره ان أُعتبر امراً مسلَّماً به . لستُ ملزماً بمساعدة أحد . استطيعُ أن أغلق عليّ باب شقتي ، وأخبرهم أن يظلوا خارجها . أنا أحب سلامي . ولأني أود مساعدة الناس ، أكرهُ أن أعتبر أمراً مُسَلَّماً به » .

بدا انه يهدأ قليلاً ، كمن شعر بالخجل من انفجاره العنيف .

أعلن « أنا آسف . لي عادة استحضار الأشياء كأنها تحدث للتو . إنها عادة سيئة . حين أكون مع أناس ، وأتذكر أمراً مزعجاً ، أحاول الفرار قبل ان يسيطر عليّ » . هذه المرة ، سكت حوالي نصف ميل ، ثم استأنف الكلام .

« أنا شخص مباغِتٌ . متغير الأهواء . أحياناً أكون مضيفاً مثالياً . ثم آتي في مساءٍ ما ، واطلب من الرجل ان يحزم حقائبه . وحدث مرةً أن تركت الدرس ، في منتصف المحاضرة ، فقط لأسرع إلى بيتي ، وأقذف خارجه ، بموسيقيٍّ ماكان مقيماً عندي قرابة شهر » .

« اتتذكر شيئا فعله ؟ » .

« لا . فقط أردت ، فجأة ، أن أخرجه . وأتذكر أنني كنت أقود السيارة بغباء تام حتى سقطت في قناة ، فتركت السيارة هناك ، وقطعت بقية الطريق راكضاً » . ثم ضحك « أنا أقدر قيمة وقتي ، كما ترى . قد أضحك مع زميلٍ لحظةً ، ثم أدير له ظهري في الأخرى » .

« كيف ينظرون إلى الأمر ؟ » .

« بطرق مختلفة . بعضهم يسميه تكلفاً » .

« إذن ، لايقلقك هذا ؟ » .

« لاأهتم بالحمقى ، لم عليّ الاهتمام ؟ لستُ شخصاً اجتماعياً . لاأحضر حفلاتهم أو اجتماعاتهم . أنا أقدّر وقتي الخاص ، وأرفض إلى حد التعصب أن أقدم ثانيةً واحدة منه الى رجل آخر . لو بددتُ يوماً كاملاً بنفسي ، جالساً ، حسب ، في شقتي ، بدون أن أعمل شيئاً ، فإن هذا شغلي الخاص ، ولكن دعني ابدّد بنفسي الوقتَ » كانت الأضواء مطفأة في معظم البيوت . بضعة كلاب نبحت قريبةً جداً ، والتقط ساجو عصا ، بعد أن تذكر تحليل بانديلي لقواعد سلوكها .

« للكلاب ؟ أنها لاتعضّ » .

« أريد التأكد من ذلك » .

« اتخاف الكلاب ؟ » .

« لا . لكني عُضضت من قبل » .

« أنا أيضاً . لكنها كانت مختلفة . في مسقط رأسي بالبلدة ، حيث أرسل أحمق كلبهُ عليّ » . ضحك ، وبدا أنه يقدر حيرة ساجو « لقد فوجئت كالآخرين . أنا زنجي . في الواقع أنا ربع زنجي » ثم ابتسم « وددت لو كنت أكثر » .

« التقيت كثيراً في مثل هذه الحالة بالولايات » .

استغرب غولدر « أكنت في الولايات ؟ » .

« لفترة لابأس بها » .

« أنا مستغرب لأنّ أحداً لم يأت بك » وارتفع صوته ارتفاعاً مصطنعاً « أكنتَ في الولايات ؟ أوه ، ببساطة ، يجب أن ترى جوغولدر . رجلُ ضئيل جذّاب . كما أن له صوتاً صادحاً ممتازاً » .

« أنت تغني ؟ » .

« ستعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً . من سوء الحظ أنني أحب الغناء ، وأظن حقاً أن لي صوتاً جيداً ـ بعضهم يقول انه افضل صادح في الكلية . إلا أن النساء هنّ اللائي يقلن هذا عادةً . ومعظم ربات البيوت المتعبات لن يفهمن أني انضممت إلى مجموعة أو براهنّ لأغني ، وليس لأشرب الشيري ، أو للّغو الذي يتلو ذلك » وبدأ يستثار ثانيةً « كما أن لدي بيانو في شقتي ، لذا يرينها فكرة حسنة أن يأتين لتمرين قصير . ولا يهمهن ان قلت لهن ، لا ، كل مرة ، فهن يعتقدن أن بمقدورهن إنهاكي بالمحاولة . انظر ، إن كان ثمة شيء لاأطيقه ، فهو صوت نسويّ مايغني في شقتي . انه تطفلٌ لايحتمل . أنا أغار على خصوصيتي ، لاأتحمل أن يغزوها أي أحمق ، بينما هم يحبون أن يعتبروك شيئاً مسلّماً به » .

بعد أن انعطفا الانعطافة الأخيرة في درب سيارات جديد ، ممهد بين الشعير ، تغيرت طبيعة الصمت . لم يعد مجرد انقطاع أملاه قومٌ نيامٌ ، انه عبءٌ مميتٌ ، رفيقٌ ثالثٌ مضطهدٌ في الممشى . انه يأتي من الدغل الكثيف ، ومن كَرَبِ النخل النقيع ، مقتلعاً إلا أنه حيّ ، من الطبقة السوداء لبيض العلجوم على الجدول الضحل ، حتى في نقيق العلجوم المزعج . ابتسم ساجو ابتسامة افراغيّ راضٍ مستغرقٍ في صمتٍ كامل .

اقتحمه جو غولدر فجأة« أنت تبتسم » .

تنبه من شروده ، لكنه عاد إليه .

قال جوغولدر « أنت شخصٌ صموت » .

« هم ؟ » .

« قلت إنك شخص صموت . أنت لاتقول كثيراً ، لكنك تظل تبتسم لنفسك » .

« أهكذا أفعل ؟ » .

« أجل . بم كنت تفكر ؟ » .

« بميتافيزيقيا الافراغية » .

« أوه ، نعم ، شكراً جزيلاً » .

سارا صامتين ، وتمرّغ ساجو في الصمت . كان يمسي ابله اكثر فأكثر . وسرعان مافرغ ذهنُه تماماً ـ بدا الأمر خطأ ، بقدر مايتعلق بجوغولدر .

« بِمَ تفكر ؟ » .

لم يجب .

جو غولدر غير المبالي بحالة ساجو من السلبية المبهجة ، صار عبثاً لايطاق . وتمنى ساجو مخلصاً أن يخرس الرجل . لم يكن باستطاعته أن يفهم كيف يمكن لإنسان أن يبدو حساساً هكذا ، ثم يظل خارج السبات الاخطبوطي لليّل . ظل غولدر يفسد السحر بطبل محنه حتى بلغا الشقق .

جوغولدر يسكن في احدث مبنى شقق ، المبنى الأبعد عن مركز الكلية والأكثر ارتفاعاً . وقد أمّنَ ، بدون صعوبة ، الشقة العليا ـ يبدو أن لا أحد أرادها سواه .

« إنها خمس مجموعات من الدرجات ، لذا كن متساهلاً . تمنيتُ أن يثبط الجهدُ عزيمةَ الزوار » .

« كيف أوصلت البيانو إلى فوق ؟ » .

« بالطريقة نفسها التي يُرفع فيها عبر مجموعة درجات واحدة . عمل شاقٌ ، لكنني أصررت » .

قال وهو يولج المفتاح في القفل « ليس لديّ اصدقاء . ستسمع عدداً من الناس يقولون ان جو غولدر صديقهم ، لكن هذا من وهمهم ، حسب . يأتيني أشخاص غرباء ويقولون لي « إذن ، أنت جو غولدر ، لقد التقيت صديقاً لك أمس فقط... » .

« والغالب أن الأمر أصولُ حديثٍ ليس غير » أخذ ساجو ينزعج انزعاجاً له مايبرره . صورة سيدة عجوز واجهت ساجو ، أما بقية الجدار فكانت مغطاة بكتب مجلدة تجليداً أنيقاً متشابهاً .

« مرة اشتغلت في مكتبة . بباريس . هل زرت فرنسا ؟ زرتها ؟ كنت

آخذ معظم الكتب التي ترميها المكتبة . وغالباً ماكانوا يبيعون كتباً أخرى بثمن رخيص ، فكنت اشتريها . ثم أجلّدها . لايهمني أي كتب هي ، أنا آخذها فقط . الموسيقى أولاً . ثم الكتب» .

كان في الغرفة جو فائق العناية ، إلى حد حساس ، بحيث لم يستطع ساجو الجلوس للتو . وبالرغم من كرسّي معدن خفيف وخيش ، وطاولة قهوة من مركز تصاميم ، خفيضة ، ذات فورميكا بيضاء ، بالرغم من الأشكال التكعيبية على الحشيّات الصغيرة ، وبالرغم من هذا كله ، شعر ساجو بأنه يدخل عالماً بعيداً ، ثقيلاً ، عتيقاً . على البيانو كان حاملا شمع ، بشمعتين حمراوين... « بحق السماء ، لاتسخر بـ(ليبريس) . كل أميفكي يأتي هنا يفعل ذلك» .

قال ساجو وهو يتفحص الأشكال المنمقة «ليبريس مؤرِّخ» .

غطاء بيضوي كان منشوراً على البيانو ، صورة أخرى مؤطرة ، للوالدين كليهما . «نعم . يبدوان أبيضين تماماً ، أليسا كذلك ، لكن أبي نصف زنجي . واحدة من العابرات . لقد أخذ زوجته بعيداً قبل توقُّع وصولي . لكن بدا أني بوضع حسن ، هكذا عاد » .

« وماذا حدث بعدها ؟ » .

« لاشيء ، مدة خمس عشرة سنة . ثم لحق به الماضي » ظل صامتاً برهةً « انه الآن ميت . انتحار» .

« قد تفزع حين أخبرك أنني دفعته اليه . كنت أشعر بالخزي منه ، ولم أُخْفِ ذلك . بصقت على لحمي ، نكاية بوجهه ، لأن لحمي جاء منه... كنت فتىً... » .

كانت على البيانو قطعٌ مزخرفة قليلة ، وتمثال لبوذا . استفسر ساجو « من اليشب ؟ » .

قال غولدر انه لايعرف . على الرف ، القرود النحاس الثلاثة .

كان لدى غولدر رفُّ مستوقَدٍ مزيّفاً . « حيثما حللت حلّ معي . لقد

بنيته بنفسي . لي ذوق غريب ، ثمت أشياء لايمكنني الاستغناء عنها في غرفة » . ظلّة المصباح على البيانو كانت صندوقاً غريباً متصالباً من خشب صبيغ بالأسود ، وثمت على رف المستوقد شيء مماثل من صنعه ، خالص الزخرفة .

«اعتزمُ تحويله إلى إناء سمك» . حار ساجو في كيفية صنعه هذا ، لكنه امتنع عن السؤال .

«ماذا تريد ؟ قهوةً أم شيئاً أقوى ؟» .

«أشعر الآن بالعطش . ألديك بيرة ؟» .

«أنت عابس ، ماالأمر ؟» .

«أهكذا كنت ؟» .

«شديداً» .

«لاأعرف . أعتقد أني أجد الأمر مقلقاً جداً . جد هادىء . الهدوء المقلق جداً يعيد اليك هدوءك جداً . مارأيك ؟» .

لم تصدر عنه حتى ابتسامة ، وبدلاً من ذلك التفت إليه بوجه جامد وقال «ماذا تقصد . في ذهنك شيء ما ، ماهو ؟» .

«لاأعرف . هات البيرة ، حسب» . مضى ساجو ، ووقف في الشرفة .

وراء الواقع ترقد البلدة ، ألواح صدأ متحجرة ، ورُقعَ فضة . غابة صغيرة تمتد في الأسفل ، طبيعية المرأى فقط برأسها ذي الشعر الكثيث . والجدول الذي عبراه يبدو حبلاً مرمياً ، وكرب النخل مثل درنات ضخمة . والمبنى هو ذلك العالي . يراعة مضيئة فقط تضاهيه في الاشعاع ، حطت اليراعة لصق ساعة ساجو . إنها الثانية صباحاً . «بم تفكر الآن ؟» كان صوته شديداً ، ممتعضاً « كنت تفكر للتو » .

«أكنتُ ؟» .

«كنت تعبس ثانيةً ، لماذا ؟ لم تظل عابساً ؟» .

حاول ساجو مداراته ، وبذل جهداً جاداً لاكتشاف سبب عبوسه . لكنه

توصل إلى أسوأ النتائج . غلبه السكون ، وسرعان ماابتلع الكلالُ جهده في التركيز . ونسيَ على الفور وجودَ غولدر .

« حسناً ، إن كان تذكرُك ماكنت تفكر فيه يأخذ منك هذا الوقت... » .

أفاق ساجو « آسف . لاأظن أنني كنت أحاولُ فعلياً » .

أربع مراتٍ أو خمساً جرى هذا ، كان غولدر شديد الإلحاح ، ولم يكن ساجو أفاق بدرجة كافية ليبدي امتعاضه من تطفل غولدر . كأنه ظل نائماً بحضور ضيف غير مدعو ، وشاعراً في الوقت نفسه بالتصرف السيىء .

« أنت رجل صموت ، أليس كذلك ؟ يبدو أنك قليل الكلام » .

وجد ساجو هذا الرأي مسلياً « آه لو تدري » .

« إذن ، أنت تتكلم . لماذا لاتتكلم ، إذن ؟ لم تقل شيئاً يذكر منذ التقينا . إنك لم تكن لتفتح فمك إلا إذا حثثتك » .

« ربما كنت متعباً » .

« لست متعباً . أنا أعرف متى يكون المرء متعباً » .

« حسناً . فلأكن كسولاً . أنت تعرف ماأعني . الارتفاع يؤثر فيّ هكذا ، والسكون يخدرني » .

« لكنك تتكلم الآن ، أخبرني إذن بم كنت تفكر قبل قليل » .

« أيجب أن أفكر بشيء ؟ » .

« بنفسك إذن ، هيا . أريد أن أعرف من أي معدنٍ أنت . أخبرني عما يجعلك تَتِكُ . أعرف إني لاأحب البشر . أنا لاأهتم بالناس ، ولاأريد أن يهتموا بي . والكثرة مزيفون على أي حال . عشت في عدد من البلدان الأوروبية ورأيت الناس هم هم . مضجرين ، غير مخلصين . جئت هنا آملاً في أن يكون الأفارقة مختلفين » .

واستمر هكذا . جلس على حاجز الشرفة ، ماثلاً مثل حاكم تفتيش ، لكنه ظل يغوص أعمق فأعمق ، في سيرة حالته الخاصة .

« أفضّلُ صحبة نفسي . أظل في العلوّ هنا ، وأكتب . أنا أكتب الآن كتابي

الثاني ، قصة تاريخية تدور احداثها في أفريقيا » وفجأة ، وبنبرة مجنونة في صوته « أنت لاتستمع . لقد استمررت تفكر . بمَ تفكر ؟ » .

هذه المرة ، تورّط ، إذ نهض ساجو منتفضاً « مابك ؟ قلت إنني لم أكن أفكر . فإن كنت أفكر ، ولم أشأ أن أخبرك ، فالمسألة تخصني » .

كان جوغولدر مخيفاً حين يضحك أحياناً فأسنانه طويلة ، وشفتاه تنفرجان في شبه زمجرة . كان ساجو أشد حذراً الآن ، وأخذ يتساءل إن كان الرجل يمثل دوراً « ربما تود أن تتصرف تصرفات غريبة ؟ » .

توقف جو غولدر عن الضحك « لمَ تظن ذاك ؟ » .

« خطرَ لي أن من الأفضل أن أسألك » .

« أنا من أكثر الناس الذين أعرفهم أمانةً » .

« حتى هذا قد يكون واجهةً . أقصدُ موقفاً متعمداً » .

قال وهو يسير إلى خزانة « سنَعْلَق . هذه الجولات تسبب لي الجوع دائماً . أتريد شيئاً أيضاً ؟ » . من الواضح أن ساجو ظل يفكر في العرض طويلاً ، وهبّ غولدر « ياللمسيح! ليس واجباً عليك أن تتناوله . لقد اقترحتُ فقط » .

« هذا جنون . ألم تفكر ، قط ، إن كنت تريد أن تأكل أم لا ؟ » .

لكنه كان دخل الغرفة ، وفتح خزانة . تبعه ساجو وهو يبذل جهداً استثنائياً ليكون حسن المعاملة .

قال جو« حين كنت في باريس ، عرفت راقصاً من غويانا البريطانية ، كان متكبراً حد اللعنة ، حدّ الأذى إذا قال شكراً ، لهذا كان يتجنب أن تؤدي له أي جميل . ياالله! كنت أكرهه ، وكان يكرهني ، كان يتضورجوعاً في باريس ، بينما كنت في عمل جيد بتلك المكتبة . كان يأتي إلى شقتي بعد أن يتسكع على كل الوكلاء بحثاً عن عمل ، فيتكوم في كرسي ويستمع إلى الاسطوانات . كان حذاؤه قذىً للعين ، وكان كمن لم يأكل لأسبوع . لكن... أيرضى بأن يأكل ؟ لا ، وشكراً ، بكل لهجته الأكسفوردية . لا . وشكراً!

كنت أصاب بالجنون حين أراه جالساً هناك ، متظاهراً بأنه قد أكل ، بينما أحشاؤه تصرخ لكسرة خبز . أوه ، كان بريطانياً إلى حد اللعنة . دقيقاً بصورة فظيعة . كان طالباً معي في أكسفورد ، لكنه ترك امتحاناته ، فجئنا ، معاً ، إلى باريس . كان متعلقاً بالرقص على أي حال .

« أتعرف... ذهبت الى غرفته يوماً . كانت جحر جرذٍ متداعياً في عِلِّيةٍ ، لم أره أياما عديدة ، لذا ذهبت إلى هناك لأرى ماحلّ به . كان في الفراش ، هزيلاً ، ضعيفاً ، ضعيفاً جداً من الجوع... فتحت خزانته ، فلم أعثر فيها حتى على حبة ثوم . لكنه أرغم نفسه على النهوض وفتح النافذة وإخباري بذلك السلوك البريطاني اللعين انه قد أكل... يالله ، كان ببساطة ، متكبراً حتى الغباء . وكان عليّ أن أخرج ، واشتري طعاماً ، وأطبخه له ، وكان بمستطاعك أن تراه في الداخل يبكي لأنه يأكل الطعام الذي اشتريته » .

ساجو ، مندهشاً ، راقب الرجل وهو يوقد طبّاخ الكيروسين .

قال « لاأستعمل الطباخ الكهربائي . لم أعد أستعمله منذ تلقيت قائمة الكهرباء الأولى » شرع يكسر البيض في مقلاة . كان يكسر الثالثة حين قال ساجو« أرجو ألا تكون واحدة منها لي » .

« ألا تريد أيّاً منها ؟ » .

« لا . لاأظن » .

« إذن ، مازلت تفكر » .

« لاأريد أيّاً منها » .

« أمتأكد أنت ؟ أم أن ذلك البريطانيّ فيك ؟ » .

« البريطاني فيّ ، طبعاً . لكنني لاأريد واحدة على أي حال . شكراً ، إنه للطفٌ منك . وأنا لاأريد إزعاجك . إنك لفي منتهى العذوبة » .

« لديك ، في الأقل ، إحساس بالفكاهة » .

« لاأظن ذلك . لكن هذا لايهمّ » .

« لا ؟ عليّ الاعتراف بأنني استمد سروراً ما من اكتشافي الجوع عند

الناس . عادة سيئة أخرى التقطتُها . لم أخبرك بأنني تصوّرت قليلاً قبل أن أشتغل في تلك المكتبة . عملي فيها جعلني خارج منطقة الجوع الى الأبد . أما أولئك الناس الذين يدّعون انهم يجوعون في سبيل الفن ، يجوعون في سبيل الحرية ، يجوعون في سبيل ذلك اليوم الذي سيبزغون فيه على العالم بعبقريتهم... هؤلاء كلهم هراء! إنهم فارغون... حمقى الحي اللاتيني . أوه . لقد عشت تلك الحياة حيناً . كنت أتلقى مبلغاً ضئيلاً من المال من أهلي ، لذا كنت محظوظاً . هؤلاء المدّعون يورثونك السقم . إنهم يتقنون أمراً واحداً ، هو العيش عالةً عليك . إن لهم عبقريةً في هذا » .

« رأيتُ عدداً منهم في نيويورك أيضاً » .

« آه . نعم . في قرية جرينتش » .

« وسان فرانسيسكو . البيتنك أذهلوني . لماذا يكوّنون طائفةً ، لماذا ؟ » .

« أتعني إنك تأخذهم مأخذ الجد ؟ صديقي الراقص كان يتضور جوعاً ، لكنه لم يستعرض مثل أولئك الآخرين . حين يفلس كان يظل ـ ببساطة ـ في حجرته ، ويحلم . كنا صديقين عظيمين . أوده كثيراً وأكرهه كثيراً . ياإلهي ، لم أعرف كم كنت أكرهه . ومتى عرفت ذاك ؟ حين كان مريضاً ، مفلساً ، وفي المستشفى ، أنا أكره المستشفيات . لم أزر أحداً فيها . وحين كانت أمي مريضة فكرت بكل أنواع الأعذار كي أتجنب رؤيتها هناك . لكن في اللحظة التي سمعت فيها أن ذلك الفتى مريض بالفعل ، ذهبت إلى المستشفى ، فقط كي أراه هناك ، يائساً ، تابعاً تماماً . أنت تعرف أنه لايملك قرشاً . دفعت قوائمه ، وجئته بفواكه وأزهار . آه ، كان متعفناً بالكبرياء . وكان بمقدورك أن ترى الذل يغمر وجهه... لا الامتنان ، وتمنيت أن يبطىء شفاؤه . دفعت إيجاره ـ كان بلا عمل ، أسابيع قبل مرضه ، لذا كان مديناً للجميع . قصدت غرفته ونظفتها قبل عودته . أوه ، إلا أنه كرهني ، كره مرآي بأشد مما كان سابقاً ، لكن لاحيلة له في هذا . كان يجب عليه ان يتقبل مساعدتي ، بل أن

يطلبها . ولقد فعلتُها . كان عليه الذهاب إلى مقابلة ، وكان بحاجة إلى حذاء (باليه) جديد . عرفتُ الأمر ، لكني لم أقل شيئاً . وكان عليه أن يطلب . يطلب! طلب مني نقوداً ، اللعنة عليه! » .

هب هواء نقيّ من الشرفة مُطَمْئناً . أحس ساجو أنه غائص في أعماقه . ما به ؟ مابه ؟ وحلّق ذهنه ، يائساً ، إلى دهينوا ، وحنانها الفظّ الساخط ، وإلى اجبو الذي كان سيضاهي جوغولدر في العنف ـ في طبعٍ أكثر صراحةً . وقف بجانب جهاز الأسطوانات « أيمكن أن أضع هذه ؟ » .

« حسناً » .

ولم يذكر ساجو أن انغماره السباتي قد دُمّر ، وانه مازال يرفض الحقيقة .

طغى صوت سوبرانو على طرطشة الزيت .

« إيطالية ، أتحبها ؟ أنا أحب الصوت البشري . أنا أعتبر الصوت البشري أفضل آلة بعد الكمان . أنا لاأستمع إلى مُفَضّلياتي إلا حين أكون وحيداً . فأنا قد أبكي ، كما تعرف » .

« أمرٌ عجيب ، لكني لست مستغرباً لسماع ذلك» .

« هل أبدو من البكّائين » .

« لنقل فقط إنك سهل الاختراق » .

كان ساجو واقفاً بجانب الرسم الوحيد في الغرفة . كان الرسم ضربات بيضاً على أرضية تامة السواد . كان يمكن أن تكون بروقاً في سماء سوداء ، لكنه يعرف أنه ليس هكذا . كانت الألسنة المندفعة من المنبثق الرئيس رطبةً ، تتقطّر . لاقوة ولاعنف ، بل لزوجة معتمدة . بقيةُ الحليب الحبيسة تندفع عبر غشاء مغضّنٍ ، وتقطر بارتباك .

« أتودها ؟ » .

« أراها مُسقمةً » .

توقف « أنت أول من يقول ذلك . الآخرون يقولون إنهم عاجزون عن

فهمها » ولوقت طويل ، فيما بعد ظل ساجو مستغرباً من سبب توجيهه السؤال . كان غير واعٍ حتى بأنه صاغه ، غير منتبه حتى أطلقه ، هكذا سمع نفسه يسأل « أصديقك الراقص هو الذي رسمها ؟ » .

« نعم » وأخذ جو غولدر يرقبه حيناً « كيف حزرت ؟ » .

« ليست لديّ فكرة » .

تملكه غضبٌ فوريٌ « لاتريد أن تقول شيئاً أبداً . كتومٌ حتى اللعنة... » .

« قبل أن تجهد نفسك في التوصل الى لاشيء ، أقول لك ، ثانيةً ، ليست لديّ فكرة » .

« لاحظتُ ذلك . أنتم الأفارقة ، ما ان تذكروا كذبةً حتى تتمسكوا بها . حتى حين يواجهكم دليلٌ يستطيع حتى الطفل رؤيته... يجب أن تكذبوا ، أن تكذبوا... » .

ساجو الآن مستعد لتوجيه ضربته « لو سمعتك ، تقول هذا الخراء ثانية... » .

« بمقدوري ، لأنني لست أبيض . خذ مثلاً أول خادمٍ... » .

« أنت تحتقر السلوك البريطاني احتقاراً شديداً ، وإذا بك تقف هناك هادئاً . جرِّب هذه الطريقة المتعالية مع غيري » .

« إذن ليس بمقدورك أن تتقبل حتى حقيقة بسيطة ، وهي إنكم أيها الأفارقة قوميون متعصبون حدّ اللعنة » .

« أغلقْ فمك الكريه! » ووقف مهدداً .

انكمش غولدر ، وقد بدا عليه الخوف « أنا أكره العنف » .

« إذن ، عليك ألا تفتح فمك العريض ثانيةً لتستخلص استنتاجات عميقة من خادمك! يا إلهي ، أنتم أيها الأميركيون لاتطاقون إلى حد اللعنة ، بحيث يستغرب المرء كيف تخرجون أحياء أينما حللتم » .

اشتد التوتر حين اكتملت الأسطوانة . نحّى جو غولدر الطعام جانباً ، واتجه إلى القناني « لا أستطيع أن آكل الآن » كان يرتجف ارتجافاً خفيفاً .

« مايمنعك ؟ » .

« أنا أكره العنف . كل نوع من العنف يقلب مزاجي » .

لم يتراجع ساجو « إذن ، عليك أن تكون أكثر انتباهاً . ثمت عنف في الكلمات أيضاً » « لا . لا . ذلك ترشيد . سأحاول أن أعثر على صورة لهذا الفتى . ليس عندي ألبوم . لكني أحتفظ بكل قصاصاته . إنه الآن ناجح . رقص في برلين والولايات وعاصمة أوروبية أو عاصمتين . تلقيت بطاقة بريدية منه مؤخراً ـ من مدريد » . وضحك « إنه يحصل الآن على عمل أكثر انتظاماً ، وقد دفع لي كل قرش صرفته عليه . هكذا هو . ردّ كل شيء . لكنه أخذ في الأقل . تقبّلَ عطفي . إنه مصدر الكبرياء الوحيد الذي تركه ـ أن يدفع ديونه . لكني ، مع ذلك ، حطمتُه . فحين يفلس ، مرة أخرى ، لن يتردد في أن يطلب مني نقوداً » .

كان جو غولدر يغدو أكثر منافاةً للذوق من لحظة لأخرى ، لكن ساجو أحس بأن عليه أن ينتظر . ولأجل أن يظل هناك ـ ومهذباً بصورة معقولة ـ أخذ يبحث عن أشياء في جو قد يحبها . كان ثمت حبه للعزلة ، انعزاله المتعمد الواضح عبر الغرفة ، ومع هذا فإن الغرفة كانت منفرة . كانت تثير إحساساً يزحف في ظهره ، ونطق الكلمة الأميركية : مقرفة!

« أنت لاتقول شيئاً . مازلت لاأعرفك ، أم ليس هنالك من شيء لأعرفه ؟ أقصد مايجعلك تتكُ . هيا... ماالذي يجعلك تتكُ ؟ » .

« أدائماً تجعل أصدقاءك ـ آسف ، معارفك إن كنت تفضل الكلمة ـ يشعرون بأنهم ساعات مهربة للبيع خارج كنجسواي ـ آه ، آغا ، سبعة عشر حجراً ، رخيصة ، رخيصه ، اوتوماتيكية مع تقويم ، جرب هذه ، آغا » .

« أووه ، لاأعرف كيف أجعل أي امرىء يشعر . لكني لاأحب الأسرار » .

« أنت تحب الدخول في الآلة لترى آلية التَّكّ » .

« لاأعرف ماأريد . لكنك لم تقل شيئاً البتة . وأنا أحب أن أعرف عن الناس دائماً . وجدتُ أن الناس يستغلّونك . إن كنت رؤوفاً بهم استغلّوك . حاولت

مساعدة الناس ، مرات عديدة ، وبخاصة حين كنت في باريس حيث يجتمع عاطلو العالم . ليس أي شخص... انتبه . فقط الناس الذين هم على شاكلتي .

أنا أحب السود ، حقاً ، السود مثيرون . في لونهم حيوية فيّاضة . أعني إنه شيء جميلٌ حقاً ، متميز... » .

قال ساجو ظالماً ، لأنه يعرف أن ما قاله ليس حقيقة « أنت أبيض ذهنياً ، كما تعرف » .

« قد يبدو الكلام ترديداً لروسو . لكن لي الحق في أن أحس كما أشاء ، الأسود شيء أحب أن أكونه ، وان لي الحق كله في أن أكونه . وليس هناك أي سبب في انني لم أولد أسود تماماً » .

« إذن ، لمتَّ من فرط الاستمناء . أنا متأكد » .

« أتتمتع بأن تكون مبتذلاً ؟ » .

« توبيخٌ بريطانيّ مهذب . مدهشٌ كم تغلغلت الإنجليزية فيك . ربما لهذا السبب أنت تهاجم باستمرار . انظر ، الواقع إنني سئمت حب الذات . حتى الوطنية هي نوع من حب الذات ، لكن ، بالإمكان الدفاع عن ذلك . إن ما تسقمني هي عبادة الجمال الأسود . على الأمهق ، مثلاً ، أن يذهب ويغرق نفسه ؟ » . حتى ذلك الوقت ، كان نسي العازر تماماً . عاد ذهنه إليه الآن ، فأثار قلقه فجأة . نهض .

« أأنت مغادر ؟ » .

« نعم » .

« إذن ، لم تجد بشرتَكَ جميلة ؟ »

« لم أفكر بالمسألة قط . ليلة أمس الأول رأيت فتاة بيضاء في حفلة وأعتبرتُها جميلة . هذا حكمٌ استتيكيّ . ليس بمقدوري تذكُّر الكثير عن لونها . عندما تتحدث أنت عن الحيوية السوداء أكاد أسمع لعابك وهو يسيل ، وبما أنه صادَفَ إنني أسود ـ وهو أمرٌ ليس لي ولا عليّ ـ فإنني أجد المسألة كلها مَدْعاةً للتقيؤ » .

« لا . انتظر دقيقة... » .

« أنا مستغربٌ من أن السود يمكن أن يلطخهم باللعاب حتى السود » .

نهض جوغولدر « مكانك بعيدٌ نوعاً ما . سأوصلك بالسيارة . أو أبق إن شئت ، فالوقت متأخر » .

« لا . سوف يقلق عليّ صديقي ، ويخشى حدوث شيء لي » .

« عندما رأيتك ، كنت كمن أغلق الباب في وجهه » .

« لم يكن الأمر كذلك . إنه بيتر ، الولد الألماني ذو النفَس الكريه ـ لم يترك البيت . ولم يكن لي مزاج في ملاقاته » .

« أتسكنان معاً ؟ » .

« نحن كلانا ضيفان على صديق دراسة قديم » .

« أوه . أنا أعرف بانديلي جيداً » .

« وخدعتّه خدعةً لئيمةً . لقد تورط ببيتر بعد أن طردتّه أنت . دقيقة واحدة في البيت مع بيتر ، هي محنة . إن بانديلي إنسانٌ متفوقٌ بالفعل » .

« بمقدورك الانتقال إلى هنا إن أردتَ » .

ضحك ساجو « ونزواتك المباغِتة ؟ أكره أن أستريح هنا ، بينما أنت تركض قادماً من قاعة المحاضرات لترمي بي خارجاً . ولاأستطيع أن أتخيّل رأسي مرتطماً بالدرجات الحجر » .

« لا .لا بإمكاني أن أقول لك . لا أظن هذا يحدث » .

« لا . أنا هنا . لأيام قليلة فقط ، على أي حال ، وسوف يؤذي واحدنا أعصاب الاخر . أعني ، يجب عليك الاعتراف بأنك مفاجأة ما . ومن العسير امتصاصك فورا » .

« ابق هذه الليلة فقط . سأوصلك بالسيارة في الصباح الباكر » .

كان في هذا إغراءُ لساجو« علي الاعتراف بأنني سأنام أفضل ، وأنا عارفٌ بأنني لن أرى بيتر حين أفتح عيني صباحاً » .

جيد . ثم إن المكان خال تماماً من البعوض . بسبب الارتفاع كما أظن . سأنام هنا وبإمكانك استعمال غرفة النوم » .

« لا . أنا أحب هذه الأريكة . ابق أنت في غرفة نومك » .

صار الآن ، مرحاً جداً « لا . لا .ليست هذه فكرتي عن الضيافة » .

« عليك أن تستسلم . أنا لا أستعمل السرير حيث تكون الأريكة . حتى المطارح على الأرض تكفيني » .

قال : « حسناً . سننام نحن كلانا ، إذن ، على المطارح » .

« انظر.. أنا لا... » لكن غولدر كان دخل غرفة النوم ، وحين وجد ساجو نفسه وحيداً في الحجرة عاوده الإحساس الغامض بالضيق . فوقف هناك حائراً عندما ظهرجوغولدر ثانيةً ، عرف أنه لن يبقى .

« وضعت لك منشفة جديدة في الحمّام ، إنه داخل غرفة النوم » . وضع اسطوانة أخرى « آمل أنك قررت استعمال غرفة النوم » .

« لا . أنا... لا أظن » .

تكلم بمرح واضح « حسناً . سنستعمل كلانا ، إذن ، المطارح » .

« لا . لا . لا أظن أنني سأبقى هنا إطلاقاً » .

أوقف جوغولدر ، الغراما فون ، غير مصدقٍ « لماذا ، لماذا غيرت رأيك ؟ » .

« لم أقرر البتة » .

التفت ، باتهامٍ شديد « لقد قررت . ووافقت على البقاء » .

« حسناً . لنقل إنني قررت » . كان ساجو متأكداً من أنه ينال نصيباً أكثر من إزعاج هذه الليلة : « لكن النزوات المفاجئة ليست احتكاراً لك » .

« لكن ، لم لا تريد البقاء ؟ » .

« إحساس فقط » .

« لا . ليس هذا هو السبب . ماسببك الحقيقي ؟ » .

« أأنت جادٌ في طلب سبب ؟ » .

« أجل . أجل . أريد أن أعرف لماذا » . ارتفع صوته ، وتلاشى كلُ تحكّمِهِ « فقط قل لي الحقيقة » .

« حسناً . لشيء واحد ، هو انك أوضحت تماماً انك ترفض التطفل » .

« لا . كان هذا فقط تعبيراً عن نفسي . وقد رفضتَ أنت الأمر . صحيحٌ أنني عرضةٌ للنزوات ، لكني أريدك أن تبقى . يجب أن تدرك أنني أريدك أن تبقى » .

« سترهق أعصابي » .

« في ليلة واحدة ؟ ماالسبب الحقيقي ؟ » .

فكر ساجو فجأة ، كلانا يتملص ، لكن لماذا ؟ لماذا أتملص أنا ؟ ماالذي يتوقع مني أن أعرفه بحق الله ؟ أحس أن في ذهنه حاجزاً يمنع الاعتراف الواعي بالموضوع ، لكن هذه الليلة ، كانت من لياليه البطيئة ، وتساءل ، ماذا ماذا ماذا ؟ جو غولدر كان يسخر ، ووجد ساجو أن وجهه مايزال في تحوّل آخر . كان وجهه ملتوياً ، يبدو فجاً ، إجهاضاً . أخيراً قال ساجو «لديك شكوك . فإما أن تقولها ، أو تحتفظ بها لنفسك ، لأنني منصرف . وإن لم ترض بسببي ، فابحث لك عن سبب » .

« أنت الضارب في الغابة . الإنجليزي فيك ثانيةً... » .

« بحق الله! » .

« أجل ، وأنت تعرف ذلك... إنه لطف منك ، لكني لاأستطيع البقاء » .

« تماماً مثل صديقي الراقص الذي لايريد أن يأكل . لاأطيق التظاهر .. قل مافي ذهنك . أريد أن أعرف » نظر إليه ساجو الآن بشفقة متعمدة ومشى نحو الباب « مادمت مسكوناً هكذا بالبريطانيين ، سأقول لك سبباً جديداً واحداً لعدم بقائي... ستهلكني ضجراً . آمل في أن يكون هذا كافياً لك » .

اقترب منه ، وقال في شبه توسُّل « أنتظر . قل لي شيئاً بصراحة . أتخافني ؟ » فقد ساجو الإحساس . تهدّل فمه مفتوحاً ، وظل هكذا .

« لست بحاجة إلى أن تبدو مندهشاً إلى هذا الحد . أريد منك جواباً صريحاً . أتخافني ؟ » .

« أخافك ؟ » .

أُرغم ساجو ، ثانيةً ، على التخلي . لم يكن يقصد أن يحمل صوته أي احتقار كان سبباً في غضب غولدر اللاحق « ياإلهي ، أنت من النمط القوي ثقةً ، الست هكذا ؟ عرفتك لحظة رأيتك . أنت واثق من نفسك كالديك . واثق من نفسك حد اللعنة . أنت النمط الأسود القوي ، الذي لايهاب شيئاً . من أين أتيت بالمكر ؟ سألتك ماالذي يجعلك تتكُ ، لكنك لم تقل شيئاً . النمط القوي الصامت ، الواثق تماماً من نفسه . لاشيء يجعلك تخاف » .

ناكده ساجو عامداً « أستطيع العناية بنفسي... نعم . وماذا في ذلك ؟ » .

ثم فكر ، انه مجنون . الرجل مجنون . لو كانت لديه مُديةٌ لطعنني . لكن لماذا ؟ ماذا فعلت ؟

كان الأميركي يتكلم الآن ، ببطء أشد « أتظن... أنك خائف من أني قد أؤذيك ؟ أهذا هو الأمر ؟ أتظن أني شاذٌ ؟ » .

« لا ، بحق الإله » . فاجأت الفكرة ساجو ، بل لم يفكر بها حين رفضها « لديك بعض التصرفات الانثوية ، لكن هذا كل مافي الأمر » .

« هيا . هيا . كن صريحاً الآن » .

« لقد اجبتك! اسمع انت ، صحيح انني قضيت بعض الوقت في اماكن يُمارس فيها كل انحراف ممكن ، لكنني ، لهذا السبب ، لاأتسرع في استخلاص نتائج ، فقد صادف أني ولدت في مجتمع صحي ، بالمقارنة... » .

وثب عليه « لا تبع لي هذا! تحت قدمي المجتمع الصحي بالمقارنة... اتظن اني لاأعرف شيئاً عن امرائكم وصبيانهم الصغار ؟ لاتنس أن التاريخ مادتي . وماذا عن تلك الشلل الخاصة في لاغوس ؟ » .

أعلن ساجو بإيماءةٍ عن هزيمته « معلوماتك أفضل مني . لكن اسمح لي أن أظل في وهمي . أنا متعب على أي حال . انظر ، أنا فقط أحاول أن أقول أنني لا أشك فيك أبداً . لم أتعلم أن أتعجّل النتائج في أمور كثيرة جداً . ومهما يكن الأمر ، فأرجوك ، أن نتناول الموضوع في وقت آخر » .

بدا الآن راضياً إلى حد ما « سأوصلك » .

حتى تلك اللحظة ، لم يخف ساجو شيئاً ، ولم يفترض أكثر مما اعترف به . لقد أقام الجدار في مجتمعات كان فيها الجنس مفتاح تخطيط البلدة ، حيث تصاميم اسيجة الحدائق تُرفض بسبب رمزيات غير مشكوك فيها . كان غير قادر ، وهو في أميركا ، أن يتقبل أنّ كل ثلاثة من خمسة أصدقاء له كانوا شاذين ، جهراً أو سراً ، وأن الرابع كان يحب أمه . لهذا أقام بابَ حديدٍ صفيقاً ، وشاد نادي جودو لأولئك الذين اغنته حركاتهم في دور السينما المعتمة ، عن كل شك .

مع الرجال تعلم أن يهمل الغمز واللمز والأسئلة المستطلعة مخافة أن يساء فهمه . لكن ، حين اللغة واضحة ، قطع الرسغ المنحرف ، واكتسب سمعةً يدّرع بها .

« بماذا تفكر الآن ؟ » .

« أوه . لا . لاتدعنا نبدأ من جديد » .

قاد سيارته ، خلال الدرب الترابي ، إلى الشارع ذي الأشجار الممطرة من الجانبين .

قال جوغولدر « أترى... أنني أود الرجال » .

كان ساجو ، غبياً تماماً ، تلك الليلة ، أو ربما لم يستمع قط استماعاً حقيقياً .

أعادها جو غولدر مرتين بتأكيد أشد ، قبل أن يعترف أخيراً بالمعنى ، ويلعن بُطأه » .

« أعني... أنا أود حقاً . أود رجالاً كهؤلاء ، نعم ، كهؤلاء ، ظننت أنك تعرف » .

« لا . أخشى أنني لم أعرف » .

« حسناً . ظننتك تعرف . لم أستطع التفكير بأي سبب يمنعك من البقاء . لكن أتعني أنك حتى لم تشكّ ؟ » .

« لستُ عصياً هكذا . من الصعب أن أشرح لك . ربما مرَّ بذهني مرّاتٍ

قليلة... ولاأستطيع التفكير بالسبب الذي جعله يثُبت . قد يكون ردّ فعلٍ انميثُه . حين لاأستطيع التفكير بأي مرض أصيب به إنسان ، فإني لاأتبع المظهر» .

«حسناً ، كان علي أن أظن أنه كان واضحاً » .

«لا . فقد عشت مع هذه المؤامرة الأوروبية لنزع الجنس من الرجال ، وقد اصابتني بالجنون . لهذا ، أنميثُ ، ببساطة ، رد فعل غائر الجذور ، لكن مع هذا... تجاوزت نفسي... يجب أن يكون الشراب هو الذي حجَّرَ فصوصي » .

« أتدري أنك لم تخبرني حتى باسمك ؟ » .

« أمرٌ شائع في الحالات العابرة ، أليس كذلك ؟ » . الآن ، وقد تفتّح ذهنه ، لم يكن ساجو مستعداً لمداراة الاعتبارات مداراةً كاملة .

لاحظ آنذاك كتاباً ملقى على المعقد بجانبه فتناوله ، وأمسك بالغلاف عند لوحة الأجهزة .

« إنه (بلاد أخرى) ، آخر ماأصدره بالدوين . اقرأته ؟ » .

«أنا اتهجاه (بلاد أخرى) ف ـ ر ـ ج .

«أنت لاتحبه ؟» .

«إنه يذكرني نوعاً ما بعنوان آخر (أريك ، أو قليلاً قليلاً) يُقال بشهقة دُبريةٍ إن التقطت ماأعنيه» .

قال ثانية «أنت تستمتع بأن تكون مبتذلاً » .

«وأنت ؟ لماذا يرقد هذا على مقعد سيارتك ؟ هكذا حين يصعد معك الطلبة يكون بمستطاعك أن تجد مدخلاً سهلاً للاستكشاف ؟» .

«أنت تحاول إيذائي» .

ظلا صامتين بقية الطريق . توقف غولدر خارج البيت وسأل وهو مايزال آملاً

«حسناً ؟» .

«حسناً ، ماذا ؟» .

« ماتزال الدعوة قائمة . بمقدورك المجيء والبقاء متى أردت» .

« شكراً ، لكني ـ بصراحة ـ لاأظن » .

« بسبب ماقلتُ ؟ » .

« للمرة المائة ، أنا أستطيع الاهتمام بنفسي » .

كانت هذه دائماً مثل صفعة على وجهه « أنت ضخم وقوي . افريقي ضخم صامت » فتح بانديلي الباب له « ألم تكن تلك سيارة جو غولدر ؟ » .

« بلى . وأنا أشكرك لهذه الزيارة التي لاتُنسى . أشكرك جزيلاً » .

« ماالأمر ؟ » .

« أولاً بيتر . ثم ذريتك المحلية ، والآن شخصية غولدر . اتمنى الآن فقط ألا تكون محتفظاً لي بمفاجآت اخرى» .

حدّق فيه بانديلي بعينين متسعتين « أوه... أوه... كان ينبغي أن أحذرك » .

« لاتهتم . المفترض فيّ باعتباري صحافياً أن القى في طريقي كل شيء . لكن المشكلة انني لاأرى في هذا كله مايمكن ان يستعمله رئيس التحرير » .

١٤

إنه وقت الغداء ، ثانية ، في منزل فاسيي . وبانديلي يرى في هذا الغداء متعة معدةٍ يعجز عن مقاومتها ،ذلك لأنه غداء ما بعد الأزمة ، كما أن أم فاسيي ستعمل في المطبخ عجائب . أما العقوبة اللاحقة فضئيلة ، انه لم يسمع ما لم يُرد سماعه ، واطلق الأصوات المناسبة في الوقت المناسب ، وأدار أنفه ناحية المطبخ ليستاف نفحات العيد المبشرة .

مونيكا ، المعتادة على التمرين ، هيأت الأشربة وانصرفت ، ولم يكد فاسيي ينتظر إغلاق الباب وراءها حتى دفع بانديلي إلى حائط« رأيت المشهد كله ، أليس كذلك ؟ رأيت ما حدث رأيت كيف الحقت بي تلك المرأة الخزي! إيماءة استنكار من بانديلي« كان لا شيء . لم يلحظ أحد شيئاً » .

« كيف بمقدورك أن تقول ذلك ؟ انظر ، يا بانديلي ، أنت صريح معي دائماً... ايه ؟ماذا عن كولا ، أكان هناك ؟ » كان ينظر مباشرة إلى كولا ، لكنه ، بصورة عجيبة ، يخاطب بانديلي« أكان في الحفلة ؟ » .

أجاب كولا بحزم« لم أكن » .

« ألم يكن ؟ أقسمُ أنه هو الذي ذهب ورقص مع مونيكا فيما بعد » .

« لا . كان سواي » استدار إلى اجبو وأخذ يتحدث معه .

قال بانديلي« لا . لا أتذكر أنني رأيت كولا » .

« ها انتذا ترى ، أعني ، انني قادرٌ على الفهم لو كنت من هؤلاء الذين

يتزوجون فتيات اميات من لندن حتى يستطيعوا التباهي بأن لهم زوجة بيضاء . قل لي بصراحة ، هل أبدو من ذلك النوع ؟ » .

قال بانديلي شيئاً عن أن مونيكا جيدة .

« هكذا ترى...أن تذهب وتخزيني مثلما فعلت! كأنها تجهل أبسط أصول الاتيكيت » .

« انظر ، يافاش... » لكن فاسيي قاطعه « أنت لاتنظر إلى المسألة من زاوية وجهة نظري... انتظر ، دقيقة واحدة » ذهب وأنصت عند الباب « جيد . امي تتكلم معها الآن . اتدري ماذا قالت لها زوجة الأستاذ ؟ قالت انها لن تطيق حضور مونيكا في منزلها ثانية » .

غمغم بانديلي « رهيب » .

« شرعت ترى رأيي... اليس كذلك ؟ أن تتصرف هكذا في مجتمع مهذب . لماذا ؟ أحياناً أفكر أن مونيكا لاتحترم الأفارقة ابداً . هذا كل ما أستطيع قوله . أتراها تفعل ذلك في منزل رجل أبيض ؟ لو كان الأستاذ رجلاً أبيض... أكانت تفعل مافعلت ؟ » استفسر بانديلي « أرأيت الأستاذ ؟ » .

« لم أذهب بعد . لكن يجب أن أذهب وأعتذر ، وإن كان اعتذاري لن يصلح الضرر . اتعلم أن أحد الوزراء كان حاضراً . أجل ، وواحد آخر أو اثنان من الشخصيات الهامة . ان أوغوازور يعرف الناس كما تعلم . رأيت أربعة رؤساء ادارات هناك ، وبعض الوكلاء الدائمين . شيءٌ مثل ذلك ، ياكولا ، ويكون المرء قد قُضي عليه اجتماعياً » .

« نعم ، أنت ، طبعاً » .

« انظر . دعنا نواجه الحقائق . الجامعة ليست سوى نقطة وثوب . السياسة ، الشركات ـ ثمت شيء دائماً . ناهيك عن هذه المؤسسات الأجنبية التي تبحث دائماً عن مديرين نايجيريين . أقصد ، ياكولا ،أنك فنان ، لكني متأكد أن الأمر كله ليس سوى وسيلة لغايةٍ ، أليس كذلك ؟ » .

تعمّد كولا الصمم .

«لم أنم طوال الليل . والحقيقة أنني مبتهج جداً لمجيئكم . أمي بحالة ممتازة . أول مافعلته في الصباح أنني ذهبت لاحضارها ـ لكن المرء لايستطيع التحدث إلا مع أناسٍ في مثل سنّه . وأمي مغرمة بمونيكا . إنها تدللها فعلاً» .

«ماذا قالت أمك ؟» .

«لم تقل شيئاً حتى الآن . تقول يجب أن تسمع الرواية الأخرى للحادثة . وكأنما بقي شيءٌ ليقال» .

«لنذهب الى الشرفة ياإجبو» .

تركا غرفة الجلوس لفاسيي وباندیلي ، وإجبو يغمغم «أنا لاأفهم باندیلي إطلاقاً . ترى كيف يتحمله ؟» .

«لاتسألني» .

«ليست لديّ فكرة عما سأتورط فيه حين قبلتُ بالمجيء» .

«أنا لدي فكرة ـ وهذه مشكلتي» .

«كيف ؟» .

«مونيكا» .

نظر إليه اجبو وهزّ رأسه «هكذا إذن . رحيق اللقاح ينتشر ، هائجاً ، في كل مكان» استفسر كولا بدوره «ألم تجد الفتاة بعد ؟» .

«لقد اختفت . لم أعرف أن العطلة كانت جدّ قريبة» .

ضحك كولا «لم أفكر قطُّ أنني سأراك مستكيناً» .

اقرّ اجبو «ولاأنا . يبدو أنني أشيخ» .

لقد تبدّل وجه الحرم الجامعي ، فالأصوات مختلفة ، والحركة داخله أكثر انتظاماً ـ كأنها في فترات مضبوطة بينما تنسرب لجنة مؤتمر من قاعة إلى أخرى ، وتعود إلى الأقسام الداخليةالكبيرة ، الخالية ، الآن ، من آهليها ، بصورة محزنة . صامتةُ الآن اصطخابات الطلبة ، والزوائد البائخة لآثار الصبا الوطني ، التي تسمّى بحق (الدودة) أو (الوحل) ، التي تجعل حتى أكثر منتسبي الملاك الإداري تحرراً يتميزون غيظاً ، ويتساءلون إن كان من الخير

أن يوجهوا جهودهم ناحية القرود في حديقة حيوان الكلية .

لكن آل أوغازور ، ظلوا يتحملون ، من أجل القضية ، أن يوسّخ عدد من الطلبة ، بحضورهم ، أغطية حشيّاتهم ، آملين في أن ينقل الشاي والشطائر بعض التهذيب إلى قلة يمكن استنقاذها . لكن الضيوف يعودون إلى آلات استنساخهم ليلطخوا بالمزيد من الوحل جهاز الإدارة الذي لايُمَسُّ ، مغتذين على السكتات الدماغية لانضباطيين متورمين . ثم تراهم يبتلعون كلماتهم بمهانة خانعة ، منبطحين أمام العميد ، لكنهم يعودون إلى الطلبة الآخرين بادعاءات منتفخة عن تحديهم السافر لهم ليس للعميد فقط وإنما للمجلس بكامله .

وهكذا يجري التدقيق في الدعوات ، ويتم اختيار طلبة يطمأنّ اليهم أكثر ، أبناء وزراء ، أو سواهم من كبار أبناء الوطن . لكن الشاي سيظل بارداً ، والشطائر ستتصلب أطرافها ، وأغطية الحشيّات ستُحرم من التشريف ، وسوف يعزي السيد أوغازور زوجته قائلاً « ماذا أخبرتك ؟ هؤلاء الفتيان ، بكل بساطة ، غير مهذبين » ، وينزلق (الوحل) ثانيةً ، وتزحف (الدودة) وينتظر المحررون بدون جدوى ، القمع المنطقي ، والتطويب ، والتصاعد الحتمي للشعبية باسم « حرية التعبير » ، والأملُ منعقد على الانتخابات المقبلة للاتحاد الرئاسي . لكن سيكون المستشار آنذاك ضجراً ، واعضاء الإدارة غير مبالين ، ويتأوه الطلبة أسفاً على خسارة في «الديناميكية الأكاديمية» ، والسبّورات أيضاً نظيفة الآن ، ليس فقط من أسرار التفاضل والتكامل ، وإنما من الرسوم الداعرة وطُرَف الطلبة أيضاً . لوحات الإعلانات تحررت أخيراً من تفاصيل الشائعات الماجنة ، بصورها واشخاصها الذين لا يُخطىء معرفتهم أحد ، بتجليات المخيلة الطالبية ، والانتقام من مساعٍ فاشلة ، والإحباط العام ، والغضب من وجود النساء بينهم ، هؤلاء النساء المصممات على المساواة ، واللواتي يجب أن يقلن - بسبب قلة عددهن - مائة لا لكل نعم واحدة ، اللواتي صار امتيازهن غطرسة لاتغتفر ، وهكذا تتم العودة إلى لوحات

الإعلانات برواياتها المائتة ، ورسومها البيانية ، وذكاء الأدمغة السيّالة...

« ومع ذلك ، من بينهم... أحياناً لايُصدَّق » .

« ماهو ؟ » .

« كنت أفكر للتو بأن من بين هؤلاء ـ أقصد هؤلاء الطلبة ـ يجد المرء عباقرة المستقبل » .

« لاتتكلم كلام الخرف هذا » .

« حسناً... ألستُ كبير السنّ ؟ » .

« احدى وثلاثون . ايفترض أن المرء كبير السّن ؟ » .

« اثنتان وثلاثون » .

« هكذا ؟ أنت ماتزال في الجيل نفسه مع طلبتك » .

« الجيل لايتعلق بالعمر فقط » .

« على أي حال ، لاتكن مثل خرِّيج قديم يخاطب الكلية التي تخرَّج فيها » .

نهض كولا فجأة « بانديلي ذاك يزعجني أحياناً . كيف بمقدوره أن ينصت طوال الوقت ؟ » .

« انتظر . دعهم ينتهون من القضية » .

لكن كولا كان فتح الباب ، متغاضياً عن كل وخز لضمير .

كان فاسيي يقول « أخبرك أنها لمسألة سيئة . مضى الأمر ابعد من اللازم ، وقد استقر عزمي على مستقرّ ، استدعيت أمي ، فقط لتكون على بينّة ، ذلك لأنها مغرمة بمونيكا . وأنا لاأريد التخلص منها قبل أن أخبر أمي أولاً » .

أحس كولا بأنه يعرق ، ورفض أن يتقبل أياً من هذا . ندم الآن لأنه لم يترك قراره الخاص إلا بعد فوات الأوان ، إذ بدا له أن الطريق كان مفتوحاً له علي أي حال وهذا مالم يكن يريده . ماأراده ، في الأقل ، نوعاً من التعويض ، هو الحطُّ من قدر الرجل ، واسترخاص حقوقه ازاء مونيكا .لقد ندم ، وهو

مليء بالندامات في تلك اللحظة ، لأن فاسيي لم يُظهر حتى نزوعاً ضئيلاً نحو الرجولة ، ليكون بمقدوره الإحاطة به ، عامداً ، دون رحمة ، ودون الحاجة إلى أن يبحث عن عذر لنفسه من خلال ضعف الزوج...

« ربما كان مفيداً أن تتوسل بأوغازور » .

التفت فاسيي نحو الصوت ، متتبعاً اقتراب كولا كمن يتبع بارقة أمل .

« ماذا تقصد بالتوسل ؟ » كانت حرارة بانديلي تبدو غير ضرورية ، ومليئةً بالريبة . مرة أخرى خذله فاسيي .

« لكن كولا مصيب . في الواقع ، أردت أن أذهب هذا الصباح ، لكن أمي نصحتني بالتريث . يبدو أنه الشيء المعقول الوحيد للممكن عمله » .

« فاش . أقول انس الأمر فقط » .

قال كولا محذراً « أوغازور لن ينسى » ، ثم أضاف مؤكداً « أوغازور فيل . أنا أعرفه . انه لن ينسى شيئاً كهذاً » .

ردّ بانديلي بحدّة « ماذا تعني ؟ أنت لم تكن حتى هناك ، حسب قولك » .

« لكني سمعت كل شيء » .

نقّل فاسيي نظرة من واحد الى آخر ، ممتنًّا لما في نبرة كولا الشخصية من اهتمام واقتناع . وبامتنان خالص ذهب وملأ الكؤوس من جديد . اغتنم بانديلي الفرصة ليهسهس « ترى أية لعبة تظن أنك تلعبها ؟ » .

« دعه ينبطح إن شاء » .

« حسناً . دعه يتخذ قراره الخاص » .

« من أنت ؟ العمُّ وليُّ أمره ؟ » .

حدّق فيه بانديلي ، طويلاً ، وببرود . لكنه لم يشأ الإفصاح عمّا كان يفكر به . عاد فاسيي مع كؤوس الشراب « كل شيء يعتمد على أمي . من سوء الحظ ، حقاً ، إن أبي مسافرٌ في احدى سفراته خارج البلد . فربما ساعدنا . انه يعرف كل هؤلاء الناس » .

ابتعد بانديلي عنهما وانضم الى اجبو في الشرفة .

« فقط... سأخبر أمي » .

قال كولا «لمَ تخبرها ؟ ستقول لك تريَّثْ ، حسب . اذهب حالاً ، وانته من الأمر» « أنت مصيبٌ طبعاً أنا... أنظرْ ، كن صديقاً . لوسألت أمي عني فاخبرها فقط أنه كان عليّ أن أذهب لأقوم بعملٍ مستعجلٍ في المختبر» .

« بكل تأكيد ، بكل تأكيد » .

وأحس كولا إحساساً خاصاً بأن هذا كان أفضل ، وأنه كان من الضروري أن يكون له دخلٌ فيما قد يحدث .

دخلت مونيكا بعد لحظات « يبدو أنك تُترك دائماً ، وحدك ، في هذا البيت . آسفة » « لا يهم إطلاقاً » . ثم الصمت المرتبك .

« شكراً لما فعلته في الحفلة » .

« أرجوك... لاأريد تلك الـ « شكراً » البريطانية » .

« لكني أعنيها » .

« أعرفُ . لكني أقصد أن ثمت أموراً أيضاً يجب ألا يقال فيها شكراً » .

« لاأعرف واحداً منها » .

« ذلك لان تنشئتكِ كان فيها خطأ » .

« أتأخذ كأساً ؟ » .

« لا . أنا لاأريد... صديقي الصحافي أرسل إليك عهد ولائه . لقد سمّاكِ المحارب المجهول في مقبرة أوغازور » .

« الخير ألاّ تدع آيو يسمعك تقول هذا » .

« سأقولها مباشرةً أمامه إن شئتُ » .

« يجب ألاّ تفعلها » . صمتت برهةً . « كيف اللوحة ؟ » .

« ستنتهي قريباً . قد أعرضها في معرض سيكوني ـ فقط اللوحة الوحيدة ، لي » .

« لاشيء آخر ؟ » .

«لا . العرض في الواقع هو لسيكوني ، فقط أنا لاأعتقد أنه توجد مناسبة أفضل من هذه ، حتى الآن ، لعرض أكبر أعمالي» .

«غالباً ماأراك تأتي لتأخذ أوسايي ، لكنك لم تفكر البتة بالصعود لترانا» .

«حسناً . هي التي كنت أريد» .

«وليست لك حاجة بنا ـ هذا واضحٌ على أي حال» .

«ستكون نظّاراتها جاهزة الأسبوع القادم» .

«شكراً . كان لطفاً منك أن تتجشم هذا» .

«هاأنت تشكرينني ثانية . مع أن كل مافعلته هو أنني استغللت الفتاة المسكينة لعملي الخاص» .

«بالطبع ، أنا أتذكّر الآن... أنت تود أن ترفض العطف و... وماذا كنت تدعره ثانيةً... أوه ، نعم ، العواطف الزُّغب» .

«لكني أقول الحق ، إذ جلستُ لأرسمها ، ساعة بعد ساعة» .

«حسناً ، لن أجادل . شكراً لأخذها إلى العويناتي ، مهما كان الدافع» .

وقفا ثانيةً عند النافذة ، مليئين بالصمت المرتبك . كانت اوسايي تلعب ، تحت حبل من البياض والدانتيلا والقمصان المطبوعة ، على مسافة يسيرة من جذل الشجرة .

قالت مونيكا «لا أعرف كيف تحدث الأمور ، لكني أنتهي بأن أفضحه بصورة سيئة» .

«أهذ ما تعتقدينه ، حقاً» .

«أنا أفهم كيف يشعر . وأعتقد أنني ربما أتصرف بغباء أحياناً» .

«أتؤمنين بذلك» .

«نعم . أولئك كانوا أصدقاء زوجي . ومجتمعه . ليس لي الحق في أن أحطَّ من قدره بتلك الصورة» .

«هذه مسألة فيها نظر» .

«أية مسألة ؟» .

«إنّ ذلك هو مجتمع زوجك ، انّ مارأيت يمثل مجتمعي . هذا كل ماأعنيه . أما بصدد سلوكك ، فلكما أنتما الاثنين ، أنت ، وهو ، أن تقررا ، أليس كذلك ؟» .

«نعم . كما أن حماتي لطيفة جداً . أنا أحبها كثيراً . أنت لاتستطيع أن تتخيل كم نحن قريبتان . في الواقع هي لاتأتي إلى هنا بما فيه الكفاية . وإن لم يسألها آيو المجيء فلن تأتي أبداً» .

«ماذا تعتقد هي ؟» .

ظلت تفكر بالأمر برهةً ، وقال كولا «آسف . ربما كان الأفضل ألاّ أسأل...» .

«نعم ، كنت أفكر ما إذا كان صحيحاً أن أتحدث معك إطلاقاً . لكني لاأهتم حين أخبرك . هي تعتقد أنه يجب أن أتركه» .

أشاح كولا بوجهه .

«هل صُدمتَ ؟ ليست المرة الأولى التي تقول فيها ذلك . وحين أتأمّلُ المسألة ، أفكر... حسناً... ولمَ لا ؟ أليس هذا هو الشيء المنطقي ؟ ثم ان هذا يمسُّ مواقف راسخة ، وليس بمقدور أي واحدٍ منّا أن يتغير أو يغيِّرها» .

كانت قلقة الآن لأن كولا لم يتكلم «لقد صُدمتَ... ألأن الكلام صدر عن أمه... ؟

أنا آسفة . خطأ كامل . كان ينبغي ألاّ نناقش الموضوع على الإطلاق...» .

دخل بانديلي واجبو من الشرفة . كان اجبو يقول «حسناً ، أنا لاأصدقك» .

«أقول لك ، لو رأيتُ وجهها ثانية فلن أتذكرها . كان الظلام هبط حين أتت بالورقة» .

«لكني وصفتُها . يجب أن تتذكر أياً من طالباتك هي» .

« لاأتذكر . وجوههن تبدو متشابهة كلها . ليس بمقدوري التمييز بينهن » .

توجه اجبو إلى كولا « ألاتخبره بأنني لاأريد إفسادها ، وحتى لو أردتُ فإن الأمر لايتعلق به . لمَ لايخبرني باسمها ؟ » .

« أيعرفه ؟ » .

« هذا ماظللت أردده . لاأعرف الفتاة » .

« حسناً . أعطني أسماء كل الفتيات اللائي يحضرن دروسك» .

ضحك كولا « أتريد أن يعملها للتو ؟ » .

وقال بانديلي« حين نترك هذا المكان ، نذهب إلى المكتب ، وسأعطيك القائمة » .

« كم عددهن ؟ » .

« جميعاً ؟ » .

« في السنوات الثانية » .

« لاأعرف . بصراحة ، لاأعرف » .

« حسناً ، ربما تكون ثمت مواضيع لم تُعدها . سأعرف خطّها ثانية » .

« ربما . عليّ البحثُ في مكتبي . علي أي حال ، الغلطة غلطتك . كان عليك أن تسألها عن اسمها » .

« ظننت أن بمقدورك دائماً أن تخبرني ، ولهذا لم أتعجّل طلب اسمها » .

انفتح باب المطبخ فجأة . وقفت السيدة فاسيي ونظرت نظرة خاطفة إلى الغرفة والشرفة . « أكانت سيارته التي سمعتُها للتو ؟ » .

مونيكاأيضاً ، نظرت حواليها ، وقد عرفت للمرة الأولى أن فاسيي كان غائباً .

« ظننته معكم في الشرفة » ، وكانت تنظر إلى بانديلي .

قال بانديلي « لا . تركته هنا مع كولا » .

وقال كولا ، شاعراً بأن بانديلي تحدّاه « آه ، نعم ، ذهب لعمل مستعجل في المختبر .قال إنه سيعود مباشرة » .

كانت السيدة فاسيي فرساً ، سوداء . كان سوادها العميق مثل بُغْدٍ منفصلٍ .

كانت تنتسب إلى رسّ التماثيل الأنيقة ، متحدية ، منحوتة باعتناء ، مثل فرسٍ أصيلة ماثلة في هجوم دربار . الآن استروحت عدم تصديقها ، متضمناً استغرابها لأن كذبة سهلة كهذه تستخدم لتضليلها .

« مَن مِن أصدقاء آيو ، أنت ؟ » .

« ياأمي . إنه كولا... » .

انحدرت عليه ، متميزةً غضباً « إذن أنت المجرم الذي ضيَّعَ طبخي ذلك المساء . وأنت كاذبٌ أيضاً كما يبدو . ذهب إلى المختبر ، أي مختبر ؟ مختبر غرفة جلوس أوغازور ؟ » .

« أنا آسف لذلك المساء ، ياسيدة فاسيي ، أحاول أن أعوضّها » .

« ومالذي يجعلك تفكر بأنني سأقدم طعامي ثانيةً إليك ، بعدما فعلت به أخيراً ؟ » .

« أنا ضعيف حقاً ، ياسيدة... » .

« كان ولدي أخبرني بأنك كنت هنا بالفعل . لكن حين جهز الغداء اختفيت . ماذا جرى لك ؟ » .

« كان... صـــ صـ... كان... ان من الصعب شرحه ، كان لديّ فكرة مفاجئة عن عمل التزمتُ به » .

« نعم . أخبرتني مونيكا عن عملك . لكن ماشأن هذا بتضييع طعامي ؟ » .

وجد كولا نفسه ، وقد بدأ يشعر حقاً بالذنب الفظيع الذي ارتكبه« أنا آسف ، ياسيدة فاسيي ، قصدتُ فقط أن أسرع إلى هناك وأعودرأساً ، لكن الوقت مَرَّ... » .

«الوقت مَـرَّ! ها ؟ يبـدو أنكم ، أيهـا الفنـانون ، تعتـقـدون أن السلوك السيء امتياز لكم . الوقت مَرَّ! » .

حاولت مونيكا انقاذ الموقف «أماه ، إنك تؤذين الرجل المسكين» .

«وإنه ليستحقها . بل آمل في أنه سيخجل من نفسه» .

«كثيراً ، كثيراً ياسيدة فاسيي . أؤكد لك...» .

«لاأسـمح للأطوار الغـريبـة بالتـدخل في طبـخي . إن أردتَ مـتـابعـة أطوارك ، فاذهب إلى شيلسي» .

شـرعـت مـونيكا تهـدئهـا «يكفي هـذا الآن ، ياأمـاه . أعـتـقـد أنه تـعلّم درسه . أليس كذلك ياكولا ؟» .

قال متلهفاً «نعم . تعلمتُه . ولن أعيده ثانيةً . أنني أعِدُ بذلك» .

«هلمي ياأمي . لنر الطعـام . بانديلي ، الخير أن تؤكـد لكولا أن الأمـر لايعدو مزحةً ، حتى لايهرب ثانيةً» .

«ماذا تعنين بأن الأمر كله مزحة ؟» لكنها كانت سمحت لنفسها بأن تُسحَبَ من الباب .

وقف كـولا ، مـتـرنحـاً ، ولَفَّ بانديلي يديه حـول كـأس «اشـرب هذا ، واهدأ . وانتهى كل شيء» .

«ماذا فعلتُ ؟» .

«التعميد بالنار . إنه طقسٌ معها» .

«لكن تلك المرأة كانت حانقةً تماماً» .

«انها تـجد سبباً وجيهاً مع كـل من تعرفهم للمرة الأولى . وبخاصة أولئك الذين تعتقد أنهم أصدقاء آيو» .

«أسخرية ؟» .

«حسناً . كنت تـكذب لصالحه ، أليس كـذلك ؟ أم أنك لم تكذب ؟ لقد جعلتَها كذبةً فاضحة حتى بالنسبة لطفل» .

«ماذا تريد أن تقول الآن ؟» .

« قل لي أنت » .

« انظر... أأنت عَرَّابةُ أم ماذا ؟ » .

« أنا متأكد من أنه كان بإمكانك أن تكذب أفضل لو أردتَ » .

« اخرس » .

« لمَ لاتترك هذين الاثنين يدبران أمرهما ؟ » .

تناستهما السيدة فاسيي حين عادت بجفنات يتصاعد منها البخار ، ومونيكا تحتجّ وراءها « لننتظر قليلاً... آيو » .

وثب كولا « هراء! هل طلب منا صديقك أن ننتظره ؟ » .

تمتم كولا بأصوات غير مفهومة .

« أخبرتُك . ربما كان يتغدى مع الأستاذ الآن » .

« قال كولا إنه ذهب إلى المختبر » .

أطلقت ضحكة عالية « للرجال إحساس فريدُ بالشرف » . دخلت ثانية وعادت بطعام أكثر .

« على أصدقائه الأوفياء هؤلاء أن يعتقدوا أنني لاأعرف آيو مطلقاً . صادف فقط أنني أمه . تعالوا . تعالوا . فقط اجلسوا كما تشاؤون » .

قالت مونيكا لكولا « خيرٌ لك أن تأكل ، وبنهم » .

استمرت السيدة فاسيي « ولدي اطلق عليّ اسماً رديئاً ، ماذا أفعل اليوم هنا مثلاً ؟ لم أعد أستطيع أن ألتقي أيّا من أصدقائه بدون أن أفكر ماذا يمكن أن يقولوا لأنفسهم ، وهو أن هذه المرأة هي التي تتدبر حياة آيو . وهي كذبة كما تعرفون . كل هذا بسبب أنه يتحدث عني كثيراً » .

قال بانديلي « يجب أن يكون متعلقاً بكِ» .

« متعلقاً بي ؟ لماذا ؟ سيكون ابناً غير طبيعي إن لم يشعر بشيء ـ إننا نسلّم بهذا . أما كونه متعلقا بي ، فهذا موضوع آخر . حدث أني متعلقة الآن بموني ، وكان يجب ألا أكون هكذا . لكنني متعلقة فعلاً بالبنت السخيفة ـ إنها سخيفة تماماً ، في بعض الأحيان ، كما تعرفون . لكنني مهتمة بسعادتها » .

كانت مونيكا تبدي علائم ضيق ، كأنها تعلم ماسيأتي . غمغمت شيئاً عن طعام احتفظت به لأوسايي وتركته على المائدة .

« إن لم أهتمَّ ، فسأظل مشغولة بترميم خلافاتهما . وبدلاً من هذا قلت لها ببساطة ، اذهبي وابحثي عن سعادتك في مكان آخر ، فإنك لن تجديها مع ولدي هذا » .

جلس بانديلي واجبو ، وكولا بخاصة ، ينظرون ، مثل اسماك منتزعة الأحشاء ، مندهشين ، ومتسائلين عن مدى الجدية في كلامها .

انطلقت في ضحكة هادرة ، وصارت قاسية ، متحدية .

« حسناً ، حسناً ، ألاتبدون مصعوقين ؟ ليس من شيء غامض في منزل مهدّم ، كما تعلمون . يجب أن أعرف ، فربما قلتم انني لست المؤهلة لابداء النصح . لكني لاأحب العاطفة غير الضرورية » .

قال بانديلي« أهي عاطفة فقط ، ياسيدة فاسيي ؟ » .

« وماذا يمكن أن تكون ، أيها الشاب ؟ كنت منفصلة عن والد آيو اثنتي عشرة ، لا ، خمس عشرة سنة . أنا أعرف متى يقام زواج على عاطفة محض » كانت تقدم الطعام الى كولا ، ترددت قليلاً « هذا صحن حار ، لكني لاأطيق نايجيريًّا لايأكل الفلفل » وبمكرٍ متعمدٍ أضافت فلفلاً أكثر . دفعت الصحن قدّام بانديلي ، ثم واجهته ، مؤكدة النقطة بحركات من ملعقة التقديم « تظن أني لاأهتم بما فيه الكفاية ؟ » .

« لا ، لا . لكني أعتقد أنك لو قلت لآيو بوجوب الاهتمام بزواجه ، فيسفعل » .

« لا . ماتقصده هو أنني لو قلت له بوجوب عدم إبعاد مونيكا فسيطيعني » .

أقرّ بانديلي « حسناً . الأمر ذاته » .

« لا أيها الشاب ، ليس الأمر ذاته . آه ، نعم ، لو أردت لمونيكا أن تبقى ـ وهذا ما أفعله ـ لبقيت . لكن ماشأن هذا بزواجهما ؟ الأفضل أن يذهب كل

منهما الآن إلى سبيله قبل أن يكون لديهما أطفال ، وتتعقد حياتهما ، لذا فإن ماسأقوله لآيو هو ماكنت أقوله دائماً ، يجب أن تتخذ قرارك . افعل ماتشاء .

قلت الشيء نفسه حين كتب إليّ أنه أراد الزواج من فتاة بيضاء . وأنا أعرف ما سوف يكون عليه ذهنه بصدد هذا ، لذا حذرت مونيكا لتهيىء نفسها » .

للوهلة الأولى ، لم يجرؤ كولا على تصعيد نظره . أما الآن فقد تفحّص بيتهم ، حائراً من سبب عدم إحساسه بالابتهاج . لم تكن تلك الحجة التي توقّعها ، قط .

حين أخبرته مونيكا أولاً بما قالت الأم تكوّنت لديه فقط صورة أم تشعر بالمرارة . أما حين أنصت إليها الآن فقط صار مجبراً على إعادة تقدير الموضوع .

تحدثت إلى باندِيلي « هل صديقك متزوج ؟ أنا أعرف أنك لست متزوجاً » .

تملّى كولا وجهها مرتاباً . لكن السؤال كان حقيقياً « أأنت متزوج ؟ » كررت السؤال متوجهة إليه الآن .

« لا » .

« لكن ، ربما لديك أطفال » .

« لا »

« حسناً ، ليس عليك أن تظهر فاضلاً هكذا . من المحتمل أنك عرفت ماتفعل .

كثير من الشبان لايعرفون مايفعلون ، أولايهتمون بهذا » .

دخلت مونيكا من جديد « هل كانت أوسايي هنا ؟ » .

« تعالي ، يابنت ، تعالي واجلسي . أنت وزوجك تتركان ضيوفكما وحدهم ، وتدعانني أعتني بهم . ماذا تظنينني ؟ خادمتكم ؟ » .

ارتاحت مونيكا في كرسيها ، متسائلة « أما تزال أمي شديدة ؟ » .

« الخير أن يتعلم المرء الشدة أولاً . أتعلمون أن هذه الفتاة السخيفة كادت تهرب عائدة إلى بلدها بعد اسبوع من وصولها ؟ ذهبت لملاقاتهما في السفينة ورأيتها ، مستندة الى ذراع آيو ، فزعةً قليلاً من المشهد الغريب . أوه ، أنا سخيفة جداً أيضاً في بعض الأحيان ، أتعرفون مافعلتُ ؟ انفجرتُ بالدموع . لكن موني لم تفهم . ظنت أني مستاءة ، أو شيئاً مثل هذا . ظنت أني لم أودها . لا . أنت لا تستطيع أن تغلب فتاة بيضاء في السخف » .

سألها كولا ، وهو ينظر مباشرة الى مونيكا ، غير مهتم بما قد يستخلصه بانديلي « أنت تسمينها موني ، أكانت هذه فكرتكِ ؟ » .

« فكرة من تكون ، إذن ؟ فكرة ابني ؟ ان مخيلته كمخيلة ابيه . كنت تظن أن الأمر الطبيعي أن يسميها هو موني ـ ليس عندنا اسمٌ أكثر جمالاً كي أفكر به . لكن ، لا ، لا ، إنه يسميها دارلنغ . ويسميني مامي » .

قال بانديلي « حسناً . لكنك لن تلوميه لعادة من عادات الطفولة » .

« الطفولة ؟ لكنه لم يقلها طفلاً . لقد التقط عادة مامي من انجلترا ، ومايزعجني هو أنه لايقولها إلا أمام الناس . لماذا ؟ قل لي ، لماذا ؟ » .

وجد كولا أنه لم يكن يبحث عن تبرير ، كل ماأراده هو تنازلٌ اجباري . ونقل سندِ ملكيةٍ . لم يكن يبحث حتى عن براءته الخاصة ، إذ تستلزم هذه محاكمةً لذنبٍ ، وتبرئةً . اراد فجأةً أن يترك ليسلك بعشوائيةٍ سبيلاً ، ويُرمى إزاء ندٍّ كفءٍ ، إزاء خاسرٍ مقاومٍ .

في فمه طعمٌ يزداد ببطء مرضاً ، ليشمل مونيكا ، حتى وجد نفسه يزدريها ، هي ، يزدري جريمة قربها ، جريمة فقدانها التميز ، وصارت جريمتها العادية في الحكم غير الدقيق ، أسوأ من إلغاء الذات لدى فاسيي . ثم ، من كانت ، بعد هذا كله ؟ يجب أن يكون حديثُ حبٍ جرى ، وأيمانٌ... وماذا عن ممارسة الجنس ؟

صوت مونيكا أمامه مباشرةً« مابك ؟ » .

« الدجاجة ميتة بالفعل ، أؤكد لك . لاحاجة إلى طعنها هكذا » .

كم كان يُبدي ؟ لو رآه بانديلي لأساء الفهم . لكن ، لو عرف الحقيقة فقط ، لو عرف حالته الذهنية...

السيدة فاسيي مازالت تتحدث « سوف يعود إلى المنزل ويتوقع أن تفهمه طفلته المسكينة . دارلينغ ، طلبوا مني أن أتغذى ، وسوف يكون من السلوك السيىء الآ أقبل... أوه ، فكرتُ فقط أن أمرّ عليهم وأنا في طريق عودتي من المختبر » كادت عملية قلب الشعور تكتمل ، وتساءل كولا إن كانت السيدة فاسيي تعلم أي تطهير غير مقصود حققته حين اثقلت الموازين إثقالاً صارت فيه قيم فاسيي تحقق انتقاماً سريعاً ، يحوّلُ كل مايمسّهُ ألى انعدام تأثيرٍ مساوٍ . كولا كان ينظر الى مونيكا ثانيةً... أكانت مجرد الرغبة في رؤية افريقيا ؟ وعندما احبته ، أتراها أحبت الأحلام ، والشمس والضحكة الخرافية والحيوية الدائمة ، كما يقال ؟... أما الزوج ، فإن كولا لم يهبه شيئاً ، امتياز الزوجة البيضاء ، فوق كل شيء امتياز الزوجة البيضاء ، لكن لماذا لماذا ، فقد قالوا إن فاسيي كان رجلاً لامعاً ، واحترم زملاؤه في المستشفى معرفته ، إذن لماذا... ؟ وقفز ذهنه إلى بداية الوجبة ، مونيكا جالسة منحنية الرأس ويداها مطويتان على صدرها ، وصوت السيدة فاسيي يلعلع مع إعجاب كولا « أرجوكِ ، أرجوكِ ، دعينا من الصلاة ، احتفظي بها حتى تكوني أنت وزوجك وحدكما » .

غادر المنزل ذاك المساء ، مهزوماً ، ولم يستطع أن يقول بأي وضوح ماذا كان يريد حقاً ، عرف فقط ، ومنطقياً ، أنه رفض إفساد مونيكا . بعد عودته إلى المحترف ، أجلس أوسايي على مقعدها ، وتناول فرشاته . أحس ، أن هذا الشعور الجديد هو الخديعة ، ومع انهما لم يتبادلا كلمة واحدة ، شعر الآن أنه قد خدع مونيكا .

« أوسايي ، أرجوكِ ، أرجوكِ ، لاتتحركي » .

لكن أوسايي كانت قلقة هذه العشية ، تخفض رأسها لتتملّى الذوائب الحرير لثيابٍ ابتدعت خصيصاً لخادمة أو بالووايي . « أوسايي ، أرجوكِ ،

أرجوكِ ، » ، لكنه وجد حماسته ضئيلة ، لهذا جعلها تترك المكان . لكنها لم تغادر المحترف على الفور ، وإنما ظلت تتجول بين حوامل اللوحات ، وعيناها ملتصقتان بكل أثر ، كأنها تتفحص كل شيء بدقة وإنعام . انفتح الباب ببطء ، ودخل جو غولدر .

« رأيت سيارتك في الخارج » .

« أدخل » .

« ألست تعمل ؟ أنا منهك من تمارين كونسرت العطلة . أنت ماتزال هنا ؟ » .

« لن أذهب إلى أي مكان » .

« لم يعد هذا المكان صحياً ثانية ؟ ذهب الطلبة كلهم ، وخلت الديار » .

« إنها أكثر سلاماً » .

« وحين يغادر الموظفون سيكون الشفاء كاملاً » .

« أظن هذا » .

« مابك ؟ لست منتبهاً في الحقيقة » .

« أنا ، استمر » .

« اعتقد أن جامعات ذات سكنى مثل هذه ، أوجدتْ للأشهر القليلة من السنة حين تكون فارغة تماماً . آنذاك تستحق الاقامة فيها . هذه مفارقة أكاديمية لطيفة بالنسبة لك » .

« نعم » .

خفض صوته « أمرٌ حسنٌ لي أن يفرغ الحرم الجامعي . إغراء أقل . ياإلهي ، ان وقت الدراسة يعني لي الجحيم . الجحيم! » .

كان كولا متسامحاً ، لم يكن في مزاج مناسب للتعامل مع نوبات كآبة جو غولدر الموسمية ، ومقت الذات ، وانحطاط الجسد . ذلك لأنه عرف الفترات المختلفة لمرضه .

جو غولدر ، الجالس كي يرسم ، انهار فجأة ، وشرع ينتحب ، بلا حياء ،

ولاحدود . قال لكولا مرةً ، يجب أن ترسمني مثل تلك الآلهة الهندية : خنثى .
ضحك كولا وقال ، سوف تستغرب إذا عرفتَ أن لنا قلة من الآلهة كهذه . في منطقة تكون مذكرة ، وفي منطقة أخرى مؤنثة . لكن هزّ رأسه ـ لا ، ان هناك دقة أكثر في آلهتكم ، كأنهم حزموا أمرهم منذ التكوين . أما التشوش الباقي فهو في أذهان أصحاب التواريخ فقط .
كما أن منحوتاتك عن الآلهة قوية ، ذكوريّة . حتى في الآلهة الإناث . الآلهة الهندية ، عضوياً ، خنثى ، لا ذكر ولاانثى . وبوجهٍ مشوّه في قسوة متناهية ، وفي عذابٍ حاول كولا ، عبثاً ، أن ينقله على اللوحة ، في غضبٍ وكرهٍ عميقٍ للنفس ، كان جو غولدر يعوِل ، فجأةً ، الهي! إنهم يحتقرونني .
متداعياً على مقعد ، مثل روحٍ مشوّهة ، أخذ جوغولدر ينعي حياته .
عرف جو عذاب نهايات الحديث في صفوفه الدراسية ، باتجاه توقه ، في محاولة ايجاد أتباع ، متحدثاً حديثاً عابراً عن تقرير وولفندن ، ومراقباً ، بعين الصقر ، ردود الأفعال . كما أن لديه كتاباً عن الرسوم الهندية . وعندما يدعو طلبةً إلى شاي ، يريهم هذا الكتاب ، ويراقب وجوههم وهي تسأل حائرةً : أهذا ذكر أم انثى ؟ اعارهم كتابه حياة نيجنسكي . كان ثمت فيض من الأفلام الهندية في دور السينما ، وكان جوغولدر الذي يلعن التقليد الرخيص لهوليوود ، يعرض على الطلبة اصطحابه إياهم إلى تلك الدور .
بعض الطلبة كان يقول دائماً « إن لديهم أبطالاً بمنتهى الجمال ؟ » .
وكان جو غولدر يسأل « أتظن ذلك ؟ أتحب ذلك النمط من الجمال ؟ » .
« بالتأكيد . أفعل أي شيء بُغية أن أكون جميلاً هكذا » .
« لكن ، ألا تعتقد انه مستأنث جداً ، كأنه امرأة ؟ » .
« بالطبع ، انه جميل جداً » .
كان جو غولدر يقول « أحياناً أتساءل ، هل الرجال يتبعون الآلهة ، أم أن الآلهة تتبع الرجال . على أي حال ، المسألة جيدة بالنسبة للآلهة . لكنك ستُهاجَمُ إن بدوت هكذا ـ من الرجال ، أقصدُ » .

« تعني ، انهم قد يرونني امرأة ؟ » .

« نعم ولا . بعض الناس لايرى فرقاً » .

« أي مجانين أولئك ؟ » .

جو غولدر ، المتكدر دائماً ، من أن التوق إلى الجمال أو « الأناقة » كان فقط انحرافاً طالبياً استتيكياً ، أخذ يطوف الكلية ليلاً ، يطوف النوادي الليلية ، حيث يخطىء تقدير العجيزة المتمايلة أو سروال الجينز الضيق لشقيٍّ ما ، والذبول المدروس لجفنيه ، وتصفيف شعره فيتلقى ضرباً مبرحاً من الشقيّ الذي اهين اخلاقياً ، بدون أن يجرؤ على طلب مساعدة الشرطة .

وقد ابتزه خادمه الصبي يوماً ، بحيث هُرع إلى محامٍ نصحه بأن يهمل التهديدات ، واستطاع أن يجعل الصبيَّ صاحبَ الابتزاز يهرب الى بلدته ، حيث يجد الأمان .

جو غولدر يدعوهم إلى شرب الشيري وتمارين الغناء ، مع مسح ركبة غيرمقصود ، ومقصود ، متوسلاً مبادلةً بالمثل .

وجو غولدر يلوذ بقاعة المراجع في المكتبة ، حين يشتدّ به التوق ، ويخشى نتائج المساعي الخائنة . هناك سيراقبهم ويحتقرهم . يقول ، ديدان ، ديدان فقط . انهم يملأون أدمغتهم بالمعرفة ليمخضوها خارجاً . لكنهم لا يتغيرون في المسار ، انهم كالجوف الواحد للصرصار ، يمزجون المعرفة باللعاب ، ثم يبصقونها للممتحن . إنه يحتقرهم ، لكنه لايحتقر أجسادهم ، لهذا يقف في قاعة المراجع ويراقبهم يدخلون ، يراقب انعكاساتهم على الأرضية اللامعة ، ويُدهشَ لجمالهم ، تاركاً لهذا الجمال أن يسيطر عليه ، وفي الإشباع فقط يجد جو الأمان ، وأحيانا مايقرب من البرء . من تلك الأرضية تنهض شهوانيتهم ومَسْخَرتُهم ، أوهامُه ، وقَدَرُهُ أيضاً ، كأنما من كأس بلّور ، كما قال يوماً . كان يجد أمانه في الأعداد الكبيرة ، حيث تُغلّفُهُ حواسُه فلا يرى مخرجاً ، وتموت رغبته . جو غولدر وقف في المكتبة ناظراً إلى المجلدات الضخمة للأنسيكلوبيديا ، مراقباً السيقان في السراويل القصيرة ،

تائهاً في السواد ، حتى أحس بالمرض والصداع ، ثم استعاد بالتدريج وضعه .

جو غولدر ، الجالس ، قبيحاً ، على مقعد ، يعترف « أتتذكر المرة الأولى التي سألتك فيها عن شراب ؟ ذلك المساء حين... » .

كيف له أن ينسى ؟ حين دخل الشقة ، دُهش لرؤيته جو متمدداً على الأريكة ، عارياً ، ومنشفةٌ صغيرةٌ على قفاه ، متظاهراً بأنه يقرأ « غرفة جيوفاني » .

« الجو حاربشكل رهيب ، أليس كذلك ؟ ماالساعة ؟ كنت أوشك أن آخذ حمّاماً » .

لكن كولا كان رأى جو ، وهو يأتي إلى المبنى ، وكان جو يرتدي كامل ملابسه ، واقفاً في الشرفة . حين دخل كولا ، نهض ، وترك المنشفة تسقط نهائياً ، وانتصب في عري غير مختون . ذهب كولا إلى المدفأة ،وقال « لم اعرفْ أن في هذه الشقق مدافىء » . حاول جوغولدر محاولات أخرى ، أقلع من بعدها ، فاستطاعا أن يكونا صديقين . ومن بين كل موديلاته ، كان جو ، الوحيد الذي يَمْثُلُ عارياً بالكامل . كان له جسم مشدودٌ ، جميلٌ بالفعل . قال « هاانتذا ترى أن جسدي زنجي تماماً . وكان ضلالاً أن أغدو ذا بياضٍ غالبٍ » . ثم وثب فجأة ، وجرى كي يرى الضربات الأولى للفرشاة . « اجعلني أسود ، بحق الاله ، اجعلني الأشد سواداً في سوادك بالبانثيون » .

كان غولدر يقول « ماجئتُ أسأل عنه ، في الواقع ، هو عمل سيكوني . أنت تعرف أنني أريد المصارع » .

« سأقيم معرضاً لأعماله وشيكاً . أحدهم سيأتي من لاغوس ليساعدني في تقديرها ـ كل الأموال ستذهب لزوجته » .

« أكان متزوجاً ؟ » .

« نعم ، ومنذ وقت طويل ، في الحق » .

« أطفال ؟ » .

« واحد » .

«لم أحزر» .

«إن كان ممكناً ، فسأجعل المعرض متزامناً مع حفلتك الموسيقية . بل ان بإمكاننا أن نقيمه في بهو المسرح» .

ابتهج جو غولدر للفكرة .

«سأثبّت على المُصارع عبارة (بيعتْ) ، لكنك لن تأخذها إلا بعد انتهاء العرض» .

«تناسبني . شكراً ، يا كولا . وعظيمةٌ هي فكرتك عن استخدام المسرح ـ عظيمة ، ببساطة» .

انفتح الباب ثانية ، ودخل بانديلي ، وهو يرمق كولا بنظرةٍ جعلته في منتهى الحذر ، بل العداء . «إن كنت جئت لتبدأ...» .

رفع بانديلي كتابه «جئت فقط لأستريح قليلاً . لقد عرفت سيمي أن إجبو في البلدة . كانت تنتظر في شقتي ، حين عدنا» .

أطلق كولا صفرةً طويلةً رفيعةً «أتراها تعرف عن الفتاة الأخرى ؟» «لم أنتظر لأعرف» .

١٥

السُلطة... ووجد كولا نفسه يفكر بما كان اجبو قاله . حين يقول اجبو ، فإن الأمر يبدو مثل الخبرة تقريباً ، وقد أحس كولا من هذه النقطة وحدها إن لم يكن من نقاط سواها ، ان دوره ودور اجبو يجب ان يتبدلا إلى عكسهما . بتشنج ، بتشنج عصي على التحقق المحدد للمعنى ، شعر بإحساس السلطة هذا ، بمعرفة السلطة بين يديه ، بإرادة التحول ؛ وفهم آنذاك أن الواسطة ذات أهمية قليلة ، وأن الفعل ، على لوحة الخيش ، أو المادة البشرية ، هو عملية الحياة ، مما أوصله الى الخوف المتوتر من التحقيق . وكانت هذه مفارقة اخرى ، ألاّ يجرؤ ، فعلاً ، على التحقيق . في متناول يده الكابح الخفيّ الذي ردّه عن عملية النقل النهائي في الفعل . كان مفهوماً ان يتطوع اجبو معه في العودة الى نوح ، ذلك لأن إجبو لم يتردد في ملاحقة المراوغ ، ولم يطمح الى التحديد حتى في مناقشاتهما الكثيرة عديمة الجدوى . والواقع أن إجبو في صراعه مع العالم ، قادته تجربته الى موافقاته المعلنة ، ولم يَصُغْ من قبلُ شيئاً . وسيكوني ، ثمت سيكوني أيضاً ، وقد تفجّر فجأة بحقيقة السلطة هذه . لكن كولا ارتدّ بذهنه ، وعرف أن المسألة ليست مفاجئة الى هذا الحد . إذ كيف يمكن أن تكون الحقيقة الغنية الفعلية أكثر أهمية من الكشف في قوة الإنسان الحية ؟ المصارع تعرف عليه مؤخراً ، وعرف أن هويته الجسدية جاءت من عراك طال نسيانه في نادي مايومي ، عراكٍ بدأه إجبو بلا شك . كان إجبو

سريع الانكسار حقاً تلك الليلة . لقد أثارت بعض الأفكار المسارب الأكثر عتمة في مزاجه ، فتحول ، بالطبع ، ثعلباً في الخرافة - أنتَ عكّرتَ مائي - لا ؟ حسناً ، إن لم تكن أنت ، فهو أبوك - كل نأمة كانت في خدمته ، غامزاً ، لامزاً نغّارَ الأفكار ،في عنفٍ مباغتٍ هياً نادلُ الحجة ، حين تفوه بتعليقاتٍ واضحة ، ذلك لأن الكراسي كانت منضّدَةً ، فوق بعضها ، والزبائن غادروا ، وظلت طاولتهم وحدها مشغولة ، صامتة ، منعزلة ، والنادلون كانوا متلهفين على المغادرة والنوم . لكنهم ظلوا جالسين ، لا يشربون ولايتحركون ، ولايتكلمون أيضاً . لم يعرف أحد كيف بدأ العراك ، لكن الوقح مرَّ قريباً من أجبو ، وفي لحظةٍ تحولَ الليلُ إلى فوضى .

جلس بانديلي غير معنيٍّ ، حتى جاء البوابُ ، وهو رجلٌ متينٌ ثقيلٌ يرتدي الجينز ، وسقط عليه ، فيما يشبه المصادفة . انقذف بانديلي الى وراء في عمود من الكراسي المنضّدة التي سقطت عليه ودفنته بحيث لم يعد يراه أحد . سار الشقي - وكان اسمه أوكونجي - مختالاً ، بينما كان كولا يبعده عنه بقنينة يحملها ، متمنياً أن يصل رجال الشرطة ويتحملوا عبء حماية الذات من أيديهم . لكن أوكونجي سقط فجاةً . بدون تحذير ، ولاسبب مباشر ، سقط أوكونجي . آنذاك رأوا انشوطتين من حبال القنب كانتا داخل ركام قوائم الكراسي ، وقد أمسكتا أو كونجي من ساقيه وأخذتا تضغطان عليه . احدى النهايتين امتدت تحت ذراع الشقي وحول حلقومه ، عبر ظهره . واحدةٌ أمسكتْ بالرجل من ركبته ومفصل الفخذ ، ضاغطةً إلفخذ على الصدر .

كان ، وهو الضخم مثل جثة منطوية لأحد الماوري ، يطلق صرخات حادة مثل خنزير يُسحبُ إلى المسلخ . حتى إجبو وهو في إندفاعاته الثانية استوقفه المشهد .

لم يكن ثمت ما يشير إلى بانديلي ، لذا ظل الرجل كأنه مقيّدٌ بنفسه . بسهولة أمكن سحب أوكونجي على عجيزته نحو كومة الكراسي فانزلق مثل كلب قذر حتى بلغ طرف الكومة . وسرعان ما اختفت العروق النافرة تحت

بشرة مسترخيةٍ لم تعد متوترة... ودار سيكوني حول الشقي الحبيس ، وقد باغتته النتيجة . تتبعت عيناه الذراعين ، وخطوط الارتخاء والتوتر ، بينما كان كولا وإجبو يفككان نعش الحديد المطروق . سيكوني في درجات دوّارة من التكذيب ، والإثارة ، والعطف ، والفهم ، أدخلَ نفسَه في حالة ذهول مريح . جرى العراك قبل المصارع بعدة سنوات ، قبل أن يتركوا جميعاً البلاد ، ويتفرقوا على وجه العالم الغربي ، وكان كولا يتذكر الآن كيف أن توتر النحّات كان أليفاً غريباً في آن... لكن سيكوني ادّخر معرفته في داخله حتى انفجرت قوّتها بنفسها ، في عملٍ يبدو بعيداً عن الألم والتقوى . مُبهِماً حتى هويته الخاصة . هكذا ، ربما لنفسه ، وإذا لم يخذله هذا الحدث الأخير ، واكتملت اللوحة ، فإن كولا سيعلقها في معرض سيكوني... «أوِلو عدنا أحياء» وهو يجهر عالياً بما كان يملأ رأس إجبو .

ذلك لإنهم كانوا ضائعين . بدأ المطر مبكراً بعد الظهر ، جارفاً كل علامة ، ومُغرِقاً الأكواخ ودكّات السوق الصغيرة . في المرتبعات حول البحيرة ، ارتفع الماء سريعاً وشطب المزروعات عن النظر ، وأفسد مختزنات الماء النقي العالية ، حتى تلك الموضوعة على رفوف عالية بين الرمّائين . كِسَرُ خزف نافرة مطلية بالسخام وموحلة من الداخل بخليط متحجر من الزيت والقطع النقدية وطيور النذر كأن البحر الغيور انفجر من أحشاء الأرض جارفاً كل القرابين المقدمة إلى آلهةٍ دُنيا وقصبٍ منتقى لحصير النوم... تركوا السيارة عند جسرٍ ذي ألواحٍ مقفقفة ـ الجسور كلها تبدو سواء ـ مؤقتة غير مأمونة ، أربعة ألواح ممتدة عبر شبه قنوات من فيض البحيرة . معزى ميتة ، متضخمة ، محشورة عند زاوية من الألواح ، وثمت كلبان يحاولان سحبها بدون أن يبللا خطميهما . ثبّتا أنفيهما إزاء نتانتها ومضيا قُدُماً .

غمغم كولا «وهكذا انتهى عهد نوح باعتباره قديس نور الشمس» .

«لم نمرَّ بمثل هذا الماء الغزير ، يا كولا . لن يمكننا الاقتراب من المكان» .

«نعم . نحن بعيدان جداً» .

«لنعد . لست مع البحث عن هذا الكنز المائي» .

«بإمكاننا أن نفترق . أنت سر في ذلك الاتجاه ، وأنا آخذ هذا . فإن وجد أحدنا الطريق عاد ، وانتظر هنا» .

«ليس فقط الإنتظار عليه أن يصيح . فالصوت يُسمع جيداً فوق الماء» .

«حسناً . لنقل إننا سنبحث في البداية . لمدة ثلاثين دقيقة» .

«قدمي ، في البداية . بعد ثلاثين دقيقة نعود إلى بيوتنا» .

مجرى ثقيل من الأشياء الغارقة ، سيقان ذرة متأخرة تسحب رؤوسها على الحضن النحاسي للمياه الفائضة . الأرض ، تحت ، كانت غادرة ، سحب إجبو عوداً وشرع يسبر الماء وهو يتقدم ، مقتلعاً كل قدم بضيق متزايد من الأرض القابعة أسفل بُريكاتٍ ضحلة كلها خطرة . كان من المستحيل تفاديها كلها ، وحتى الأرض المكشوفة كانت مُعيقةً طوال الطريق ، أصرّ إجبو «لا أستطيع تصديق أن سياراتنا مرّت بهذا الطريق» .

بدا ممكناً الآن أن تزلّ القدم ، وتخطئ تقدير الأرض ، فيختفي المرء في فجوة ما إلى الأبد . تحت السقف الرمادي الثقيل ، أخذ إجبو يتساءل كم ترى الماء ارتفع فوق كنيسة العازر . وتذكّر الآن أن الكنيسة أقيمت على نَشَزٍ متطامنٍ من الأرض ، لكن السيول بدت طَموحاً بما يكفي للكنيسة الرئيسة ، حتى للمذبح المرتفع بضع درجات عن الصحن . نصفُ مشحوفٍ يتبادل الطمي والماء المتحدر ذكره بصوت عامل الهاتف في مكتب ساجو ، هذا الصوت الذي دفعه الى الجنون ـ وكان يتساءل عمّا عرفه ، وعمّا رآه ، فقد عرف الإنسانية غائرة في حلقه ، مثل الماء الآسن ، متعفناً في حفرة . غالباً ما راقب ساجو يتمايل من أوتار الكعب ، وهو يحنّ إلى صحبة الأجانب ، حيث بمقدوره أن يستاف ويطلق عواطف مثل غريب... ساجو ، ساجو... لكن ، ألم يكونا كلاهما في قبضة قوة طاردة مركزية خلال وجع التجريدات المذهبة ، المكتظة بالذباب ، واصلين إلى مقشة مديدة الزمن كي يبعدا لذعات الفكر الكامنة في كل لدغة...

ليس ممكناً أن يكون هذا الصمت الرمادي البطيء جزءاً من بحر الصباح ، بحر الحصى البنيّ والمويجات المرتطمة بالشاطئ ، فالآن رأى إجبو ، الصليب وكأنما عَلِقَ إبطُه بغصن ، رفع الصليبُ ، وقاعدته ملتصقة بالوحل في أسفل ، رأسَهُ فوق الماء ، مشيراً إلى إجبو . نظر إجبو حواليه ، لكنه لم ير الكنيسة . كان الظلام حلّ ، لكنه أدرك الآن أن الكنيسة لا يمكن أن تكون بعيدة عنه . توازنَ بصورة خطرة على الشجرة ، وحدّق في البعيد . ليس بمقدوره التأكد ، لكن بدا له أنه يستطيع تمييز ملامح الكنيسة وسط العتمة المستقرة . مضى إجبو قُدُماً ، مغموراً تماماً بالظلام .

إجبو ـ و ـ و ـ و ـ و ـ و ـ إجبو ـ و ـ و ـ و ـ و ـ و . كان الصوت بعيداً جداً ، يثب ، ذبابةَ قصبٍ صائتةً ، من سطح ماء الى سطح ماءٍ بدون أن يثير أدنى حركة . كان يبدو جدّ بعيدٍ ومتناءٍ ، كأن عمته تناديه من الشاطئ بمواجهة بحر متلاطم الموج يهدر في أذنيه ويصمُّهما .

إجبو ـ و ـ و ـ و ـ و إجبو ـ و ـ و ـ و ـ و ـ و .

ذلك لأنها كانت لمحتَهُ وهو طفل ، كانت اندفاعاته المستثارة الأولى كي يغسل قدميه بماء البحر ، وقد نجح في الإفلات من حذر عمته الجنوني التي تمددت مرهَقةً تحت القمر ، وأغمضت عينيها طويلاً ، أطولَ برهةٍ . وفكّر... غريبٌ أن تطير في الهواء بحرية ، وتخشى البحر بهذا الرعب . «فقط اجلس قربي ، ودع الهدّاب الأبيض يأتي ويلعق قدميك ، انتظر هنا ، بالضبط ، وسوف يأتيك الماء » لكن ركض بعيداً جداً عن المرأة النائمة... «النجدة! النجدة! إجبو ، عُدْ ، إجبو ـ و ـ و ـ و ـ و ـ و» لكنه أراد أن يمسك نبضتين كاملتين من البحر ، وأن يدع الماء يبلغ ركبتيه ، لا أصابع قدميه فقط . وحين تراجع الماء ، وثبت المرأة ، وقذفته ضربتُها في الخطر الذي أرادت أن تحميه منه .

وحين عاد إلى حيث كانت عباءتها منشورة قال «هل ستظهر ، أُمّنا ـ الماءُ ، الآن ؟ » «أغلق فمك وتعال » .

إجبو ـ و ـ و ـ و ـ و ـ و... جاءت واثبةً على وجه الماء حيث وقف كولا! منذ وقت طويل مضى نصفُ الساعة المتفق عليه ، وسيكون كولا قلقاً . توقّفَ . وكان ضاق ذرعاً بالبحث الخائب...

فجأة ، رأى اللهيب . ممّا كان حتى قبل لحظةٍ ظلاماً مطبقاً ، تصاعدت ألسنةُ لهيب ترمي انعكاسات خفّاقة على الكنيسة التي تشبه مطحنة ذرة . في قوسٍ يؤطر مشحوفاً مستقراً بين خطّي لهيب ، على ماءٍ يرقص مع النيران في داخله رقصة جنون ، لكنه ينبض لطيفاً على السطح .

ألسنةُ اللهب ـ المجنون مع الغامض ، كان إجبو يبحث عن حل ـ لم تكن أعلى من الضلوع ، وكانت تمتد مسافة مائة ياردة على الشاطئ . وفي الضوء المتقد رأى إجبو ، بوضوح ، أعواد الصيادين منغرزة في قاع البحر ، فخاخَ سمكٍ ضيقة تعزلها عن جسم البحر ضفة من الطمي . على امتداد هذا المسرب الطويل ، وعلى مجرد إصبع من الماء ، تعالت ألسنة اللهب ، ولم يكن ثمت شك في هذا ، فالألسنة تتصاعد من سطح البركة .

تبدُّلٌ في اتجاه الريح يحمل معه رائحة النفط اللاذعة ، ومرأى برميلٍ مائل ، جاءا بخبر البقية . لا إنسان يُرى . لكنه تبيّنَ الآن شخصين ينتظران في الطرف الآخر من الفخ ، هما العازر ونوح .

لم تكد ألسنة اللهب تتصاعد حتى تحرك المشحوف إلى أمام ، متقدماً برشاقة في الممر المائي . ولم يبذل المجذّفان سوى ضربات قليلة سريعة حتى بلغا النهاية حيث كان العازر ونوح ينتظران . قفز العازر في المشحوف ، ووازن نفسه ، ثم مد يده الى نوح . حدّق اجبو بقوة في التفاصيل ، وبدا أن الأردان البيض للمجذّفينِ قد استحالت سوداء محترقة في الرحلة إلى الداخل . كان العرق يتصبب على وجهيهما ، وظلا في انتظارهما الذي طال بالتأكيد ، ثابتين وسط المقعد الخلفي .

ازداد ضيقهما من الحرارة ، لأن نوحاً لم يتحرك . مدّ العازر يده ثم سحبها فوراً لأن اللهب امتد الى كُمه . لكن نوحاً وقف ذاهلاً ، غير قادرٍ على

تحويل عينيه عن النار . انتظر العازر ، ولم يجرؤ المجذّفان على النظر الى الشاطئ ، وإنما انتظرا مبادرةً من العازر . لم تصدر كلمة . ثمت انتظار فقط ، حتى يجد نوح الدجال شجاعته ، أو تلين القصبة الشاحبة المنتصبة في المشحوف المؤطر بالنار ، فتبحر وحيدة في الممر الناري .

لم ينظر نوح في عيني العازر . وكان هذا واضحاً ، إذ انتظر العازر اللحظة التي يمكن أن يقوم فيها بهذا العمل . طال الانتظار حقاً ، وأخذ القار يسيل برطوبة خطرة على جوانب المشحوف . خلف العازر كان البحر المنكشف يتلاشى في الظلام ، بُركاً معتمة في الاتساع ، عيونَ أولكون الجسّاسة . هل سيظل المشحوف هناك ، قرباناً محترقاً للإله في منتصف الليل ؟

وما زال نوح عاجزاً ، لا يحوّل عينيه عن اللهب . ثمت طقطقة خشب ، ونظر المجذّفان ، بدون توسل ، لكنهما نظرا الى العازر كأنهما يقولان إنهما لا يطيقان أن ينتظرا أكثر الآن ، بكل تأكيد . طقطقةٌ أخرى ، وكأن شيئاً أفلت في داخل نوح . استدار وشرع يركض . ركض باتجاه إجبو ، حتى حين أخذ اللهب ينطفىء ، والمشحوف الذائب تماماً في الجوانب أصدر أصواتاً أضعف ، وخطُّ المتفرجين اندفع الى أمام ، واستخدم عموداً لسحب العازر نحو الشاطىء . ظل نوح يركض على غير هدى ، بينما وقف العازر ، غير منتبه لرسو المشحوف ، وراقب الحواريون شخص نوح المبتعد ، وهو يتعثر في وحل كثيف ، متورطاً في شباكٍ خفيّة . سمع إجبو خشخشة سراطين الليل ، وهي تحت قدمي نوح العاريتين ، بينما كان يلتفت إلى وراء خشبة المطاردة .

أخذ اللهب ينطفىء بطيئاً ، ملقياً ظل العازر الطويل على كنيسته .

وقف طويلاً بينما كان حواريّوه ينتظرون . ثم تحرك نحو اليابسة ، وابتلعته الكنيسة ، وحيداً مع العبء الثقيل لهزيمته .

استغرب إجبو من عدم شعوره بأي عطف إزاء العازر ، لكنه كان فرحاً لأن حضوره لم يكن معروفاً لدى الأمهق . وحين سار ، راجعاً ، بالاتجاه الذي سلكه نوح ، بدا له أن واجبه هو ألاّ يبوح بسر هزيمة هذا الرجل .

١٦

وعن سيول البدء هذه ، عن أبخرة البدء المحمومة ، عن الرسول الأول ، عن حفنة التراب ، طير وكوز ذُرة ، يبحثان عن بقعة يكون فيها الخدش جزيرةً مأهولة ، عن الدجّال الأول يدحرج الصخرة الضخمة على ظهر الاله المطمئن ـ ذلك لأنهم يجب أن يتعلموا الطعنة الأولى في الظهر ويُبقوا الأذنين لا يؤذون في مدى البصر ـ فتمزّق الاله أشلاءً ، ثم تُضَمُّ الأشلاء إلى بعضها بالاخلاص ، درع سلحفاة حول نَفَسٍ إلهيّ ، عن عاشق الطهر ، ذلك الذي لم يلحقه وضَرٌ ، والذي اتسعت رحمته لتعانق العجزةَ والبُكمَ والأقزامَ والمصروعين ـ ولم لا ، حقاً ، فهم كانوا مخلوقات يده السكرى ، وماذا ينفع التفكير الأبدي للتفضيل والتقشف ؟ عن عاشق الدم ، الذي لا يُقهر في المعركة ، الذي لا يشبع من الحب والمذابح ، المكتشف ، كشّاف الممر ، حامي الكير واليدين الخالقتين ، صاحب القَرعة التي دفعه مرآها القرمزي الغائم الى مبتغاه فذبحهم جميعاً حتى اخترقت صيحتهم المريرة ضباب خمره ، وأوقفت يده وعلّقت سيفه ، أحمق مثل فكةَ المتهدل ، عن ذلك الذي تعلّق ولم يتعلّقِ ، الذي صعد على لانا إلى أبواب السماء وقهر البرقَ ذا لسان الأفعى وصخرةَ الوهج ، الأذرعة الطويلة للمقذاف الالهي تلعب عشوائياً لعبة أطفال ، تقتلع البيوت الأشجار الأطفال مثل منجةٍ غير ناضجة ، عن الذكر ـ الأنثى الذي شطر نفسه في النهر ، عن تبدد الضباب ، وتراجُعِ البدء ، والحرب الأبدية للعيون الالهية ،

عن العيون المائة والواحدة التي ترى من كل صوب ، عن الحرب الأبدية للقدَر ذي رأس المنجل الطويل ، عن ذلك الذي ظل يرعى الثمار الأولى لزنجبيل الأرض ، وحوله ممرات الريح والحرارة والمطر وآثار الفصول التي نزعت إهابها...

قال كولا « تستلزم فقط الجسر ، أو السلّم بين السماء والأرض . حبلاً أو بسلسلة . الصلة ، هذا كل ما في الأمر . بعد خمسة عشر شهراً ، لم يتبقَ إلا الصلة... » قاطعه إجبو « في اللحظة التي تنطق فيها (تو) ستغور سكيني في رقبة الكبش . (تو) ، ثم يبلغ الدم النافر سقفَ المحترَف » .

قالت سيمي : « آمل في انك أحببتها » .

سأل إجبو « أتعلمين أي شيء أتت به أولاً ؟ كبشاً أبيض . كبشاً أبيض إن شئت » .

« حسناً . قلت... كبشاً لا شائبة فيه » .

« السبب في أنه يجب أن يكون أسود ، هو أن الكبش الأبيض لا يمكن أن يكون بلا شائبة ، لا يمكن حقاً... أليس صحيحاً ؟ » .

« كان جو غولدر سيلقي عليك محاضرة لو كان الكبش أبيض . عقدة نقص اللون ، لقد سمّاها هكذا » .

« من هو جوغولدر ؟ » .

« ألم تلتقِ به ؟ تعال... ألم تحضر حفلته الموسيقية آنذاك ؟ » .

« نعم ، لم أحضرها . في ذلك الوقت لم تأتِ ، العاهرة الخائنة » .

« كانت غلطتك . الرسالةُ التي بعثتَها كانت تقول إنك ستجيء إلي بيتي » .

« لا . قلت إنك ستلقاني في منزل بانديلي » .

« أخبرتُكَ... قال الولد... » .

« أتريدان أن تبدأا هذا كله من جديد ؟ وأنا لم أشكرك على الكبش ، يا سيمي » .

«عليك أن تشكرني أنا ، لا هي ، فأنا طلبت منها أن تشتريه» .

«من دفع ؟» .

«ليست هذه هي القضية» .

«إنها كذلك ، بقدر ما يخصني الأمر» .

دخلت مونيكا ، وتوقفت حين رأت سيمي . قدّمهما إجبو ، وكانت مونيكا ممتلئةً إعجاباً «طبعاً . أنت السيدة الجميلة ، لكنْ... شيءٌ لا يُصدَّق» شرح كولا الأمر «هي مقتنعة بأني قد ألّهتُها في الرسم» .

«أجل ، ظننت أنه... كم خشنةٌ أنا لأظل أنظر هكذا ، لكنها جميلة فعلاً . ولا أظن إلهتك حين تتجسد ستكون أجمل . بصراحة ، يا كولا ، لقد رأيتُها الآن . إن رسمك قد ظلمها» .

نهض إجبو «لحظة واحدة . ظننت المفترض ألا يرى أيٌّ منها اللوحة حتى تكتمل نهائياً» .

طارت يد مونيكا إلى فمها ، واطلقت صيحة صغيرة ، وهي محمرّة خجلاً . ولوّح كولا بيديه تلويحاً لطيفاً «كانت حادثة...» .

«أنا متأكد انها كانت حادثة . استمر» .

«لا يهم ، فهي لم تجلس لأرسمها . لم يكن بالإمكان أن تكون... حسناً ، أنت سمعتَ ما كانت تهتف به منذ وصلتْ ، كأني طلبت من سيمي أن تأتي هنا ، وتجلس لنفسها . افترضْ إنكم جميعاً لجأتم إلى الشكوى من أني صنعتُ منكم شيئاً أنتم لا... أعني ، القضية كلها إنكم تستبدلون...» .

«أكيد . أكيد . نحن نفهم . ألسنا نفهم يا سيمي ؟» .

«حسناً . كانت حادثة كما قالت . فقط كانت المسألة لا تهمها... كما ترى» .

«أرجوك . لا تشرح . نحن نفهم» . واختطف إجبو بسرعة انبوب لون ، بينما كانت سيمي تبتسم داخل شبكة لغزها المطمئنة .

«تعالي ، يا سيمي ، بعضهم ينتظر خمسة عشر شهراً ليرى عملاً

كبيراً ، بينما يقتحمه آخرون في أسبوع » .

« الكبش في الخارج ، على طريق منصرَفَكَ » .

« أكيد . أكيد . نحن نعرف أن لا أحد يحتاجنا » .

قالت مونيكا « أنت لا تشتغل . كانوا وحدهم منذ وقت » .

« لا . أنا مازلت أنتظر العازر » .

« العازر ؟ ظننتك سميتَهُ نوحاً » .

« لقد انتهيت من نوح . هذا المخلوق الذي بلا وجه هو نوح... تعالي... إنه الخادم الخائن الذي يدحرج الصخرة التي ستسحق سيده » .

« لكنك قلت... » .

« كان ذلك خطأً في الحكم . نوح باعتباره صلةً ؟ كان ينبغي أن أغرق نفسي بسبب غباوتي . كان هنا يجلس ، بينما أحاول أن أصوغ أيسومار حول حياديته . كنت غلطان بشكل سيء . غلطان بشكل فج . حين صارعته أربع ساعات بدون علامة بداية ، كان عليّ أن أتوقف ، عندها نظرت للمرة الأولى نظرة حقيقية إلى نوح . لو لم أكن مصاباً بشكٍّ زائد لكنت رأيتها للوهلة الأولى . كان نوح سلبياً ببساطة . كانت براءة وجهه خواءً غير مكتشفٍ ـ لم يكن لديه شيء ، لا شيء إطلاقاً . واحتقرتُ قلة إدراكي » .

« إذن ، من هو العازر ؟ » .

« سيد نوح . أمهق مهووس دينياً التقطه ساجو وسيأتي به هذه العشية . إنه من أنتظر » .

« ثم ؟ » .

« ثم ستكتمل اللوحة نهائياً . سأعمل فيها طوال الليل إن كان ذلك ضرورياً . أتدرين يا مونيكا ، لقد صرت متلهفاً تماماً على الخلاص منها . وبغضّ النظر عن معرض الغد ، فقد ضقت ذرعاً ، وصرت مريضاً ، وسئمت

حتى مرأى هذه اللوحة ، ثم... لا يهم... لا حاجة إلى هذا » .

« لماذا ؟ أخبرني » .

« لا . ليس هاماً . صدقيني . عليك أن تعرفي الآن اني لست فناناً حقاً . ولم أعتزم أن أكون . لكني أفهم طبيعة الفن ، وهكذا صرت أستاذ فن ممتازاً . هذا كل ما في الأمر . هذه اللوحة مثلاً اجبو هو الذي حرّضني عليها ، بدون فطنة طبعاً ، وكان ينبغي أن يجهد هو فيها ، لا أنا . لشيء واحد هو أنه أقرب إلى الموضوع ، أقرب تماماً ، كما تعلمين ، بالإضافة الى أنه عديم الرحمة بما فيه الكفاية . لكني قادر على التسجيل في الأقل ، إن صلاتي الحميمية بكل هذه الحضورات كانت جدّ خاطفة ، ومتقطعة ، ولهذا أمضيتُ وقتاً بهذا الطول... » .

« خمسة عشر شهراً ليست وقتاً طويلاً ، كما انك فعلت أشياء أخرى عديدة في المدة ذاتها » .

« لا شيء أفخر به . لا شيء يمكن أن أضعه الى جانب أعمال سيكوني ، حتى إذا تركنا المصارع خارجاً » .

« والبانثيون ؟ » .

« البانثيون ثقلٌ . يرهق الأحاسيس . يأتي بردود أفعال موضوعية . لكني أتحدث عن نفسي الآن ، وعن مسيرة حياة . حتى ساجو لديه نوع من الحاسة السابعة ، نمطٌ من الهوائيّ الخلاق يتبع به حرفته . أما أنا... أخبريني ، أيمكن أن يخطيء إجبو فيعتبر نوحاً أيسومار ؟ أيمكن ؟ مثل هذه الحوادث تقتل العفوية وتجعل الفنان متخبطاً . وأنا أسأت تناول طبيعة ارتداده... » .

وقفت مونيكا قربه ، وخطت ، مرتابة ، الخطوة الأولى ، أخيراً ، الخطوة التي ستلزمهما معاً ، ولمست بشعرها الأشقر الطويل رقبته « أليست المسألة ببساطة أن العمل كاد ينتهي ، وانك مليء بالشكوك إزاءه ؟ كولا... لكنها طبيعيةٌ رغبتُكَ في ألاّتؤمن بنفسك خشية ألا يفعل الآخرون ذلك » .

« لا ، ليس هكذا... » .

«وأنت خائف من العطف ، حتى من اللطف ، كأن هذا سيضعفك . لكنك ذو طبع لطيف ، إذن ، لماذا تنظر إلى إجبو كأنك تسيء فهمه ؟ » .

«أسيءُ فهمه ؟» .

«لستَ الوحيد . بانديلي أيضاً يعتقد أنكم جميعاً تعيشون حياة جاسية غير مبالية» .

سُمعَ صوت سيارة ، فقفزت مونيكا مبتعدة .

قال كولا «آمل في أنه ساجو ، أخيراً» .

أعلن صوتٌ من الباب «انه هو . العازر في الخارج . هل أُدخله ؟» .

«بالطبع» .

«شخصك الأخير حضر . لن أزعجك» واتجهت نحو الباب «ماذا سميتَهُ ؟» .

«ايسومار ، خيط القيء من الأفعى السماوية» .

وشرع كولا يعمل ، مثل شخص ممسوس ، بينما العازر جالس في سكون رزين ، بحيث اعتبره كولا أسهل جليسٍ عرفه . كان واضحاً أن في ذهنه شيئاً . نظر في أرجاء المحترف وفي عينيه سؤال ، لكنه سؤال اختار كولا أن يؤجله حتى يسجن الرجل في الوجود الذي صاغه وأعاد تشكيله كل يوم . كان العازر ساكناً مطيعاً ، واشتغل كولا بحماسة وفوران ، كأن العالم لن ينتظره أكثر . مرت ساعتان قبل أن يأخذ في الهدوء ، وتحرك العازر أيضاً على المقعد .

«أين نوح ؟» .

«يطوف بالكلية ، كما أتوقع . إنه يأتي ليأكل حين يجوع . الولد الخادم يعتني به» .

بدا كمن يستجمع أفكاره ثانيةً «فكرت ، في الأقل ، بمن يخلفني . احتجتُ واحداً من خارج الكنيسة . الحواريون مجرد بشر ، يغار أحدهم من الآخر . كنت أبحث عن شاب ، غير هيّاب ، شابٍ ذي نارٍ داخلية» .

« مثل الحواريين الاخرين ؟ » .

اعترف « نعم . مثل الاخرين . يجب أن يكون ثمت شيء لتهديه . الرجلُ المسالمُ يكون متردداً جيداً على الكنيسة ، لكنه ليس مسيحياً يُعتمد عليه ، مفعماً بنار الإخلاص . وكلما عرف المرء شراً أكثر استفدتُ منه قوةً أكثر . أنا أعرف هذه الأمور ، تعلمتُها ذاتياً بالتجربة والاكتشاف . الكنيسة تكريسي ، وأنا رجلٌ علّمتُ نفسي في كل شيء . أستطيع قراءة الكتاب المقدس باللغة اليونانية ، أتعرف ذلك ؟ باللغة اليونانية . لأنني عثرت على كتاب مقدس قديم باليونانية ، فتملكتني رغبة في أن أتعلم لغة اليونانيين ، معتقداً أنها والعبرية سواء . لم تكن هكذا . لكني في الأقل اكتسبت معرفة اللغة اليونانية » .

« قلة من الناس بمقدورها أن تفعل هذا » .

« ما يهمني حقاً ، هو أن أتعلم حساب الدين . القاتل هو شهيدك المقبل . إنه شهيدك الأكثر رغبة . قلة من الحمقى تعرف هذا » .

« أخبرني ، كيف هديتَ نوحاً ؟ » كان كولا نصف منتبه ، وقد هشّمَ رد فعل الأمهق تركيزه . كان يكاد يصرخ « هديتَ! أنا لم أهدِ شيئاً . ما تصارعه ، ما تقاتله وتهزمه ، تلك هي الهداية . أن تغير طبيعة لص حقيقي في أسبوع ، أسمعتَ بذلك ؟ أنا أصررتُ فقط لأنه كان وقت الفيضان ، وهو وقت صلواتنا الإحيائية . كنا نحتاج نوحاً . تلاميذي الحقيقيون هم اللصوص ، هم مرفوضو المجتمع . أحد الحواريين كان مزوِّراً قضى خمس سنوات في السجن . آخر كان الوحيد الذي نجا من القبض عليه حين اعتُقلت عصابته إثر عملية سطو على مصرف . ومع أن حاجتي كانت ملحة ، إلا أنني لم استطع أن أكسر القاعدة . كان عليّ أن أجد خاطئاً » .

« وهل ثمت قتلةٌ ؟ » تساءل كولا .

« واحد . ذبح زوجته في قرية قرب أوجيللي » .

قال بعد لحظات ، إثر استعادته هدوءه « يجب أن أحاول حتى لايعود نوح إلى المجرى » .

« ألديك خطط بصدده ؟ » .

« لا . باستطاعته الذهاب حيث يشاء ـ خارج لاغوس » .

وغدا منفعلاً ، ثانيةً « لا أريده في لاغوس . ليس صحيحاً أن يصادفه أحد أعضاء كنيستي ينشل الجيوب ، أو يتسكع في الأسواق » .

وحين استولت عليه الفكرة ، نهض العازر فجأة « قلتَ إنك لا تعرف أين هو ؟ أتركته يذهب حيث يشاء ؟ » .

« لا يمكن أن يكون بعيداً . اجلس ، أرجوك » .

« دعنا نذهب لنجده » .

« بضع دقائق فقط » .

« سنعود يا سيد كولا ، ينبغي ألاّ تسرع . ثم انني استسلمت الى قانون سكونك منذ جئتُ » .

« نوح بخير . إنه يلعب في الجوار » .

« يجب أن تتحلى بصبر أكثر . حتى الرجل الذي بيده الخلق يتحلى بالصبر » .

« أهكذا ؟ إن كنا نتحدث عن الشخص نفسه ، أفَلَمْ يخلق العالم في ستة أيام ؟ » .

« أرجوك ، دعنا نذهب لنجده الآن . أحسُّ بخطرٍ عليّ حين أفكر بالطريق التي أمامه منذ الآن » .

« حسناً... إن كنت تشعر أنك بحاجة إلى استراحة » .

« لا ، يا سيد كولا . ليست مسألة استراحة . لو التقى رجل نوحاً الآن ، وقال له تعال نسرق دجاجةً ، لتبعه » .

« لماذا يجب أن تقلق ؟ لو دخل في سجن فستنام قرير العين » .

اجبو ، الذي كان يوصل سيمي بالسيارة ، الى منزل بانديلي ، رأى نوحاً جالساً تحت شجرة منجةٍ ، وأوقف السيارة ، كان واقفاً بين غزاة الفاكهة

الآخرين الذين يقذفون عصيّاً على الثمرة الناضجة الوحيدة في غصنٍ أخضر الثمار . ناداه اجبو . لم يردّ نوح ، وأخذ يتساءل إن كان هو نوحاً نفسه .

لم يتبقَّ عليه ، من تجربة الأيام القليلة الماضية ، أي أثر . كان ينبغي لشيء ما ، لا يعرفه ، أن يذكِّره بمشهد النار ، لكن اجبو لم يجد أي ملمحٍ ، ولا دليلٍ على رعبه وفراره . لا شيء من الامتنان الذليل الذي قابل به عرض الركوب في السيارة ، ولا تلهفه المؤثر حين سأله كولا إن كان يريد الذهاب معه الى إيبادان . والطريقة التي تكوّم فيها ، في المقعد الخلفي ، بدون أن تصدر عنه أدنى نأمة ، حتى نزل اجبو من السيارة عند شقته ، وعاد كولا بغنيمته إلى إيبادان .

سألته سيمي « من هو ؟ » .

« دقيقة واحدة . لن أتأخر » .

سار ، وهو يطأ الفاكهة المتعفنة ، مع تطاير حشراتٍ سمينة في زرقة زجاج القناني . ربت على كتف نوح . فزع نوح ، ونظر إليه نظرة فارغة . تملاه اجبو ، فوجد النتيجة واحدة . لقد غسلت تجربة ممر النار ، أو أنها لم تحدث البتة . كان نوح نقياً من كل لحظة من ماضيه ، ما عدا هذه البرهة الجديدة من غزو المنجة .

قال اجبو « إنك لطاهرةٌ » .

« سيدي ؟ » .

« تعال معي » .

كانت لحظة فضول مفاجئة . ما عساها تكون المواجهة بين نوح والعازر بعد تلك الليلة ؟ وجد أنه كان يريد أن يكون حاضراً في اللقاء . جاء نوح معه سعيداً ، بالرغم من تأكد اجبو أن نوحاً لا يتذكره إطلاقاً . كان اجبو يفكر ، أن تطهر إنساناً ، أن تطهره تطهيراً حقيقياً ، فعليك أن تتركه مثل نوح ، ميتاً ، خائر القوى ، بدون أية شخصية مهما كانت ، ورقة بيضاء خالية لخربشاتٍ عابرة .

« أأنت هكذا ، دائماً ، يانوح ، أم أن هذا من عمل العازر ؟ » .

« سيدي ؟ » .

ضربته سيمي مداعبةً « لمَ تتكلم معه هكذا ، وهو لا يفهم ؟ » .

« في الواقع ، كنت أتكلم مع نفسي ، انني أرد صوتي على هذا العاكس النحاس الناعم... آه... انني لا استطيع حتى ان أسميه دجّالاً الآن . كنا مخطئين جميعاً ، مخطئين جميعاً بشكل مخجل . كولا أبعد الأجرام السماوية من بانثيونه ، وإلا لعرف نوحاً كما هو . ان ارتداد نوح ليس من النوع الارادي ، إنه ببساطة ، رفضٌ أن يكون ، رفضٌ أن يكون كائناً حياً ، مثل القمر » .

« بمَ تفكر ؟ »

« لا تهتمي . لو لم تكوني آكلة لحوم بشر ، فلربما سلكتِ الطريق نفسها » ثم قفز من السيارة ، قبل أن تمسكه سيمي . وتجهم وجهه فجأة ، ودخل يجرجر قدميه ، مجللاً بالعار ، متذكراً كيف أنه سمّى جدّه ، مرةً ، مرتدًا .

رأى اجبو حركة مستسرة في الزاوية ، خلف اللوحة تماماً ، ووقف يراقب .

أخيراً أطلّ وجه أبيض من خلف الحامل ، وخرج رجل ، يضحك بغباء .

« مرحبا » .

« من أنت ؟ » .

« آسف لأني أبدو مذنباً هكذا ، لكني انسللت هنا لأنظر إلى اللوحة . لم أستطع الانتظار لرؤية الطبعة الأخيرة » .

سار اجبو ببطء نحو الرجل ، وهو ما يزال يرمقه مرتاباً .

« يجب أن تكون واحداً من أصدقاء كولا . أنا جوغولدر » .

« آه ، المغني » .

« نعم . أتبحث عن كولا ؟ » .

« أين هو ؟ » .

« رأيتــه يخـرج مع رجل من لاغـوس . بمـقـدوري رؤيـة هذا المكـان من شقـتي ، ولهذا فكرت ، حين غادرا ، أن أنسلّ هنا وألقي نظرة . هل أخـبرك بالحقيقة ؟ إنني أفعلها دائماً ، ولكن لا تخبر كولا رجاء!» .

« أظنني سأستعير ورقة منك . يبدو أنني الوحيد الذي يملك إحساساً قوياً باحترام هذا الفنان » .

ضحك جوغولدر ، كان أشبه بالطفل في ابتهاجه بشريك مؤامرة « أعتقد أني أعرف أياً من الشخوص أنت . الواقع أني عرفتك رأساً . ما رأيك بالقطعة الأخيرة ؟ » .

حـوّل اجبو عـينيه عمـا أراد أن يراه بالفـعل ، وهو حـضوره في اللوحـة الطاغية . كان الجزء غير المكتمل شخصاً مقوساً نهض ، ليس من قبر يابس ، وإنما من تشوش قديم ذي أبخرة وسيول . انه مكلل بالضياء فقط ، قوس قزح طاهر .

كان العازر بُعد كولا الجديد للمُعاهد .

حرّك اجبو رأسه بلطف من جهة الى اخرى ، كمن يريد أن يصفيه .

أقرّ « أنا مشوش » .

« لماذا ؟ » .

« لا أستطيع قـبول وجهـة النظر هذه عن الحياة . لقد جعل البدء نفسه قيامةً . إنه وهمٌ متفائل عن الاستمرارية » .

« أعتقد أنه مجدٌ تماماً » .

« لم أقل شيئاً عن ذلك» .

« لصـديقي مـواهب مـتفـاوتة . أنظر الى مـا فعل بي مـثلاً ، مجنونٌ نكدٌ متعطش للدم من حديقة حيوان ما تخضع لحراسة مشددة . هل المفروض أنه أنا ؟ وحتى أوجون... » .

« ما الخطأ في هذا ؟ » .

« إنه تشـويه غـير ملهم ، هذا هو الخطأ فـيـه . تناول أسطورة واحـدة ،

أوجون في عربدته ، فاقداً حاسة التمييز ، ذابحاً رجاله إياهم في المعركة ، وقد جمّده في قمة المجزرة » .

« حسناً ، ينبغي أن تعترف له بحق الاختيار » .

« إنها إنتقائيته التي أختلف معها . حتى لحظة صحو أوجون المتأخرة يجب أن تكون... في الأقل تلك بدون إمكانات شعرية . هذا العفريت المتقطر دماً مجرد ميلودراميّ . ثم هناك أوجون الكير ، أوجون الصانع الأول ، لكنه يترك هذه كلها ليسجلني شقياً نكداً أعماه الدم! » .

« كان محقاً . قال دائماً إن الأمر سيكون هكذا لو تركك تقترب من اللوحة » .

« هذا ممتاز لك . أليس هذا رأسك المعتمر فولاذاً ، وأنت تؤدي مهمة لأرينلي ؟ » .

« أراها الأبعد عن التملق . لكن قد يكون الاله أسوأ . أنا أجد عزائي في هذا » .

أعلن اجبو « أنا منصرف ، وسآخذ كبشي معي » .

« أذلك الكبش الجميل لك ؟ » .

« أجل ، اشتُرِي لي ، لأؤرخ اكتمال الرسم ، ومعرض سيكوني ـ أوه ، نسيت أنه ليس فقط لمهرج اللوحات ذاك » .

« أتعني أنك سـ... تذبحه ؟ » .

« وماذا عساك تفعل بالأكباش ؟ تحلبها ؟ » .

ردّ جوغولدر بتعبير عصبي لمحه اجبو ، لكنه أساء فهمه .

« ألا تحب لحم الماعز ؟ » .

« لا . ليس ذاك . إنه الذبح . فكرة الدم تجعلني غريباً في داخلي » .

نظر اجبو إلى رأسه الجعد ، وجسمه القوي ، الملتزّ ، متوتر العضل ، ولم يصدّقْ .

« هذا حق . أنا لاأتحمل مرأى الدم » .

خرج اجبو وهو يهز رأسه ، وسأل سيمي « أين نوح ؟ » .

« خرج بعدك . ظننته تبعك داخل المحترَف » .

« إلى الجحيم... نوح . لنذهب » .

حركتها المفضلة حين يغضب اجبو هي مداعبة مؤخر عنقه « ماالذي أزعجك هناك ؟ » .

« ذلك الدهّان الكافر . كان عليك أن تري كيف صنعني وحشاً » .

« أوه . أرأيته ؟ وماذا عني ؟ » .

« أنتِ ؟ أوه... أنتِ . نسيت حتى انك كنت في اللوحة الملعونة » .

شغَّل السيارة ، وانطلق عاصفاً ، مخلَّفاً نوحاً في المحترَف مع جوغولدر .

١٧

أذرعه الظلام الباردة ، وأضواءالقربان ـ احتوى اجبو الطقس العبادي في مقترَع طبولٍ في رأسه ، لم يكن الصوت عالياً مثلما كان في ليلته الأولى مع سيمي ـ لاأخافُ الاستيقاظ في خوف الإطباق ، فثمت أنوار في فخذي سيمي . سأجعل الكأس المقدسة طافحة منك ياامرأة ، قدميني قرباناً على مذبح شهوتك لأقتنع بها حتى يوم الدين ، إن كانت هذه خطيئته ـ فتعالوا... لم تملك امرأة أخرى هذه القدرة على غمسه في الأصوات التي لاتنتهي والأضلاع الحادّة للجلد .

«هذه الليلة ، أنت لستَ معي ، ياجبو» .

«لستُ معك ؟» .

«بمن تفكر ؟» .

ذلك لأنه كان يحاول حقاً اكتشاف السبب الذي جعله يبحث عن قوة تلك الفتاة الغريبة كي يوهن قبضة نهاية الأسبوع لحب سيمي ، وكان سرها شديداً معه ثانيةً ، بحيث أراد أن يثب مباشرة بعد انتهاء الممارسة الجنسية ، يثب ويبحث عنها في أي مكان أختبأت فيه . وهو لم يستطع أن يفهم ، بسبب أنها أرسلت تلك الورقة معزيةً حين مات سيكوني ، كما أنها أعطت قبلاً مثلما أعطت الآن إشارة اللطف تلك ، فلم يعد يعرف أيّ ملمسٍ إنساني أثّرفيه أكثر ، عشية النهر ، أم تلك الخربشة القبيحة على الورقة التي منحته قدراً من

العزاء . لقد حرست أفكارها ، ولم تقدم أكثر مما وجد أنها تريد ، وقد تطلّع اليها ، محبّاً إياها ، عابداً ، قائلاً هاهي ذي المرأة الجديدة من جيلي ، فخورة بهبة العقل ، مصونة من الانتهاك . لكن التذكّر كان مراً ، ذلك لأنه لم يأخذ منها ، ولم يعطِ بدوره ، بالكامل ، ذلك لأنها كانت تسمو بنفسها مثل إلهةٍ ، وهكذا افترقا ، غريبين . سيمي أيضاً كانت هكذا ، لكن بمعنى مختلف ، جعل رأسه يدور مشوشاً ، فاستلقى ثانيةً ، محبطاً بصورة مريرة .

سيمي هي الأخرى ، لها طقوسها . فهي أولاً تغلق خزانة ملابسها على سرواله ، ثم تعلق المفتاح بخيط طويل يتدلى حتى ليكاد يمس الأرض .

في الثانية صباحاً ، سمعت صوت الأحجار على النافذة فأيقظته . ذهب إلى النافذة . كان بانديلي واقفاً في الضوء الأصفر لمصباح الشارع .

« ماذا جرى ؟ » .

« انزل . البس ملابسك . وانزل » .

كان ذهن اجبو خالياً ، ولم يرد أن يستحثه . كانت سيمي استيقظت . وهي تنظر إليه .

« من ؟ » .

« بانديلي » .

« في هذه الساعة من الليل ؟ » رفع اجبو المفتاح بالخيط . « ماذا يريد ؟ » .

« لم أسأل . أنتِ كنت تنصتين » .

« هل اتفقتَ على الموعد معه ؟ » .

« نعم » .

« أوه . لايهم » .

ارتدى اجبو ملابسه بسرعة « متى تعود ؟ » .

« كيف لي أن أعرف ؟ » .

هبط السلّم جرياً ، وانضم إلى بانديلي في السيارة . في المقعد الخلفي

كان رجلٌ لايعرفه . كان قرداً متهالكاً يتصرف بحمق ، بدا كأنه كان ضخماً لكنه انكمش الآن . كان يئنّ بسيل عجيب من الرطانة ذي لازمةٍ مفهومة وحيدة « لاأريد أن أغادر هذا البلد . لاأريد أن أغادر هذا البلد » كانت القدرة على الكلام فقط هي التي تفصل هذا الشخص عن الحطام الذي كان (نوح) ، ليلة التعميد بالنار .

قال بانديلي وهو يشغِّل السيارة « نوح مات » .

أوقف السيارة عند منزل طبيب صديقٍ ، وأعطي جو غولدر مُسَكِّناً .

آنذاك فقط أدرك أجبو الشبه البعيد بين هذا الرجل الذي في مقعد السيارة الخلفي ، وبين جوغولدر الذي التقاه تلك العشية .

كان المحترَف مضاءً ، وكولا يعمل هناك متأخراً ، مشغولاً باللمسات الأخيرة ، بينما العازر متمدد على سرير ميدان ، غيرنائم . أوقف بانديلي السيارة على مبعدة يسيرةٍ ، وقال لإجبو «الأفضل أن تناديه ليخرج ، فقد يكون العازر هناك » .

خرج كولا ، وقال بانديلي « نوح مات . جو يقول أنه سقط من الشرفة » .

كان المسكِّن يفعل فعله ، فأخذ جو غولدر يئن في رتابةٍ مثقلة بالنعاس .

« قلت له أن يتوقف... صحت قف! قف! أقسمت أني لن ألمسه... توسلت ، أقسمتُ لن ألمسه » .

قال بانديلي « هدئه فقط ، ياأجبو » .

مال أجبو على المقعد ، وشرع يربت على ركبته .

سأل أجبو «أكان يتصرف على طريقته ؟ » .

أومأ بانديلي« كنت نائماً ، وسمعته يدق على الباب بجنون . دخل وهو في حالة هستيريا ، يطلق كلاماً غير مفهوم . لكني استطعت أن أفهم أن نوحاً فزعَ حين بدأ يتصرف على طريقته المألوفة » .

« ماهذا كله ؟ ماهذه الطريقة ؟ » .

تساءل بانديلي « ألم تعرف ؟ » .

« ماالمفروض أن أفهم ؟ » .

« عن جو غولدر ، إنه شاذ » .

وكأنما من ازدراء لايتخيله إنسان ، سحب اجبو يده ، وقد تشوّه وجهه من اشمئزاز وإحساس بالتلوث . دفع نفسه إلى أمام ، بعيداً عن المقعد الخلفي ، وهو ينظر الى الشخص المتكوم في الخلف نظرته إلى حشرة سامة ، وشعر بجسمه كله يقشعر . أما يده التي لمست جو غولدر فقد أحس بها ، غريبة على جسمه ، فجأةً ، فخرج من السيارة ومسحها على العشب النديّ . نظر اليه بانديلي وكولا ، منعزلين عن هذا البغض الذي لم يعرفاه عن إجبو ، وعن ارتعاشات الغضب المباغتة التي كانت تهزة هزاً .

سأل كولا أخيراً « ماذا نفعل الآن ؟ » .

هزّ بانديلي كتفيه « نخبر العازر » .

« هل رأيت الجسم ؟ » .

« نعم » .

« أمتأكد أنه ميت ؟ هل استدعيتَ طبيباً ؟ » .

« إنه ميت » .

« حسناً ، لنخبر العازر » .

خرج بانديلي من السيارة ، وقفز اجبو فجأة بعيداً عن القرب الفيزيقي له وهو وحده داخل سيارة مع جو غولدر ، وتبعهما .

العازر (كان جسر شعاع القمر يخترق السماء والأرض) رهيفاً مثل شبح ، متعَباً كالقيامة ، يجلس منطوياً على سرير الميدان كأنه ينتظرهم . كان جسده يتوقع . وراقبهم وهم يقتربون .

قالها بانديلي ببساطة ، وهو منتصبٌ فوقه . لم يتحرك العازر ، ولم يبدُ على وجهه أي تبدل . أخيراً قال :

« هل قبضوا عليه وهو يسرق ، وضربوه حتى الموت ؟ » .

نظر كـولا ببطء إلى بانديلي ، لكن بانديلي لم يقل شـيئـاً . وظل اجبـو مبتعداً عن الجميع ، جالساً على مقعد ، ومحدّقاً في لوحة كـولا ، وتزايد إحساسه بأنه منغرز إلى الأبد في الطين الأول لكل الخلائق .

كان العازر يقول «لقد نجا مرة من قبل . ربما ظن أني سأكون دائماً قربه لأنقذه» .

قـال بانديلي «لم يُضـرَب حـتى المـوت . سـقط من الطابق الأعلى لبنايةٍ» .

قال العازر «كان لايستطيع حتى أن يتسلق نافذة مثل لص معقول» .

استـدار بانديلي آنذاك ، ونظر إلى اجبـو الجالس بعيداً عنهم . وبدا أنه يريد أن يحزم أمره « نعم . باغتـه مالك الشـقة ، فـسقط وهو يحاول الفـرار» قالها بانديلي بصوت مرتفع . فزّ اجبو قليلاً ثم نظر باحتقار إليه وإلى كـولا . مال العازر إلى جنبه ، ثم خرجوا كلهم من المحترَف .

« يجب أن تذهب به إلى مكان يكون فـيه آمناً وهادئاً . إن ظلّ يتكلم فسوف يعرِّض نفسه للخطر» .

«علينا أن نخبر الشرطة . وهناك ستبدأ المتاعب» .

«سأتكلم مع طبيب . إن كان جو مصاباً بالصدمة ، فلن يكون قادراً على الإدلاء بإفادة» .

رفض اجبو أن يدخل السيارة . قال انه سيمشي الأميال الأربعة إلى البلدة ومنزل سيمي .

١٨

قال ساجو «ليس من خطأ كبير لو بيّنها الرجلُ صريحةً واضحةً . لكنه مضى بعيداً في خياله» . وقرأ ساجو الافتتاحية ، ثانيةً ، بصوت مرتفع...

«والخلاصة ، يمكننا فقط أن نقول عن بنت أفكار النائب المحترم لمنطقة ليكو ، المرشوشة على الجدران المبجلة لمجلس برلمان مصعوق ، ان بنت الأفكار هذه تتسم بكل إفرازات العمل العفوي ، بدون النضارة» . تشبثوا بها ممتنيّن ، ذلك لأن نوحاً كان موضوعاً ينبغي إبعاده عن التفكير ، ينبغي ان يشطب كلياً من الإدراك الواعي .

«أنت كتبت هذه ، كما أعتقد ؟» .

«بالطبع ، تستطيع معرفة أسلوبي» .

«لقد شططت بعيداً... في المقام الأول» .

«بدون قصد . اسمع انت وبانديلي ، أريد أن أعرف رأيكما في هذا...» .

«أرجوك...» .

«حسناً ، حسناً . هذا ماحدث ياكولا . التقيت بهذا الرجل في واحدة من الحفلات السياسية ، مكلفاً بمداراة الصحافيين . وقال لي الرجل ، انتم ايها الشبان تنتقدون دائماً . تنتقدون دائماً انتقادات مخربة ، لم لاتقدمون بعض المقترحات الملموسة ، مشروعاً ما لتحسين البلد ، وسوف ترون إن كنا نأخذ به أم لا» .

«هكذا وثبت على الفكرة» .

«فقط لأتخلص منه . قلت للمحترم الزعيم كويومي ـ وبالمناسبة ، هو الشخص الذي يركع ويقبل يد كل وزير ـ قلت له يجب أن تفعل شيئاً بصدد مشروع المجاري ، فمن العار في هذه المرحلة ، أن يحمل النزّاحون دلاء الغائط حول العاصمة . وعلى أي حال ، لم لايستفاد من المادة ؟ أنظر إلى فيافي الشمال القاحلة . قلت . بإمكانكم نقل الغائط على السكة الحديد إلى الشمال لتخصبوا منطقة ساردونا . أرض مزروعة أكثر ، بطالةٌ أقل» .

اقرّ اجبو «تبدو سليمة اقتصادياً . ياباندیلي ، أنت رجل الاقتصاد ، أنت... ماذا... أوه ، لقد نسيت ، انه لايتكلم» .

«انتظر . لم انته بعد . وبالمقابل اقترحت أن يرسل الشمال حميره لنستخدمها في نقل الغائط داخل البلدة . أن هذا سيهيىء رجالاً اكثر للصناعات الجديدة التي تولد الآن من البرنامج الزراعي الجديد» .

اعترض اجبو «صعوبة عملية واحدة . هي أن طائفة النزّاحين لن تقبل بالأمر ، فهي تعتبر نقل الغائط مهنتها الخاصة» .

حسناً ، إن كانوا مغرمين إلى هذا الحد بالغائط ، فبمقدورهم ان يذهبوا إلى المزرعة ليخلطوه بالتراب . قلت للزعيم كويومي إن بالإمكان تسيير قطارات ليلية خاصة ، تلحق بها عربات محكمة الإغلاق ، مع مساهمة محلية في كل محطة . هكذا تتجه القطارات نحو الشمال ليلاً ، مخصبةً الأرض الأقل انتاجاً . قلت له ، ان المنتوجات الزراعية في الريف ستتضاعف ، خلال عام» .

«انتظر دقيقة ، انتظر دقيقة» واختطف اجبو الصحف ، باحثاً عن التقرير «آها ، ظننت هكذا . هاهو ذا خطاب الرجل ، كلمة بكلمة» .

«يجب أن أقرَّ له . ذاكرته عجيبة ، الا اذا كان يعرف الاختزال بالطبع ، فدوّن الخطاب وراء ظهره . أظن أنني أشرت إلى ميتافيزيقيات المشروع أيضاً ، وبينْتُها له ـ جاعلاً العجلة تدور دورة كاملة» .

هتف اجبو « إذن ، يجب أن يكون هذا ماسمّاه الفيزياء والكيمياء الذهنيتان » .

« أترى... لقد حلّق الرجل في الخيال » .

« استمع إلى هذا ـ مقطع آخر من تقريرك كما أظن ـ صرّح المحترم كويومي ، إن جمع دلاء البالوعات عملٌ غير انساني ، وحين تحدث النائب المحترم كان دماغه الحبيس طويلاً ينطلق خصباً ، بحيث اكتسب المشروع جلالاً ، وأنبت نباتاً غير متوقع ، مختلف الألوان والروائح... هذا لك ، أليس كذلك ؟ » .

« ليس بإمكانك ألاتعرف الأسلوب . تعرف أن ماثياس ذاك خائن . استدعاني رئيس التحرير وقال : أخبرني ماثياس أنك مهتم بذاك الأمر ، كيف ستتناوله ؟ » .

قال كولا « أعترفُ ، انني الى جانب فكرة الحمير ، سوى أنني أخشى أن تنشأ لديها حساسية إزاء الرائحة » .

« أقنعة غاز . تستطيع الشرطة تزويدهم بكل مايحتاجون » .

« قد يكون في هذا مخاطرة أمنية . أن تترك أقنعة الغاز تحت رحمة الحمير . افرض أن الحمير قامت بمظاهرة ؟ سيكون الغاز مسيل الدموع عديم التأثير عليها « مازلت إلى جانب الحمير . ثم لماذا يقتصر الأمر على داخل البلدة ؟ لم لا يمتد طوال الطريق إلى الشمال ؟ » .

« اتجد أنت القطارات جد ، جد مبتذلة ؟ » .

« أجل » .

« هِمْ ، ان لك حقاً ما في المسألة . فكّر فقط بالمشهد البدويّ ـ نياسمُ ماشيةٍ هابطةٌ إلى الجنوب ، وقوافل حمير موسوقة صاعدة إلى الشمال وهي تحمل خراءً » .

نهض بانديلي وانصرف .

نظروا إلى الباب المنصفق لحظاتٍ . وسأل اجبو أخيراً « ماالذي يتأكّل الرجلَ ؟ » .

نظر إلى سيمي ، ثم إلى دهينوا «ماذا تقول النساء ؟ أهداكنّ حدسُكّن إلى مالم نهتد اليه ؟» .

داعبت سيمي مؤخر رقبته ، وقالت دهينوا «حديثك كافٍ لجعل أي رجل يهرب» .

ضحك ساجو «لن تصدق هذا ياكولا ، وأنت أيضاً ياإجبو . لكني ، في يوم سكر ، وعدت تلك المرأة ، وعداً أحمق ، بأنني حين أتزوجها ، سأحرق «كتاب التنوير» العائد لي» .

ذكّرتْهُ «أنت أقسمت» .

«قسمٌ غير عادل ، مع انه انتزع . سأكفِّر عن قسمي» .

«كيف استطاعت ؟» .

نطر ساجو اليها نظرة انتقام «هل أخبرهم ؟» .

«ان جرؤت...» .

«أفعلُ» .

«لن تجرؤ...» .

«كان ذلك في لحظة منتهى الـ...» وقفت دهينوا ، وهربت إلى الطابق الاعلى ، بينما كانت ضحكة ساجو تلعلع خلفها ، «ماالثمن يادليلة! ماثمن بكارة دليلة!» سألته سيمي «هل ستتزوجان حقاً ؟» .

تأوه ساجو «أنا في الفخ . في الفخ ، وأحبه» .

قال كولا «دعوني أعرف متى ، وسأقدم لها الهدية اصفاداً» .

ووعده اجبو « وسأقدم لك مبولة غرفة النوم» .

عاد بانديلي ، متجهماً «هل سينتهي جو غولدر من هذه المسألة حقاً ؟» .

ابتسم كولا «بانديلي ، أنت لم تستطع ان تفهم . ماذا على الرجل أن يفعل ؟البديل هو أن يجلس ، ويظل يفكر ، حتي يقتل نفسه تفكيراً» .

بدأ إجبو«أنت تتصرف أحياناً ، كمن لا يشعر... .» .

« لم أسألك يا أجبو » .

وقف اجبو« أن استمررت تتصرف بهذه الطريقة الصبيانية فسأخرج من بيتك» تطامن صوت بانديلي« الباب مفتوح . لا أستطيع نسيان أني جئتك في الصباح أطلب المساعدة ، فلم تساعدني » .

« لم أرفض لك شيئاً » .

« طلبت منك ، ألم أطلب ؟ كان بيت كولا أقرب ، لكني قصدتك ، وطلبي منك! » .

« لم تطلب شيئاً لنفسك . طلبته لذلك الكربة المنافي للطبيعة ، وأنا لم أرد حتى أن أعرفه . تعالى ، سيمي ، لنذهب » .

قال بانديلي « قبل أن نذهب ، لدي رسالة هامة لك... . » .

« بالإمكان الاحتفاظ... . » .

« ... . من إحدى طالباتي » .

تصلّب اجبو ، وتبدل سلوكه كله « من... . منها ؟ » .

« نعم » .

« منذ متى كانت الرسالة لديك ؟ » .

« الأفضل أن نخرج » .

هرول اجبو من الغرفة ، ناسياً وجود سيمي . رمقت دهينوا سيمي بنظرة تعاطف انثوي ، وجلست مكان إجبو إلى جانبها . جرب ساجو أن يطلق ملاحظة مرحة ، لكنه صرف النظر ، وهزّ كتفيه .

في الخارج ، قال بانديلي « أنا أعرف أين هي » .

« اسمع . املأ فقط فراغاً واحداً قبل أي شيء آخر . ماسمها ، بحق الجحيم ؟ » .

« اسمعني ، يا اجبو . سأعطيك فقط رسالتها ، كما اعطتني إياها ، وكما توسلت إلي أن أوصلها . أنا اعتقد ، بالطبع ، أنها مشروخة الرأس ، لكن قد تعرف أنت هذا » .

« بحق الله ، ماالأمر ؟ أهي حامل ؟ » .

« نعم » .

« هكذا . » .

وهي تعرف أنك وسيمي ماتزالان... لقد رأتكما في حفلة أو أخرى » .

« ألم تفعل شيئاً غبياً ؟ » .

« أرادت . ذهبت إلى طبيب بالمستشفى ، ذلك المهرج الدكتور لومويي ، وكان غبياً كعادته . أطن أنه حاول حتى مضاجعتها ، وحين رفضت ، رفض هو مساعدتها . وهكذا أخذ لومويي ينشر الشائعة في كل مكان ، وبما أنها مجنونة ، فقد مضت الى الحد الأقصى . تقول الآن انها ستحتفظ بالجنين ، وتظل هنا ، طالبةً » .

« أين أجد هذا الطبيب ؟ » .

« قلتُ لديّ رسالة لك » .

« وقلت أين أجد هذا الدجّال (المنيوك) ؟ » .

« أنت تصرخ ، ياإجبو » .

« اخبرني أين يسكن ، أو احتفظ برسالتك المنكودة! » .

« كما تشاء » .

أمسك به إجبو ، وهو يبتلع ريقه ، ويحس بالسم يسري في داخله

« بانديلي ، بانديلي ، لايليق بك دور المعذِّب ، اخبرني أين أجد الرجل » .

« ناديتك ، لأسلمك الرسالة فقط » .

« حسناً . حسناً . استمر . اين هي ؟ اتعني فعلاً ذلك ـ العودة إلى هنا ؟ » .

« المسجل نفسه أخبرني . لقد ارسلت إليه رسالة » .

« أين هي ؟ » .

« لاأعرف » .

« أنت تكذب ، ياباندیلي » .

«أنا لاأعرف ، أو لاأريد أن أخبرك . اختر ماتشاء » .

«حسناً . خلّصنا . أعطني رسالتك» .

«حين تكون مُوقناً مما ستفعله ، فعليك أن تخبرني ، وسأنقل ماتخبرني .

والمفروضُ فيّ أن أُفهمك أنك لست تحت أي التزام . آملُ في أنني نجحتُ ـ هذه هي الرسالة كلها » . واستدار بانديلي ليدخل .

أمسك به إجبو ، ونظر في وجهه «هذا يفسر الكثير طبعاً . وأظن هذا كان في قرارةِ... »

«لا تكن مغروراً . اتظن الأمر هكذا فقط ؟ » .

«حسناً . لتكن خارج الموضوع إذن . الآن ، بحق اللّه ، حدثني عن الفتاة... اقصدُ أنها مخلوقة متميزة ، ذات طبع يكاد يكون متوحشاً . لا أظن... » .

«أود أن يظل تورطي في الحد الأدنى . لذا أرجوك أن تعطيني جوابك ، متى شئت ولاشيء آخر » .

هذه المرة ، لم يحاول إجبو ايقافه . توقّف طويلاً عند العتبة ، ثم استدار عن البيت ، وسار في الظلام .

ارتقى بانديلي درجات السلّم مباشرة ، وسمعوا طرطشة الماء في الحمّام . قال كولا «ذلك الرجل يقتل نفسه من الداخل ، ولكن لماذا ؟ » .

لاحظ ساجو «مايحتاجه هو جلسة إفراغيّةٌ طويلة » .

كانت سيمي تحزن ، وظلت دهينوا تثرثر معها بمرح لاينقطع .

كانوا يتأخرون عن موعد الغناء ، وقد عرفوا ذلك ، لكن لم ينهض أي واحد منهم ليقترح عليهم الذهاب . معرض سيكوني افتتح العشية ، مع خمر النخيل ، واللحم المشوي من الكبش الأسود ، وما زال دمه المتخثر عالقاً بأرضية محترف كولا . كان بانديلي قال «ماحاجتك بالكبش ؟ ألم تكن لك أضحيتك ؟ » ، وبدا أن اجبو سيغرز مديته في عنقه ، وقف الجميع مرتعبين حول الدم والرقبة

المقطوعة . لكن اجبو نغض المدية نفضة مداعبة باتجاهه ، فَوَشَمَ خيط رفيعٌ من الدم باندبلي ، عبر قميصه . زال التوتر مباشرة ، وحلّ الضحك العالي محل لحظة العداء غير ذي المعنى ، حتى باندبلي ابتسم ، متذكراً ، أن هذا ، بعد كل ماجرى ، هو من أجل سيكوني . في لوحة كولا ، لم يكن اللون يجفّ على ايسومار ، لكنهم حملوا اللوحة ، وعلقوها في بهو المسرح ، حيث سيغني جوغولدر ، فيما بعد ، ليلاً . جاء السادة كلهم ، ومن بينهم آل أوغازور ، لكنهم انصرفوا سريعاً ، حين ابصروا ذبابة منزل أو ذبابتين تستبقان مسرب خمر النخيل . عملية الذبح ، ومذاق الخمر ، مع الرائحة النفّاذة للّحم المشويّ ، حملت إجبو إلى الماضي ، واقتطفت الفعل الوحيد ، المنعزل ، الرفيقة الأولى في ملتجئة عند النهر ، وقد عرف اجبو أنه لايستطيع الاحتفاظ بها ، مجرد فانطازيا خيالية ، إذ طلع النهار بصورة كافية ، وسيطرت عليه ، مرةً أخرى ، قوة إرادتها...

والآن ، سار إجبو ، وسار . وفي غرفة جلوس باندبلي جلسوا كلهم ، مرتعبين من اللحظة التي يجب أن يذهبوا فيها ويواجهوا جو غولدر في الضياء .

نزل باندبلي من السلّم .

« أليس هذا وقت العرض ؟ » .

« أتريدنا أن نخرج من بيتك ؟ » .

« لا . بل أنا آتٍ معكم . لكن اخبروني ، أنتم الذين تفهمون . لاحظت في البرنامج أن جوغولدر سيغني مرثيةً في النصف الثاني . أهذه فكرته عن التكفير ؟ » .

نطق كولا بهدوء « البرنامج أُعدّ منذ شهرين » .

« آه ، إذن كان ذلك الفعل إلهاماً » كان صوت باندبلي عشباً جافاً . مثل صوته حين قال مرة ، « إن قدت السيارة الفارهة ، فسوف يتمددون على الطريق ، ويدعونك تقتلهم » وثانيةً بهدوء تام من كولا « ستفرقع » .

« لا . أظن أننا ماضون جميعاً نحو جَلْدِ ذاتٍ لاحاجة له ، وأتوقع أن جوغولدر قد ابهظني بعبء سنوات . لكني لن أفرقع » .

كان بانديلي شخصاً غريباً تماماً ، شخصاً يغدو ، بصورة متزايدة ، غير قابلٍ للتمحيص .

كان كمن لايرحم ولايغفر . لكن العكس هو الصحيح . في المسرح ، جلس بعيداً عن الآخرين ، بعد أن تبعهم في الصف نفسه ، لكنه وضع بضع كراسٍ بينه وبينهم هو جلس مع سيمي . وجلس كولا وساجو ودهينوا على مبعدة بضع كراسي ، وقد اختار كولا تلك الكراسي ، بعد أن رأى أين كانت السيدة فاسيي وكنَّتُها ، واختار لنفسه المقعد الواقع خلف مونيكا مباشرة . في الصف الأمامي جلس آل أوغازور ، ومعهم آيو فاسيي . وظل بانديلي شامخاً ، مثل سارية الأوجبوني ، خشنةً ، فريدة الصنع . وبدا كأنه يسأل الشخص الذي على المسرح ، أي شيء جئت به لنشهد ؟ بعض التشذيب الخفيّ ؟ جلس بانديلي مثل صورة بلا زمن ، يفكر بالمخلوقات الدنيا .كولا ، الذي حاول أن يرى كل شيء ، الذي حاول أن يوضح الأجزاء في المادة اللينة للزمن ، أحسّ ، بعد وقت طويل جداً ، وفي لحظةٍ منظّمةٍ هادئة ، كانت لحظة إحباط ، أحسّ أن ماكان ينقص تلك الليلة كان القدرة على نفض الأحداث ، واحداً بعد آخر ، ووضع مسافةٍ بين الواحد والآخر ، لتقويمها في توقفات فترة الخلق .

أحياناً أشعرُ أني طفلٌ .

لاأمَّ لهُ...

هكذا نظر كولا إلى بانديلي ، وفكّر ، آه لو كنّا فقط ، لو كنّا فقط ، ولم نشعر بشيء من الأمراس التي تسترقنا ، أن نسقط من الثقوب غير الشخصية في الفراغ ، فلا نكون مدينين ، لا للأحياء ، ولا للموتى ، بشيء من أنفسنا ، وعلينا أن نكبر في هذا الاتجاه ، لاعارفين ، ولاموهنين ، أرادتنا ، بالفهم ، إذّاك ، حين ينكسر الحاضر على رؤوسنا ، نجد ، سريعاً ، قانوناً جديداً للعيش . مثل إجبو دائماً ، ومثل بانديلي الآن .

أحياناً أشعرُ أني طفلٌ .

لاأمَّ لهُ...

بضع عظام على خشبة المسرح كانت عارية . اكياسُ رملٍ ومستعرضات . منصّات قابلة للسقوط ، أستارٌ سودٌ منتفخة على الجانبين ، بقعتان عاريتان تتجمعان . وجو غولدر . خلفه ، فراغ عميق وظلامٌ شاملُ ، وجو غولدر .

وخارج الأطراف السود للستارة المتحركة التي تؤطره ، ومثل شخص بالٍ منزوعٍ عن ألبوم عائليّ ، كان جوغولدر يبحث عن عالمٍ في الأمل ، عالم لاوجه له ، لم يُسْبَرْ ، عالمٌ غُفْلُ لرجلٍ تمزِّقُه كلُ نغمةٍ . عرّى جو غولدر روحه ، اشتواها ، دَوَّمَ في شلالات أسىً معتمةٍ احتضنته ، الطفل الذي ضاع طويلاً ؛ لكنها لن تقذفه صافياً...

بعيدٌ طريقي... عن الدار... الـ ـ د ـ ا ـ ا ـ ر

بعيدٌ طريقي... عن الدار... الـ ـ د ـ ا ـ ا ـ ر

وكان يعرف أنها ليست مجرد مسألة جغرافيا . كولا . أحسّ برباط شديد حول ساقه ، وإذ نظر إلى أسفل رأى ذراع مونيكا ترتجف في قبضتها القاسية . أمسك كولا بيدها ، معترفاً بأنها ليلة الافتراق . كل امرىء يمضي في سبيله .

سيطر على كولا شعورٌ لم يستطع له شرحاً ، فاستدار نحو باب الخروج .

كان إجبو يقف عند الباب ، وحتى في الضوء الخافت الآتي من البهو كان يبدو متوتراً ، دائخاً ، مثل رجل فقد شبابه فجأةً .

كان اجبو مشى على امتداد الكلية تقريباً ، غير مبالٍ بسحابة الزئبق المتجمعة فوقه ، ولا بالفرقعات المباغتة الجافة التي كهربت جلده ، مثلما كان يرتفع شعره موجات على الذراع حين مرور مشط . ذكّرته هذه بنوعية غضب بانديلي ، تيارٌ ثابتٌ يبعث هواءً نظيفاً ، حفيف خصومة هادىء . لكن السحب تمسك بالماء ، مع أنه كان يحنّ إلى هطول المطر ، الى هبوطه ، حتى لوظلت السماء ثابتةً... فلتكسر الأرض في الأقل ، الأرض التي تحت قدميه ، ذرّات حرّةً ، ليتحرر جلده من النبض المحموم الى الحرية الراكضة لوضوح

الجلد ، مَرْواً عارياً في منطلقات سريعة ، وهو يسمع قلبه السبّاق يخفق الآن بطيئاً لكنْ قوياً إزاء الألواح المترنّحة للغرانيت المسحوق... لكن المطر ظل يابساً فوقه ، والأرض مجرد كتل رطبة إزاء ركلاته غير المجدية... انجذب ، بلا وعي ، نحو الصوت الذي ملأ الليل عبر كوى الالمنيوم ، صوت صرخة رفيعة متكسرة لثور ذبيح ، وتحرك اجبو صوب الباب وهو يسأل ، من هذا الرجل الذي يجأر بانشقاقه عن عالم الفهم!

البقعة المزدوجة حفرت فجوةً في الأرضية ، ووقف جو غولدر ، وقدماه في دائرة الفراغ هذه ، وإجبو يفكر كيف بإمكانهم الاستحواذ على مكان الصباغة حين تذهب النسوة ، واقفين على حافات القدور الضخمة للصبّاغين ، المدفونة عميقاً في الرمال السود الرطبة . حين تذهب النسوة سينطّون ويتعلقون بقضبان الخيزران المتقاطعة مترجحين برهةً . لكن في إحدى المرات سقط طفل في قدر الصباغة فانطلق رشاش هائل من الصبغ أعلى من الحافات ، وخرج الطفل يبكي بدموع نيليّة ، مسْوَدّاً حتى عينيه . ابتلع السواد الان جوغولدر أمام ناظريه ، وسمع إجبو ، ثانيةً ، صرخة الطفل المرتعب ، واليدين المسودّتين الممتدين الى يدين تلمسانه ، وشفتين تلتقيان وشفتيه ، وماء نظيف يغسله . وقد فعل الماء هذا .

شلالات نيلية ترتفع فتدوّم قدماه . جوغولدر ، باحثاً ابداً عن السواد ، سار في الأقنية الخلفية للنسوة العجائز ، عبر خيرزان متشابك جد منخفض بحيث بدا مكاناً تتعلق به الأقزام ، ومضى منحنياً ، محدودباً ، عبر الخيرزان المتشابك المصبوغ بالأزرق ، والثياب الصبيغة تقطر غير معتصرة . كانت ثمت أمطار سود من سماواتٍ قزمةٍ ، ورملٌ متحركٌ تحت قدميه مشبعٌ بالصبغة التي استهوته . ضغط جوغولدر قدمه في مكان ، فاندفعت نوافيرُ صبغ إلى أعلى ، وبولُ عجائز حُبسَ طويلاً فانطلق عبر حافات قدور صبغهنّ نفسه ، وحلماتٌ سودٌ يخرج منها زَبَدٌ في فقاعات سودٍ من أفاريز لافا سوداء عميقاً في قدور موشحة عميقاً في حافة مسوّاة بالأرض ، قال إجبو ، أوه ، لقد لعبت

بينها ، حيث النساء العجائز يصبغن أكفانهن ، والحزن هو مثل هؤلاء النسوة ، قديمٌ كاللعنة .

صبغ جوغولدر المندفع من رمل متحرك خطا خلال الفم الممزق للقدور الغائرة والأكفان الرطبة ، مدوِّماً ، ثقيلاً ، في الريح ، مُطلقاً زبداً نيلياً . لقّوا قدميه ، وحملوه دائرين به ، هابطين به ، والفقاعات السود كانت ضخمة مثل عيون أولوكون الغاضبة ، تتفرقع ، إجبو ـ لو ، أي ـ بولو ـ بولو ، اي ـ جبوـ لو ـ إي ـ بولو ـ بولو ـ إي ـ جبو ـ لو... حتى غمرته أضواء المسرح فجأة ، وسمع صوت التصفيق ، ونهض الحاضرون للاستراحة .

« خائفة ؟ أخبرك أن هؤلاء الفتيات الانجليزيات سخيفات للغاية . مِمَّ هي خائفة الآن ؟ كنت أبكي » . والسيدة فاسيي ماتزال مزيجاً من الشهقات والضحكات الجهيرة . التقطتْ عيني بانديلي حيث كان واقفاً وحده مع سيمي ، وانحنى لها بانديلي برسميةٍ طريفةٍ استغربت منها ، فحوّلت نظرها بعيداً ، منزعجةً ، غير مصدِّقة .

كان ساجو يصارع المجتمع كي يصل إلى طاولة المشروبات ، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع أوغازور ، وأقرّ الإثنان ، للحظة واحدة ، انهما يعرفان بعضهما ، وعلى الفور اندفع إليهما فاسيي قائلاً : « أوه . أنا سأحضرها . قل فقط ياأستاذ ماذا تريد » . تهلل ساجو وقال : « أرجوك ، دعني أنا ، فأنا مدين للأستاذ ببعض الأشربة ، » ، أدار الأستاذ ظهره عنه ، وتكلم مع فاسيي ، ثم انصرف الأستاذ ليلتحق بكارولين التي وقفت أمام البانثيون ، وهي تتقرى اللون إن كان ثابتاً أم لا . بعد لحظة ، لمحها ساجو وهي تنظر إلى وراء .

أخذ ساجو كأساً لسيمي ، وقدم آخر لبانديلي الذي ظل يحدِّق ، ثابتاً في نحت سيكوني . سيمي ، الخائفة ، غير السعيدة ، تناولت الكأس من ساجو وحاولت أن تضغطه في يده .

قالت مونيكا وهي تراقب« يبدو بانديلي غاضباً من شيء ما » .

اندفعت حماتُها «الاحظت ذلك ؟ انحنى لي قبل هنيهة بأعجب طريقة ، ماذا دهاه ؟» «أوه ، حسناً ، تعرفين...» توقّف كولا ، لكن ساجو جاء لإنقاذه «ذهب صديقٌ له ، وترك امرأته بين يديه ، وبانديلي غير مستمتع بالوضع» .

نطقت السيدة فاسيي «الرجال وحوش!» .

وتساءلت موني «لكن ، لمَ لاينضمّ إلينا ؟» .

ازداد ضيق كولا . لم يكن ثمت أحد لايعرف سيمي ، الرهيبة ، المحظيّة الدولية . وبانديلي وقف جدّ كالح ، لايكاد يدري انها واقفة بجانبه . هذا التجمع ليس مكانها ، وهي بحاجة إلى اهتمام زائد . بعضهم شرعوا يتهامسون ويكزّون بالمرافق ، والتعليقات تطفو ، برفقٍ .

قال كولا «أعتقد أن عليّ أن آتي بسيمي لتنضمّ إلينا ، إن لم يكن لديكِ اعتراض ياسيدة فاسيي» .

«اعتراض! لماذا ؟ أليست تلك المرأة الجميلة التي مع بانديلي ؟» .

«نعم . ظننت...» .

«أيها الشاب ، المرأة التي هناك هي سيمي ، وخنصرُها افضل من عشرة رجال مجتمعين خارج هذا المكان ، وأفضل من كل الرجال هنا في هذه اللحظة . هاتها لتنضم إلينا» ثم تساءلت السيدة فاسيي «أليس ذلك الذي هناك أحد أصدقاء آيو ؟» .

«إنه إجبو ، إجبو ، هناك» .

صححت لها مونيكا «إنه ليس صديق آيو ، ياأمي . لقد جاء به بانديلي للغداء . توقفي عن تسمية كل شخص صديق لآيو» .

«إجبو! هناك» .

كولا ، وهو في طريقه إلى سيمي ، سمع ، وتوقّف ، متسائلاً إن كانت الحركة الآن معقولة ، مادام إجبو سيلتحق بهم الآن . بدلاً من ذلك ، سار إلى إجبو ، لكنه توقّف قبل ان يبلغه ، كأنّ كلباً هاجمه ، كأن زمجرة كلب متوحش داهمته . تابعَ عيني إجبو القاسيتين كنواتين ، في المجموعة التي

تتحدث على مرمى خطوة منه ، كانت جدّ قريبة ، بحيث أن قهقهة الدكتور لومويي كانت تقذف بظهر الرجل مراراً على إجبو ، فيغمغم اعتذاراً سريعاً ، ثم يعود إلى حلقة الذكاء .

«تقصد انها كتبت ، فعلاً كتبت وقالت إنها تريد العودة ؟» .

قالت كارولين « في وضعها ؟ » .

لومويي الذي مايزال فاغر الفم «ذكاء ببطن منتفخة ؟» .

«لكن لماذا تستغربون ؟ الأخلاق لاتعني شيئاً لأولئك الفتيات العصريات» وأضافت كارولين «وهي تبدو فتاة لطيفة ، هادئة» .

حذّر الدكتور لومويي «ها ، ها ، الهادئات هنّ الأسرع . ما إن جاءت إلى العيادة حتى عرفتُ ، قلتُ واحدة من الهادئات . حزرت أن مشكلتها هي ضربة الجزاء القديمة في الشبكة ، ها ها ها ها... معذرةً» .

بدا فاسيي مرتاباً نوعاً ما« لست أعرف ، بعض هؤلاء الفتيات مشدودات جداً ، عليك أن تنتبه ، وإلا جرّبن كل أنواع الأفعال اليائسة...» .

طمأنه لومويي «أوه ، إنهن يعرفن طريقهن . إنتبه إلى كلماتي . عندما تستأنف الدراسة في الكلية فإن مريضتي الصغيرة ستكون ناحلة الخصر مثل ابنتي الصغيرة ها ها ها» .

قال فاسيي باستيحاء «الأمر نفسه . إن المرء ليشعر بالأسف عليهن» .

«لاتبدد عطفك على فتيات كهؤلاء . يجب أن يدفعن ثمن متعتهنّ» .

كانت عينا إجبو جاحظتين ، محمّرتين ، كجمرتين على ملقط حدّاد .

علّقت كارولين «حقاً ، لقد انخفض المستوى الأخلاقي» .

«القرن كله غارق في فوضى أخلاقية . نحن الآن فقط ننتظر اكتشاف الطالب المسؤول ، ثم سوف نعرف ماذا يمكن ان نصنع به» .

«أوه ، لن تمسك به يا أستاذ ، ذلك لأن الشبكة ستكون فارغة ، في الفصل القادم... معذرة» قال هذا من فوق كتفه ، وقد ارتفع وجهه في ابتسامة عريضة تنقل بعضاً من سعادته إلى الغريب الواقف وراءه ، كان وجها متهللاً ذاك الذي رفعه نحو

إجبو ، لاوياً رقبته ليحقق النظرة بدون التعارف ، أما اجبو الذي بدا فمه لايتحرك ، فقد بصق في هذا الوجه . ترنح لومويي إلى أمام ، وقد علت عينيه غشاوةٌ ، وأصابته صدمةٌ . امتدت يده غرزياً إلى البصقة الخفيفة ، وكانت خفيفة لأن شفتي إجبو وحلقه قد يبست منذ حين والتصق لسانه . لكنه بصق بدون أن يعلم . وكان فاسيي الذي ارتطم به لومويي يسأل « مابك ؟ أثمت شيء في عينيك ؟ » .

لكن اجبو كان الآن وسط المجموعة ، ينتظر فقط ان يفتح لومويي عينيه ليراه . لكن لومويي وقد أحس بالخطر المميت ، وعرف من كلام فاسيي ان الهجوم لم يشهده احدٌ ، اختار ان يظل تحت حماية عماه . وقد نفعته غريزته ، فقد انتظره إجبو ، وهرعت كارولين ، المرتبكة مثل الآخرين ، لمساعدة الرجل الذي تعرَّض لهجوم .

لم يكن الدكتور لومويي احمق ، وعندما جهد لتشخيص الحادث كان يأمل أن تفادي فضيحة مايزال ممكنا . فوق كل شيء تمنى لو كانت اعتذاراته اكثر شخصية ، ذلك لأنه لم يستطع أن يتذكر وجه الرجل الذي أساء اليه بهذه الوضاعة .

جاءه صوتٌ لطيفٌ من مسافة قريبة ، صوتٌ ذكّره بأوغازور من النطرة القلقة التي كان ينقلها من وجه لومويي إلى الرجل الصامت الذي أحسّ فيه صلةً واهية . تهديد اجبو الغامض حوّل تبلّدَ أوغازور إلى طبيعة حضور بانديلي الذي تساءل « وماذا كنتَ ستفعل ،ياأستاذ ؟ » .

قال فاسيي بارتباك « مرحباً ، بانديلي . لم أعرف انك كنت هنا » .

وافسخ اوغازور مكاناً أبوياً له في الحلقة المزدحمة ، وقال « انضمّ إلينا ، نحن كنا نتحدث عن واحدة من طالباتك » .

سألت كارولين مقاطعة « أوه . أهي طالبتك ؟ » لكن بانديلي لم يكن يسمعها .

« كنت أسأل ، ياأستاذ ، ماذا كنت ستفعل بالضبط ، لو عرفت الأب ؟ » لم يترك أي مجال للغلط .

أدرك اجبو الامر ، منذ البداية ، واستنكر تماماً تدخّل بانديلي . وبسرعة ، نظر ثانية إلى لوموييي آملاً في أن يفتح الرجل عينيه مرة وبسرعة حتى يتسنى له إغلاقهما من جديد ببصقة جديدة قبل أن يحرمه الخطر الجديد من حقه في الغضب . نبرة الصوت بلغت الدكتور لوموييي ، فعرف أنه قد تمَّ إنقاذه .

« إن كنت تعني الولد المسؤول عن حالة البنت... » .

« نعم » .

« حسناً . أعملُ على أن يُطرد ، لاأقلّ » .

« هكذا... » .

شعر اوغازور بنوع من التحدي ، وان المتحدي شخصٌ وقحٌ ، فقال غاضباً في صوت يكاد يصيح به« لايمكن للكلية ان تسمح بأن يلطخ اسمها الانحطاط الخلقي لشبّان عديمي المسؤولية . الجيل الشابّ فاسد اخلاقياً ، ايضاً » .

أتلع لوموييي رأسه ، متعافياً ، وقد غدا أشجع لأنه بعيد بمسافة جيدة عن إجبو ، « نعم ، أنا متفق . انهن يلطخن شرف عائلتهن ، بدون سبب ، وهذا هو الجانب الأكثر مدعاةً للحزن » .

قال بانديلي « باعتبارك طبيباً طبعاً ، فأنت ستتقدم وصفة الموت قبل تلطيخ الشرف » بدأ أوغازور « أنظر... » .

« كنت أسأل الطبيب . الموت ولا العار . أليست تلك هي الفكرة ؟ أطبّاء مهرجون يقومون بالإجهاض لأنهم ـ يعرفون طريقهم » .

« لاأدري عمّ تتكلم » .

« ألا تدري ؟ لكنك اعتدت هذه المشكلات ، حتى عند أولئك اللواتي يقصدنك أولاً ، طالبات المساعدة » .

« آمل في الآ يعتقد بانديلي ان الجامعة هي مركز رعاية اجتماعية » .

نظر اليه بانديلي ، حينها ، متفكراً ، ونظر حول الحلقة ، وقد هدأ

وارتخى جسمه . كان ينظر اليهم باشفاق ، سوى ان اشفاقه كان أرهبَ من شدته ، كان لايرحم .

بانديلي ، هرمٌ ، وراسخ ، مثل الامهات الملكيات لعرش بنين .

هرمٌ ، وقاس ، مثل مجْمع الاوجيوني وهم ينطقون الكلمة .

«أتمنى أن تعيشوا كلكم لتندوا بناتكم» .

نهاية الاستراحة ، واستدعاهم الجرس ، بعيداً وصارخاً ، مثل جلاجل مجذوم . لكنهم وقفوا غير مصدقين عند مصارع سيكوني انتظرتْ سيمي ، وكولا مرتبكٌ الى جانبها . اجبو راقبها وهي تسيرنحوه ، عيناها صدفَتان محيطيّتان بحزنهما المنفرد... مثل خيار رجل يغرق ، كان يقول... فقط مثل خيار الغرق .

شروح

فصوص السكر : جهاز شعريّ ، وليس عضوياً

حكماؤك الصينيون : فكرة مفضلة لدى الشعراء ، وليس لدى الشعراء الصينيين وحدهم .

أوشون : واحدٌ من آلهة النهر الرئيسـيين لدى اليوروبا . ثمت عرش أوشون الشهيرفي أوشوجبو .

سيكوني : المتأتيء ، يقابل إيمانه العميق ،إلحاد إجبو . سيكوني مسلم .

دهينوا : ابنة مدينةٍ ، وليست عاهرة رخيصة .

سيمي : تجمع إلى جمالها ، الطبيعة القدرية للإغراء .

الفلسفة الإفراغية : انموذج من شغف سوينكا بالمقالة .

موت سيكوني : ثمت توازٍ بين موت سيكوني وقصيدة سونيكا «الموت فجراً »

غرفة جيوفاني : رواية لجيمس بالدوين تتناول علاقة شذوذ .

البانثيون : مجمع آلهة اليوروبا الذي كان كولا يرسمه .

الآلهة في بانثيون كولا

إيسو : إله الفوضى .

سانجو : إله البرق .

أوريسا ـ نلا : الإله الرئيس .

إيسومار : قوس قزح .

أرينلي : روح حيواني .

أو بالووايي : الإسم المحترم لـ :
سوبونا : إله الجدري .
أوجون : الإله المكتشف ، المحارب ، الخالق .

أبيتياجا : قلنسوة قماش ليوروبا ذات حاشيتين تتدليان على الأذنين .
أديري : ثوبٌ صبيغٌ
إجبانتا ـ آرا : احترام لشخص كبيرالسن .
آجبادا : ثوب فضفاض لليوروبا .
إجبو : شربة من لحاء الجذور
اجيديجبو : نوع من موسيقى اليوروبا .
آلادورا : طائفة مسيحية تتسم صلواتها بالموسيقى والجذب .
آلاكوري : شتيمة .
آمالا : طعام يصنع من طحين اليام .
اليام : نوع من البطاطا «بعضه حلو»
آبالا : نوع من موسيقى اليوروبا .
آيابا أوسا . أومو ، ياموجا : ملكة البحر ،ابنة ياموجا (إله مائي) .
دانسيكي : سترة قصيرة يرتديها الرجال .
إجبني : سحر الاختفاء .
ايكان : عشب الفيل .
ايليجنجن : احتفال أقنعة قديم .
ايويدو : حساء خضر خفيف .
جاجا : نظارات .
جامباري : كلمة دارجة تدل على رجل من الهوسا .
جيديجبو : شكل خشن من المصارعة .
باراباس : لص صُلب مع المسيح .

ايبيجي : التوأمان . شخوص خشب منحوتة على هيئة توأمين يكون رأساهما في العادة ، طويلين بصورة مبالغ فيها .

ايبوسي : العار .

اجبالي : قبر عبادات خاصة .

ريكوري : عباءة صياد تنتهي بما يشبه الجِراب .

ايلو أوينبو : بلادالرجل الأبيض .

إيون : سُبحة مرجان (ذات قيمة عالية) .

كوبوكو : سوط جلد .

كولا : (جوزة الكولا) ـ رشوة .

ماراكاس : نوع من الصنوج .

أوجبوجو أودي : عمل شهير في أدب اليوروبا . تأليف ، د . و . فاجونوا .

أوجبوني : مجمع العقلاء ، نوع من المجلس التنفيذي للعرش .

أولوجومونجومو : شخص شبحيّ .

أومو آلوفا : ابن القس .

أومو أولي : شتيمة .

أوموتاني : ابنَ من يظن نفسه ؟

أوريكي : أغنية أسماء عائلية .

أوينبو : الرجل الأبيض .

تانوي يي : يرقة البعوض .

* ملحوظة : هذه الشروح ليست متدرجة التتابع . لكن بالإمكان الرجوع إليها ، كلما استدعت الحاجة ، على امتداد الرواية . «المترجم»

١٩

وول سوينكا ، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٦ ، اشتُهر أكثر ، بكونه مسرحياً وشاعراً . ومع هذا ، فقد مُنح جائزة «جوك كامبل نيوستيتسمان» بصورة رئيسة لقوة هذه الرواية «المفسرون» .

ولد عام ١٩٣٤ بـ«ابيوكوتا» ، درس في المدارس النايجيرية وجامعة إيبادان قبل الذهاب الى ليدز . بعد الجامعة اكتسب خبرة مهنية حين عمل قارئ مسرحيات مسرح رويال كورت بلندن . بعد عودته الى نايجيريا عام ١٩٦٠ قاد محاولات لتطوير المسرح النايجيري بينما كان يدرّس ويقوم بأبحاث في جامعات إيفي ، وإيبادان ، ولاغوس . ما أن عُيّن رئيساً لقسم الدراما في جامعة إيبادان حتى أودع السجن بعد اندلاع الحرب الأهلية النايجيرية . وقد وصف تجاربه هذه في «مات الرجل» . عُرضت مسرحياته في إفريقيا ، وأوروبا ، وأميركا ، ومنها «الطريق» و«الأسد والجوهرة» . الى جانب مسرحياته ، نشر أربع مجموعات شعرية . روايته الثانية صدرت عام ١٩٧٢ .

ورواية «المفسِّرون» تقدم بانوراما معينة عن المجتمع النايجيري ، من خلال خمسة مثقفين شبّان ، يحاولون أن يمنحوا حياتهم ومواهبهم معنى ، ضمن ظروف غير مواتية ، حيث الفساد ، والوصولية ، والمشكلات المعقدة لمجتمع ما بعد الاستقلال الذي لم يجد طريقه الأفضل بعد .

هل بإمكان «رواية النخبة» أن تتجاوز صيغتها لتدخل في مهمات أوسع ؟ ربما كانت هذه المسألة إشكالية «المفسرون» وميزتها في آن .

ISBN 2-84305-087-1
EAN 9782843050879